جامعة دمشق

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم الآثار

مقرر

تاريخ العرب والإسلام

قسم الآثار – السنة الرابعة

الأستاذ الدكتور

عمار محمد النهار

عصر الرسول صلى الله عليه وسلم

_ نشأة الرسول صلى الله عليه وسلم:

ولد صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول. والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم.

توفيت أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزيره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي صلى الله عليه وسلم – فقد كان جده مهيبًا، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الفراش ويحاول أعمامه أن يبعدوه عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجد بجانبه، ويرضى أن يبقى جالسًا على فراشه متوسمًا فيه الخير، وأنه سيكون له شأن عظيم وكان جده يحبه حبًا عظيمًا.

ثم توفي عبد المطلب والنبي صلى الله عليه وسلم في الثامنة من عمره، فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنّ عليه ورعاه.

كان أبو طالب مُقلاً في الرزق فعمل النبي صلى الله عليه وسلم برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبيًا إلا رعى الغنم» فقال: أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة».

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة، فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيْم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بل بحر صوفة، وما بقي جَبَلا ثبير وحراء مكانهما' ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه.

وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكثه».

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلما بلغها عن محمد صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجرًا وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشام، وباع محمد صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي

هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته وصدقه وكريم أخلاقه، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأُخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بَكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها.

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم خمسًا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما أصابها من حريق وسيل جارف صدّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضما فوق القامة فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها، ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم نرغ، ولا نريد إلا الخير.

وهدم من ناحية الركنين: فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خُضرة كالأسنمة آخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل، وخصوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم وعمه العباس في بناء الكعبة وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد، فلما توافقوا على ذلك دخل محمد صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا، فلما أخبروه الخبر قال: «هلموا ثوبًا؟» فأتوه به فوضع الحجر فيه بيديه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعًا» فرفعوه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيدخلوا من شاؤوا، وليمنعوا الماء من التسرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحِجر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة على أنه منها؛ لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد.

ـ نزول الوحي:

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفد الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالٍ أخرى، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني

الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: (**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ**) [العلق: 1: 4] فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجُف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني! زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخًا كبيرًا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعًا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَوَمُخْرِجِيّ هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي».

ـــ بدء الدعوة:

بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله وإلى الإسلام، وكان طبيعيًا أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه. ومن أوائل من آمن به: السيدة خديجة رضي الله عنها. علي بن أبي طالب ﷺ. زيد بن حارثة ﷺ. بنات النبي صلى الله عليه وسلم. أبي بكر الصديق ﷺ.

وبعد الإعداد العظيم الذي قام به النبي صلى الله عليه وسلم لتربية أصحابه، وبناء الجماعة المسلمة المنظمة الأولى على أسس عقدية، وتعبدية وخلقية رفيعة المستوى، حان موعد إعلان الدعوة بنزول قول الله تعالى: (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**) [الشعراء: 214، 215].

فجمع قبيلته صلى الله عليه وسلم وعشيرته، ودعاهم علانية إلى الإيمان بإله واحد، وخوَّفهم من العذاب الشديد إن عصوه، وأمرهم بإنقاذ أنفسهم من النار، وبين لهم مسؤولية كل إنسان عن نفسه.

عن ابن عباس ﷺ قال: لما نزلت (**وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ**) صعد النبي صلى الله عليه وسلم على الصفا فجعل ينادي: «يا بني فهر، يا بني عدي» لبطون قريش – حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وقريش، فقال: «أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي؟» قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهب: تبًّا لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟ فنزلت (**تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ**). وفي رواية- ناداهم بطنًا بطنًا، ويقول لكل بطن: «أنقذوا أنفسكم من النار....» ثم قال: «يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، فإني لا أملك لكم من الله شيئًا غير أن لكم رحما سأبُلها ببلالها» .

ولما تمت هذه المرحلية الطبيعية البدائية، وتحققت شهادة المستمعين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنني نذير لكم بين يدي عذاب شديد».

ثم جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم وبلدانهم ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من لقيه من حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير، حين نزول قوله تعالى: (**فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۞ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ۞ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ**) [الحجر: 94-97].

لم يفتر المشركون عن أذى رسول الله صلى الله عليه وسلم، منذ أن صدع بدعوته إلى أن خرج من بين أظهرهم، وأظهره الله عليهم، وهذه أمثلة تدل على ما تعرض له صلى الله عليه وسلم من الإيذاء:

ففي حديث ابن عباس قال: كان النبي يصلي فجاء أبو جهل: فقال: (ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ ألم أنهك عن هذا؟ فانصرف النبي صلى الله عليه وسلم فزبره (نهره) فقال: أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثرُ مني، فأنزل الله تعالى (**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۞ سَنَدْعُو الزَّبَانِيَةَ**) [العلق: 17، 18] قال ابن عباس: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله».

وعن ابن مسعود ﷺ: «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي عند الكعبة، وجمع من قريش في مجالسهم إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جَزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسَلاها، فيجيء به ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه؟ فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعه بين كتفيه، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم ساجدًا، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق منطلق إلى فاطمة عليها السلام -وهي جويرية- فأقبلت تسعى، وثبت النبي صلى الله عليه وسلم حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: «اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش» ثم سمّى: «اللهم عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط، وعمارة بن الوليد» قال ابن مسعود: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب -قليب بدر-، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وأتبع أصحاب القليب لعنة».

ـــ الحصار الاقتصادي والاجتماعي في آخر العام السابع من البعثة:

ازداد إيذاء المشركين من قريش، أمام صبر الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين على الأذى وإصرارهم على الدعوة إلى الله، وإزاء فشو الإسلام في القبائل، وبلوغ الأذى قمته في الحصار المادي والمعنوي، الذي ضربته قريش ظلمًا وعدوانًا على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ومن عطف عليهم من قرابتهم.

قال الزهري: «ثم إن المشركين اشتدوا على المسلمين كأشد ما كانوا، حتى بلغ المسلمين الجهد، واشتد عليهم البلاء، واجتمعت قريش في مكرها، أن يقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم علانية، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني عبد المطلب، وأمرهم أن يدخلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم شعبهم، ويمنعوه ممن أراد قتله، فاجتمعوا على ذلك مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعله حمية، ومنهم من فعله إيمانًا ويقينًا، فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأجمعوا أمرهم ألا يجالسوهم ولا يبايعوهم ولا يدخلوا بيوتهم حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا في مكرهم صحيفة وعهودًا ومواثيق، لا يتقبلوا من بني هاشم أبدًا صلحًا، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل.

فلبث بنو هاشم في شعبهم ثلاث سنين، واشتد عليهم البلاء والجهد، وقطعوا عنهم الأسواق، فلا يتركوا طعاما يقدم من مكة ولا بيعًا إلا بادروهم إليه فاشتروه، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واشتد الحصار على الصحابة، وبني هاشم، وبني المطلب، حتى اضطروا إلى أكل ورق الشجر، وحتى أصيبوا بظلف العيش وشدته، إلى حد أن أحدهم يخرج ليبول فيسمع بقعقعة شيء تحته، فإذا هي قطعة من جلد بعير فيأخذها فيغسلها، ثم يحرقها ثم يسحقها، ثم يستفها، ويشرب عليها الماء فيتقوى بها ثلاثة أيام، وحتى لتسمع قريش صوت الصبية يتضاغون من وراء الشِّعب من الجوع.

فلما كان رأس ثلاث سنين، قيض الله سبحانه وتعالى لنقض الصحيفة أناسًا من أشراف قريش، وكان الذي تولى الانقلاب الداخلي لنقض الصحيفة هشام بن عمرو الهاشمي، فقصد زهير بن أبي أمية المخزومي، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب،

فقال له: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟ لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم، أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبدًا، قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها، فقال له: قد وجدت رجلاً، قال: من هو؟ قال: أنا، فقال له زهير: أبغنا ثالثا.

فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيهم؟ أما والله لو أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعًا قال: ويحك فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد قال: قد وجدت لك ثانيًا: قال من؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثًا: قال: قد فعلت، قال: من؟ قال زهير بن أبي أمية، فقال أبغنا رابعًا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحو ما قال للمطعم بن عدي، فقال له: ويحك وهل نجد أحد يعين على ذلك؟ قال: نعم، زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا، فقال: أبغنا خامسًا، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابته وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال نعم، ثم سمى له القوم، فاتَّعدوا خطم الحجون ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك، وأجمعوا أمرهم، وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعًا، ثم أقبل على الناس فقال: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يبتاعون، ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل، وكان في ناحية المسجد: كذبت والله لا تشق، فقال زمعة ابن الأسود: أنت والله أكذب ما رضينا كتابتها حين كُتبت، فقال أبو البختري: صدق زمعة لا نرضى ما كُتبت فيها، ولا نقر به، فقال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ من الله منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك؟ فقال أبو جهل: هذا أمر قضي بليل، تُشوورِ فيه في غير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد لا يتكلم.

وقام المعطم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وروى ابن إسحاق أن الله عز وجل أرسل على الصحيفة الأرضة فلم تدع فيها اسمًا لله عز وجل إلا أكلته، وبقي فيها الظلم والقطعية والبهتان وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك عمه فذهب أبو طالب إلى قومه وأخبرهم بذلك، وقال لهم: فإن كان كاذبًا فلكم علي أن أدفعه إليكم تقتلونه، وإن كان صادقًا فهل ذلك ناهيكم عن تظاهركم علينا؟ فأخذ عليهم المواثيق وأخذوا عليه، فلما نشروها فإذا هي كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال المطعم بن عدي وهشام بن عمرو: نحن براء من هذه الصحيفة القاطعة العادية الظالمة، ولن نمالئ أحدًا في فساد أنفسنا وأشرافنا، وتتابع على ذلك ناس من أشراف قريش فخرجوا من الشِّعب.

ـــ الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه وعصمه الله منهم، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل لكم فرجا مما أنتم فيه»، فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام.

غادر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة رجال، وأربع نسوة، وقيل: خمس نسوة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردهم إلى مكة، وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة.

ثم رجع المهاجرون إلى مكة بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر، واعتقادهم أن إسلام هذين الصحابيين الجليلين سيعتز به المسلمون وتقوى شوكتهم.

ولكن قريشًا واجهت إسلام حمزة وعمر رضي الله عنهما بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب التي تستعملها ضد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم سلاحًا قاطعًا وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية، وقد تحدثت عنه، وكان من جراء ذلك الموقف العنيف أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك.

ـــ هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم مكة من الهجرة الأولى، اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا ونالوهم بالأذى، واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة ولست معنا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليَّ، لكم هاتان الهجرتان جميعًا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله.

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم وعدهم -كما قال ابن إسحاق وغيره ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان عمار بن ياسر فيهم واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، قال السهيلي وهو الأصح عند أهل السير كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما وثماني عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ثم الذين ولدوا لهم فيها.

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا واستقرارًا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم أن يبعثوا وفدا للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين وهو جعفر بن أبي طالب، وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده.

ـــ رحلة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسعى لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعدَّاس الذي كان نصرانيًّا فأسلم، وأرخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام.

كانت الطائف تمثل العمق الإستراتيجي لملأ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وج وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس، وقد كان كثير من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف فإذا اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الطائف فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم، وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج، وهذا التحرك الدعوي السياسي

الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول صلى الله عليه وسلم يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع؛ لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها، من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف. كان بنو مالك والأحلاف -بحكم أسبقيتهم الزمنية للاستيطان- هما المسيطرين عليها وتنتهي إليهما قيادتها، فكانت لهما الرئاسة الدينية المتمثلة في رعاية المسجد، بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة والعلاقة الخارجية، والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف، التي كانت من أخصب بلاد العرب وأكثرها جذبًا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريش ويخافان بني عامر، وكلها قبائل قوية وقادرة على الانقضاض والاستلاب؛ ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات وهي عين الطريق التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها.

هذا و لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم غافلاً عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات، وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيا منهما، فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع على وجه الخصوص أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر لقريش لا تقوم على القناعة المذهبية أو الولاء الديني بقدر ما تقوم على أساس التخوف من قريش، وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة حينما دخل الطائف، إلى بني عمرو بن عمير الذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريش، و لم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن قال ابن هشام في السيرة: «لما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف عمد إلى نفر من ثقيف هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم إخوة ثلاثة عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بل بالغوا في السفه وسوء الأدب معه فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني» وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية، وألا تنكشف تحركاته لقريش فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم كثيرا بجوانب الحيطة والحذر .

ـــ بيعة العقبة الأولى:

بعد عام من المقابلة الأولى التي تمت بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأهل يثرب عند العقبة وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً فلقوه صلى الله عليه وسلم بالعقبة، وبايعوه بيعة العقبة الأولى، (عشرة من الخزرج واثنان من الأوس) مما يشير إلى نشاط وفد الخزرج الذين أسلموا في العام الماضي، تركز على وسطهم القبلي بالدرجة الأولى، لكنهم تمكنوا في نفس الوقت من اجتذاب رجال الأوس، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

وقد تحدث عبادة بن الصامت الخزرجي عن البيعة في العقبة الأولى، فقال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى، وكنا اثني عشر رجلاً، فبايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفترض علينا الحرب: على ألا نشرك بالله، ولا نسرق، ولا نزني، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصيه في معروف، فإن وفيتم فلكم

الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله عز وجل، إن شاء غفر وإن شاء عذب» .

وبنود هذه البيعة هي التي بايع الرسول صلى الله عليه وسلم عليها النساء فيما بعد ولذلك عرفت باسم بيعة النساء، وقد بعث الرسول صلى الله عليه وسلم مع المبايعين مصعب بن عمير، يعلمهم الدين ويقرئهم القرآن فكان يسمى بالمدينة (المقرئ)، وكان يؤمهم في الصلاة، وقد اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم عن علم بشخصيته من جهة، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى، حيث كان ﷺ بجانب حفظه لما نزل من القرآن، يملك من اللباقة والهدوء، وحسن الخلق والحكمة، قدرًا كبيرًا، فضلاً عن قوة إيمانه، وشدة حماسه للدين، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة، وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها، كسعد بن معاذ وأسيد بن الحضير، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم.

لقد نجحت سفارة مصعب بن عمير ﷺ في شرح تعاليم الدين الجديد، وتعليم القرآن الكريم وتفسيره، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية، وبين النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه بمكة المكرمة لإيجاد القاعدة الأمينة لانطلاق الدعوة.

ـــ بيعة العقبة الثانية:

قال جابر بن عبد الله ﷺ: .. فقلنا، حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف، فرحل إليه منا سبعون رجلاً حتى قدموا عليه في الموسم، فواعدناه شعب العقبة فاجتمعنا عليه من رجل ورجلين، حتى توافينا فقلنا: يا رسول الله علام نبايعك؟

قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله، لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة».

قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة، وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم جبينة، فبينوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسليها أبدًا، قال: فقمنا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط، ويعطينا على ذلك الجنة.

قال: «أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أهل الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرًا عن كابر، فقاطعه أبو الهيثم بن التيهان متسائلا: يا رسول الله، إن بيننا وبين القوم حبالاً، وإنا قاطعوها (يعني اليهود) فهل عسيتم إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم، وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

ثم قال: «أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم».

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس.

ـــ الهجرة إلى المدينة:

لما بايعت طلائع الخير ومواكب النور من أهل يثرب النبي صلى الله عليه وسلم على الإسلام، والدفاع عنه، ثارت ثائرة المشركين، فازدادوا إيذاء للمسلمين، فأذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين بالهجرة إلى المدينة، وكان المقصود من الهجرة إلى المدينة إقامة الدولة الإسلامية التي تحمل الدعوة، وتجاهد في سبيلها، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله وكان التوجه إلى المدينة من الله تعالى، عن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما صدر السبعون من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم طابت نفسه، وقد جعل الله له منعة، وقوماً أهل حرب وعدة، ونجدة، وجعل البلاء يشتد على المسلمين من المشركين لما يعلمون من الخروج، فيضيقوا على أصحابه وتعبثوا بهم ونالوا منهم ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكا ذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم واستأذنوه في الهجرة، فقال: «قد أريت دار هجرتكم، أريت سبخة ذات نخل بين لابتين، وهما الحرتان، ولو كانت السراة أرض نخل وسباخ لقلت هي هي»، ثم مكث أياماً ثم خرج إلى أصحابه مسروراً فقال: «قد أخبرت بدار هجرتكم، وهي يثرب، فمن أراد الخروج فيخرج إليها».

فجعل القوم يتجهون ويتوافقون ويتواسون ويخرجون ويخفون ذلك، فكان أول من قدم المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم قدم بعده عامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حَثْمة، فهي أول ظعينة قدمت المدينة، ثم قدم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أرسالاً، فنزلوا على الأنصار، في دورهم فآووهم ونصروهم وآسوهم، وكان سالم مولى أبي حذيفة يؤم المهاجرين بقباء، قبل أن يقدم النبي صلى الله عليه وسلم فلما خرج المسلمون في هجرتهم إلى المدينة، كَلِبَت قريش عليهم، وحربوا واغتاظوا على من خرج من فتيانهم، وكان نفر من الأنصار بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في البيعة الآخرة، ثم رجعوا إلى المدينة، فلما قدم أول من هاجر إلى قباء خرجوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، حتى قدموا مع أصحابه في الهجرة، فهم مهاجرون أنصاريون، وهم ذكوان بن عبد قيس، وعقبة بن وهب بن كلدة والعباس بن عبادة بن نضلة، وزياد بن لبيد، وخرج المسلمون جميعاً إلى المدينة فلم يبقَ بمكة فيهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، وعلي، أو مفتون أو مريض أو ضعيف عن الخروج.

وبعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة -رضي الله عنهم- من الهجرة إلى المدينة، على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة، فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب؛ لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقوله تعالى (**وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ**) [الأنفال:30] فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق، يريدون النبي صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن أخرجوه، فاطلع الله نبيه على ذلك فبات عليٌّ على فراش النبي صلى الله عليه وسلم تلك الليلة، وخرج النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أصبحوا ثاروا إليه فلما رأوا عليًّا رد الله كيدهم، فقالوا أين صاحبك هذا؟ قال: لا أدري، فاقتفوا أثره فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم الأمر، فصعدوا الجبل فمروا بالغار فرأوا على بابه نسيج العنكبوت، فقالوا: لو دخل ههنا لم يكن ينسج العنكبوت على بابه، فمكث فيه ثلاثا.

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث.

قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أخرج عني من عندك» فقال: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك، فداك أبي وأمي! فقال: «إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة» قالت: فقال أبو بكر: الصحبة

يا رسول الله؟ قال: «الصحبة» قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحدًا يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا نبي الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتهما لهذا، فاستأجرا عبد الله بن أريقط رجلاً من بني الديل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركًا يدلهما على الطريق، فدفعا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما.

قالت عائشة: فجهزناهما أحث الجهاز، وصنعنا لهم سفرة في جراب، فقطمت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاقين، ثم لحق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر بغار في جبل ثور فكمنا فيه ثلاث ليالٍ يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر وهو غلام، شاب، ثقف لقن، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمرا يَكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخبر ذلك، حين يختلط الظلام ويرعى عليهما عامر بن فهيرة مولى أبي بكر منحة من غنم فيريحها عليها حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رِسَل- وهو لبن منحتهما ورضيفهما - حتى ينعق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رجلا من بني الديل وهو من بني عبد بن عدي هاديا خريتا- والخريت الماهر- بالهداية قد غمس حلفاً في آل العاص ابن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال براحلتيهما صبح ثلاث، وانطلق معهما عامر به فهيرة، والدليل فأخذ بهم طريق السواحل».

ولم يعلم بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد حين خرج إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر.

أما علي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمره أن يتخلف، حتى يؤدي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع، التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته وكان الميعاد بين الرسول صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ﷺ فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبد الله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليال.

ولما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، كانوا يغدون كل غداة إلى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم، فلما أووا إلى بيوتهم أوفَى رجل من يهود على أُطُم من آطامهم لأمر ينظر إليه، فبصر برسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح فتلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عمرو بن عوف، وذلك يوم الاثنين، من شهر ربيع الأول فقام أبو بكر للناس وجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم يحيي أبا بكر، حتى أصابت الشمس رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك «فلبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأُسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ركب راحلته».

وبعد أن أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم المدة التي مكثها بقباء، وأراد أن يدخل المدينة «بعث إلى الأنصار فجاءوا إلى نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا آمنين مطاعين، فركب نبي الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وحفوا دونهما بالسلاح».

وعند وصوله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: «جاء نبي الله، جاء نبي الله صلى الله عليه وسلم

فأشرفوا ينظرون ويقولون: جاء نبي الله، جاء نبي الله» .

ـــ دعائم الدولة الإسلامية في المدينة:

شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ دخوله المدينة يسعى لتثبيت دعائم الدولة الجديدة على قواعد متينة، وأسس راسخة، فكانت أولى خطواته المباركة الاهتمام ببناء دعائم الأمة كبناء المسجد الأعظم بالمدينة، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار على الحب في الله، وإصدار الوثيقة أو الدستور الإسلامي في المدينة الذي ينظم العلاقات بين المسلمين واليهود ومشركي المدينة، وإعداد جيش لحماية الدولة، والسعي لتحقيق أهدافها، والعمل على حل مشاكل المجتمع الجديد، وتربيته على المنهج الرباني في كافة شئون الحياة فقد استمر البناء التربوي والتعليمي، واستمر القرآن الكريم يتحدث في المدينة عن عظمة الله وحقيقة الكون والترغيب في الجنة والترهيب من النار ويشرع الأحكام لتربية الأمة، ودعم مقومات الدولة التي ستحمل نشر دعوة الله بين الناس قاطبة، وتجاهد في سبيل الله.

وكانت مسيرة الأمة العلمية والتربوية تتطور مع تطور مراحل الدعوة وبناء المجتمع وتأسيس الدولة.

وعالج رسول الله صلى الله عليه وسلم الأزمة الاقتصادية بالمدينة من خلال المنهج الرباني. واستمر البناء التربوي ففرض الصيام، وفُرضت الزكاة وأخذ المجتمع يزدهر والدولة تتقوى على أسس ثابتة وقوية.

ـــ الدعامة الأولى: بناء المسجد الأعظم بالمدينة:

كان أول ما قام به الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة بناء المسجد، فروى البخاري بسنده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل المدينة راكباً راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة وهو يصلي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مربدا للتمر لسهل وسهيل غلامين يتيمن في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بركت به راحلته: «هذا إن شاء الله المنزل» ثم دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الغلامين فساومهما بالمربد ليتخذه مسجداً فقالا: لا، بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما.

ـــ الدعامة الثانية: المؤاخاة في المدينة:

ساهم نظام المؤاخاة في ربط الأمة بعضها ببعض، فقد أقام الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم، هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا للإسلام وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتأخر أحد أو يتقدم إلا بمروءته وتقواه.

وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الأخوة عقداً نافذاً لا لفظاً فارغاً، وعملا يرتبط بالدماء والأموال لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر.

وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج في هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال.

والسبب الذي أدى إلى تقوية هذه الأخوة بين المهاجرين والأنصار هو أن أهل هذا المجتمع ممن التقوا على دين الله وحده، نشّأهم دينهم الذي اعتنقوه على أن يقولوا ويفعلوا، وعلّمهم الإيمان والعمل جميعًا، فهم أبعد ما يكونون عن الشعارات التي لا تتجاوز أطراف الألسنة، وكانوا على النحو الذي حكاه الله عنهم في قوله تعالى: (**إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إذا دُعُوا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) [النور: 51].

وبذلك الذي درج عليه المسلمون كفل البقاء والاستمرار لهذه الأخوة، التي شد الله بها أزر دينه ورسوله حتى آتت ثمارها في كل أطوار الدعوة طوال حياته صلى الله عليه وسلم، وامتد أثرها حتى وفاته صلى الله عليه وسلم، وبقيت هذه المؤاخاة عند مبايعة الصديق ﷺ و لم يحدث الأنصار صدعًا في شمل الأمة، مستجيبين في ذلك لشهوات السلطة وغريزة السيطرة، ذلك فإن سياسة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، نوع من السبق السياسي الذي اتبعه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تأصيل المودة وتمكينها في مشاعر المهاجرين والأنصار، الذين سهروا جميعا على رعاية هذه المودة وذلك الإخاء، بل كانوا يتسابقون في تنفيذ بنوده.

ولا سيما الأنصار الذين لا يجد الكتاب والباحثون مهما تساموا إلى ذروة البيان خيرا من حديث الله عنهم قال تعالى: (**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**) [الحشر: 9].

وهذه بعض أسماء المهاجرين والأنصار ممن تآخوا في الله: أبو بكر الصديق ﷺ وخارجة بن زهير، عمر بن الخطاب وعتبان بن مالك، أبو عبيدة بن الجراح وسعد بن معاذ، عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، الزبير بن العوام وسلامة بن سلامة بن وقش، طلحة بن عبيد الله وكعب بن مالك، سعيد بن زيد وأبي بن كعب، مصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد، أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وعباد بن بشر بن وقش، عمار بن ياسر وحذيفة بن اليمان، أبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو، حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة، سلمان الفارسي وأبو الدرداء، بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو رويحة عبد الله بن عبد الرحمن الخثعمي.

ـــ الدعامة الثالثة: الوثيقة أو الصحيفة:

نظم النبي العلاقات بين سكان المدينة، وكتب في ذلك كتاباً أوردته المصادر التاريخية واستهدف هذا الكتاب أو الصحيفة توضيح التزامات جميع الأطراف داخل المدينة، وتحديد الحقوق والواجبات، وقد سميت في المصادر القديمة بالكتاب والصحيفة، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها لفظ (الدستور).

وأهم ما ورد في الوثيقة:

ـــ تحديد مفهوم الأمة: تضمنت الصحيفة مبادئ عامة، درجت دساتير الدول الحديثة على وضعها فيها، وفي طليعة هذه المبادئ تحديد مفهوم الأمة، فالأمة في الصحيفة تضم المسلمين جميعا مهاجريهم وأنصارهم ومن تبعهم، ممن لحق بهم وجاهد معهم أمة واحدة، من دون الناس وهذا شيء جديد كل الجدّه في تاريخ الحياة السياسية في جزيرة العرب، إذ نقل الرسول صلى الله عليه وسلم قومه من شعار القبلية، والتبعية لها إلى شعار الأمة، التي تضم كل من اعتنق الدين الجديد، فلقد قالت الصحيفة عنهم «أمة واحدة» (المادة21) وقد جاء به القرآن الكريم قال تعالى (**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**) [الأنبياء: 92].

ـــ المرجعية العليا لله ورسوله:

جعلت الصحيفة الفصل في كل الأمور بالمدينة يعود إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد نصت على مرجع فض الخلاف في المادة (23)، وقد جاء فيها: «وأنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد صلى الله عليه وسلم» والمغزى من ذلك واضح وهو تأكيد سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة وتفصل في الخلافات منعاً لقيام اضطرابات في الداخل من جراء تعدد السلطات، وفي نفس الوقت تأكيد ضمني برئاسة الرسول صلى الله عليه وسلم على الدولة فقد حددت الصحيفة

مصدر السلطات الثلاث؛ التشريعية، والقضائية، والتنفيذية، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصاً على تنفيذ أوامر الله من خلال دولته الجديدة، لأن تحقيق الحاكمية لله على الأمة هو محض العبودية لله تعالى؛ لأنه بذلك يتحقق التوحيد ويقوم الدين قال تعالى: (**مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**) [يوسف: 40].

ـــ إقليم الدولة:

وجاء في الصحيفة: «وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة» مادة (40) وأصل التحريم أن لا يقطع شجرها، ولا يقتل طيرها، فإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير فما بالك في الأموال والأنفس فهذه الصحيفة حددت معالم الدولة: أمة واحدة، وإقليم هو المدينة، وسلطة حاكمة يرجع إليها وتحكم بما أنزل الله.

إن المدينة كانت بداية إقليم الدولة الإسلامية ونقطة الانطلاق، ومركز الدائرة التي كان الإقليم يتسع منها حتى يضع حدًّا للقلاقل والاضطرابات ويسوده السلم والأمن العام.

وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ليثبتوا أعلاماً على حدود حرم المدينة من جميع الجهات، وحدود المدينة بين لابتيها شرقاً وغرباً، وبين جبل ثور في الشمال وجبل عَيْر في الجنوب.

ـــ الحريات وحقوق الإنسان:

إن الصحيفة تدل بوضوح وجلاء على عبقرية الرسول صلى الله عليه وسلم، في صياغة موادها وتحديد علاقات الأطراف بعضها ببعض، فقد كانت موادها مترابطة وشاملة، وتصلح لعلاج الأوضاع في المدينة آنذاك، وفيها من القواعد والمبادئ ما يحقق العدالة المطلقة، والمساواة التامة بين البشر، وأن يتمتع بنو الإنسان على اختلاف ألوانهم ولغاتهم وأديانهم بالحقوق والحريات بأنواعها. يقول الأستاذ الدكتور محمد سليم العوا: «ولا تزال المبادئ التي تضمنها الدستور في جملتها معمولاً بها، والأغلب أنها ستظل كذلك في مختلف نظم الحكم المعروفة إلى اليوم... وصل إليها الناس بعد قرون من تقريرها في أول وثيقة سياسية دوَّنها الرسول صلى الله عليه وسلم ».

فقد أعلنت الصحيفة أن الحريات مصونة، كحرية العقيدة والعبادة وحق الأمن، إلخ، فحرية الدين مكفولة: «للمسلمين دينهم ولليهود دينهم» قال تعالى: (**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**) [البقرة: 256]. وقد أنذرت الصحيفة بإنزال الوعيد، وإهلاك من يخالف هذا المبدأ أو يكسر هذه القاعدة، وقد نصت الوثيقة على تحقيق العدالة بين الناس، وعلى تحقيق مبدأ المساواة.

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس، وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهداً أو مالاً وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس، دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم، أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين، ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**) [المائدة: 8].

والمعنى: لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم قوم على محاباتهم والميل معهم.

أما مبدأ المساواة؛ فقد جاءت نصوص صريحة في الصحيفة حولها، منها: «أن ذمة الله واحدة» وأن المسلمين «يجير عليهم أدناهم» وأن «بعضهم موالي بعض دون الناس» ومعنى الفقرة الأخير أنهم يتناصرون في السراء والضراء (المادة 15). وتضمنت المادة (19) أن «المؤمنين يبيء بعضهم علي بعض بما نال دماءهم في سبيل الله» قال السهيلي شارح السيرة في كتابه (الروض الأنف): (ومعنى قوله يُبيء هو من البواء، أي: المساواة).

يعد مبدأ المساواة أحد المبادئ العامة، التي أقرها الإسلام، وهي من المبادئ التي تساهم في بناء المجتمع المسلم، قال تعالى: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**) [الحجرات: 13].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى، أبَلَّغت».

إن هذا المبدأ كان من أهم المبادئ التي جذبت الكثير من الشعوب قديما نحو الإسلام فكان هذا المبدأ مصدراً من مصادر القوة للمسلمين الأولين.

وليس المقصود بالمساواة هنا (المساواة العامة) بين الناس جميعاً في كافة أمور الحياة، كما ينادي بعض المخدوعين ويرون ذلك عدلاً فالاختلاف في المواهب والقدرات، والتفاوت في الدرجات غاية من غايات الخلق، ولكن المقصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مساواة مقيدة بأحوال، وليست مطلقة في جميع الأحوال فالمساواة تأتي في معاملة الناس أمام الشرع، والقضاء، وكافة الأحكام الإسلامية، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، او الثروة أو الجاه، أو غيرها.

كانت الوثيقة قد اشتملت على أتم ما قد تحتاج الدولة من مقوماتها الدستورية والإدارية، وعلاقة الأفراد بالدولة، وكان القرآن يتنزل في المدينة عشر سنين، يرسم للمسلمين، خلالها مناهج الحياة، ويرسي مبادئ الحكم، وأصول السياسة، وشئون المجتمع وأحكام الحرام والحلال وأسس التقاضي، وقواعد العدل، وقوانين الدولة المسلمة في الداخل والخارج، والسنة الشريفة تدعم هذا وتشيده، وتفصله في تنوير وتبصرة، فالوثيقة خطت خطوطاً عريضة في الترتيبات الدستورية، وتعتبر في القمة من المعاهدات التي تحدد صلة المسلمين بالأجانب الكفار المقيمين معهم، في شيء كثير من التسامح والعدل والمساواة، وعلى التخصيص إذا لوحظ أنها أول وثيقة إسلامية، تسجل وتنفذ في أقوام كانوا منذ قريب وقبل الإسلام أسرى العصبية القبلية، ولا يشعرون بوجودهم إلا من وراء الغلبة، والتسلط وبالتخوض في حقوق الآخرين وأشيائهم. كانت هذه الوثيقة فيها من المعاني الحضارية الشيء الكثير، وما توافق الناس على تسميته اليوم بحقوق الإنسان، وإنه لا بد على الجانبين المتعاقدين أن يلتزموا ببنودها.

غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم

ـ غزوة بدر الكبرى:

بلغ المسلمين تحركُّ قافلة تجارية كبيرة من الشام تحمل أموالاً عظيمة لقريش يقودها أبو سفيان ويقوم على حراستها بين ثلاثين وأربعين رجلا، فأرسل الرسول صلى الله عليه وسلم بَسْبَس بن عمرو لجمع المعلومات عن القافلة، فلما عاد بسبس بالخبر اليقين، ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه للخروج وقال لهم: «هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله

ينفلكموها»، وكان خروجه من المدينة في اليوم الثاني عشر من شهر رمضان المبارك من السنة الثانية للهجرة، ومن المؤكد أنه حين خروجه صلى الله عليه وسلم من المدينة لم يكن في نيته قتال، وإنما كان قصده عير قريش، وكانت الحالة بين المسلمين وكفار مكة حالة حرب، وفي حالة الحرب تكون أموال العدو ودماؤهم مباحة، فكيف إذا علمنا أن جزءاً من هذه الأموال الموجودة في القوافل القرشية كانت للمهاجرين المسلمين من أهل مكة قد استولى عليها المشركون ظلمًا وعدوانًا.

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم اثنين من أصحابه إلى بدر طليعة للتعرف على أخبار القافلة، فرجعا إليه بخبرها، وقد حصل خلاف بين المصادر الصحيحة حول عدد الصحابة الذين رافقوا النبي صلى الله عليه وسلم في غزوته هذه إلى بدر، ففي حين جعلهم البخاري «بضعة عشر وثلاثمائة». يذكر مسلم بأنهم ثلاثمائة وتسعة عشرة رجلا، في حين ذكرت المصادر أسماء ثلاثمائة وأربعين من الصحابة البدريين.

بلغ أبا سفيان خبر مسير النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه من المدينة بقصد اعتراض قافلته واحتوائها، فبادر إلى تحول مسارها إلى طريق الساحل، في نفس الوقت أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى قريش يستنفرها لإنقاذ قافلتها وأموالها، فقد كان أبو سفيان يقظًا حذرًا، يتلقط أخبار المسلمين ويسأل عن تحركاتهم، بل يتحسس أخبارهم بنفسه، فقد تقدم إلى بدر بنفسه، وسأل من كان هناك: (هل رأيتم من أحد؟) قالوا: لا. إلا رجلين قال: (أروني مناخ ركابهما، فأروه، فأخذ البعر ففته فإذا هو فيه النوى، فقال: هذا والله علائف يثرب). فقد استطاع أن يعرف تحركات عدوه، حتى خبر السرية الاستطلاعية عن طريق غذاء دوابها، بفحصه البعر الذي خلفته الإبل، إذ عرف أن الرجلين من المدينة أي من المسلمين، وبالتالي فقافلته في خطر، فأرسل عمرو بن ضمضم إلى قريش وغيَّر طريق القافلة، واتجه نحو ساحل البحر.

كان وقع خبر القافلة شديدًا على قريش، التي اشتاط زعماؤها غضبًا لما يرونه من امتهان للكرامة، وتعريض للمصالح الاقتصادية للأخطار إلى جانب ما ينجم عن ذلك من انحطاط لمكانة قريش بين القبائل العربية الأخرى؛ ولذلك فقد سعوا إلى الخروج لمجابهة الأمر بأقصى طاقاتهم القتالية.

لقد جاءهم عمرو بن ضمضم الغفاري بصورة مثيرة جدًا يتأثر بها كل من رآها، أو سمع بها، إذ جاءهم وقد حول رحله وجدع أنف بعيره، وشق قميصه من قُبل ومن دُبر، ودخل مكة وهو ينادي بأعلى صوته: يا معشر قريش: اللطيمة، اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث، الغوث.

وعندما أمن أبو سفيان على سلامة القافلة أرسل إلى زعماء قريش وهو بالجحفة برسالة أخبرهم فيها بنجاته والقافلة، وطلب منهم العودة إلى مكة، وذلك أدى إلى حصول انقسام حاد في آراء زعماء قريش، فقد أصر أغلبهم على التقدم نحو بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل العربية الأخرى بمدى قوة قريش وسلطانها، وقد انشق بنو زهرة، وتخلف في الأصل بنو عدي. فعاد بنو زهرة إلى مكة، أما غالبية قوات قريش وأحلافهم فقد تقدمت حتى وصلت بدرًا.

لما بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم نجاةُ القافلة وإصرار زعماء مكة على قتال النبي صلى الله عليه وسلم استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه في الأمر، وأبدى بعض الصحابة عدم ارتياحهم لمسألة المواجهة الحربية مع قريش، حيث إنهم لم يتوقعوا المواجهة ولم يستعدوا لها، وحاولوا إقناع الرسول صلى الله عليه وسلم بوجهة نظرهم، وقد أجمع قادة المهاجرين على تأييد فكرة التقدم لملاقاة العدو، وبعد ذلك عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «أشيروا عليَّ أيها الناس»، وكان إنما يقصد الأنصار؛ لأنهم غالبية جنده، ولأن بيعة العقبة الثانية لم تكن في ظاهرها ملزمة لهم بحماية الرسول صلى الله عليه وسلم خارج المدينة، وقد أدرك الصحابي سعد بن معاذ، وهو حامل لواء الأنصار، مقصد النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك فنهض قائلاً: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال صلى الله عليه وسلم: «أجل». قال: (لقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما

جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدًا، إنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك فسر على بركة الله). سُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم من مقالة سعد بن معاذ، ونشطه ذلك فقال صلى الله عليه وسلم: «سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم».

نظم النبي صلى الله عليه وسلم جنده بعد أن رأى طاعة الصحابة وشجاعتهم واجتماعهم على القتال، وعقد اللواء الأبيض وسلَّمه إلى مصعب بن عمير، وأعطى رايتين سوداوين إلى سعد بن معاذ، وعلي بن أبي طالب، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة.

وبعد أن جمع صلى الله عليه وسلم معلومات دقيقة عن قوات قريش سار مسرعًا ومعه أصحابه إلى بدر ليسبقوا المشركين إلى ماء بدر، وليَحُولوا بينهم وبين الاستيلاء عليه، فنزل عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر، وقال: يا رسول الله: أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: «بل هو الرأي والحرب والمكيدة» قال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم-أي جيش المشركين- فننزله ونغور -نخرب- ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضًا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم برأيه ونهض بالجيش حتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه، ثم صنعوا الحياض وغوروا ما عداها من الآبار، وهذا يصور مثلاً من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه حيث كان أي فرد من أفراد ذلك المجتمع يدلي برأيه حتى في أخطر القضايا، ولا يكون في شعوره احتمال غضب القائد الأعلى، ثم حصول ما يترتب على ذلك الغضب من تدني سمعة ذلك المشير بخلاف رأي القائد وتأخره في الرتبة وتضرره في نفسه أو ماله.

وبعد نزول النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه على أدنى ماء بدر من المشركين، اقترح سعد بن معاذ على رسول الله صلى الله عليه وسلم بناء عريش له يكون مقرًا لقيادته ويأمن فيه من العدو، وكان مما قاله سعد في اقتراحه: (يا نبي الله ألا نبني لك عريشًا تكون فيه ثم نلقى عدونا، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشد لك حبًا منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربًا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم، ويناصحونك، ويجاهدون معك) فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرًا ودعا له بخير، ثم بنى المسلمون العريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم على تل مشرف على ساحة القتال، وكان معه فيه أبو بكر ﷺ، وكانت ثلة من شباب الأنصار بقيادة سعد بن معاذ يحرسون عريش رسول الله صلى الله عليه وسلم.

اندلع القتال بين المسلمين والمشركين بالمبارزات الفردية، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أرجعهم؛ لأنه أحب أن يبارزهم بعض أهله وذوي قرباه، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: «قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي» وبارز حمزة شيبة فقتله، وبارز علي الوليد وقتله، وبارز عبيدة بن الحارث عتبة فضرب كل واحد منهما الآخر بضربة موجعة، فكر حمزة وعليَّ على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن ما لبث أن استُشهد متأثرا من جراحته وقد قال عنه صلى الله عليه وسلم: «أشهد أنك شهيد».

ولما شاهد المشركون قتل الثلاثة الذين خرجوا للمبارزة استشاطوا غضبًا وهجموا على المسلمين هجومًا عامًا، صمد وثبت له المسلمون، وهم واقفون موقف الدفاع، ويرمونهم بالنبل كما أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان شعار المسلمين: أَحَد أَحَد، ثم أمرهم النبي صلى الله عليه وسلم بالهجوم المضاد محرضًا لهم على القتال وقائلا لهم: «شدوا» وواعدًا من يقتل صابرًا

محتسبًا بأن له الجنة، ومما زاد في نشاط المسلمين واندفاعهم في القتال سماعهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: (**سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ**) وعلمهم وإحساسهم بإمداد الملائكة وبتقليلهم في أعين المسلمين وتقليل المسلمين بأعين المشركين. فقد كان صلى الله عليه وسلم قد رأى في منامه ليلة اليوم الذي التقى فيه الجيشان، رأى المشركين عددهم قليل، وقد قص رؤياه على أصحابه فاستبشروا خيرًا قال تعالى: (**إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**).

انتهت معركة بدر بانتصار المسلمين على المشركين، وكان قتلى المشركين سبعين رجلا، وأسر منهم سبعون، وكان أكثرهم من قادة قريش وزعمائهم، واستشهد من المسلمين أربعة عشر رجلا، منهم ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، ولما تم الفتح وانهزم المشركون أرسل صلى الله عليه وسلم عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ليبشرا المسلمين في المدينة بنصر الله للمسلمين وهزيمة المشركين.

ـ غزوة أحد:

كان للهزيمة الكبيرة في بدر، وقتل السادة والأشراف من قريش وقع كبير من الخزي والعار الذي يحل بهم، وجعلهم يشعرون بالمذلة والهزيمة، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم في غسل هذه الذلة والمهانة التي لصقت بهم، ولذلك شرعوا في جمع المال لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فور عودتهم من بدر، قال ابن إسحاق: (لما أصيب يوم بدر من كفار قريش أصحاب القليب، ورجع فُلهم إلى مكة، ورجع أبو سفيان بعيرهم فأوقفها بدار الندوة، وكذلك كانوا يصنعون، فلم يحركها ولا فرقها، فطابت أنفس أشرافهم أن يجهزوا منها جيشا لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمشى عبد الله بن ربيعة، وعكرمة بن أبي جهل، والحارث بن هشام، وحويطب بن عبد العزى، وصفوان بن أمية في رجال ممن أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم يوم بدر، فكلموا أبا سفيان ومن كانت له في تلك العير تجارة من قريش، فقالوا: إن محمدًا قد وتركم، وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا ندرك منه ثأرنا بمن أصاب منها، فقال أبو سفيان: أنا أول من أجاب إلى ذلك.

ودعا جبير بن مطعم غلامًا له حبشيًا يقال له: وحشي يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ لها فقال: اخرج مع الناس فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمي طعيمة بن عدي، فأنت عتيق.

استكملت قريش قواها في يوم السبت لسبع خلون من شوال من السنة الثالثة من الهجرة، وعبأت جيشها المكون من ثلاثة آلاف مقاتل مصحبين معهم النساء والعبيد، ومن تبعها من القبائل العربية المجاورة، فخرجت قريش بحدها وحديدها وأحابيشها ومن تبعها من كنانة وأهل تهامة. وخرجوا بالظعن، التماس الحفيظة لئلا يفروا.

فخرج أبو سفيان، وهو قائد الناس بهند بنت عتبة بن ربيعة، وخرج صفوان بن أمية بن خلف ببرزة بنت مسعود الثقفية، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة، وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة. فأقبلوا حتى نزلوا ببطن السبخة من قناة، على شفير الوادي مما يلي المدينة.

كانت التعبئة القرشية قد سبقتها حملة إعلامية ضخمة تولى كبرها أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وعمرو بن العاص، وهبيرة المخزومي، وابن الزَّبَعْرَى وقد حققت نتائج كبيرة، وبلغت النفقات الحربية لجيش قريش خمسين ألف دينار ذهبًا.

وكان العباس بن عبد المطلب يرقب حركات قريش واستعداداتها العسكرية، فلما تحرك هذا الجيش بعث العباس رسالة مستعجلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ضمنها جميع تفاصيل الجيش، وأسرع رسول العباس بإبلاغ الرسالة وجد في السير، حتى إنه قطع الطريق بين مكة والمدينة، التي تبلغ مساحتها خمسمائة كيلومتر، في ثلاثة أيام وسلم الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسجد قباء.

كانت المعلومات التي قدمها العباس لرسول الله صلى الله عليه وسلم دقيقة فقد جاء في رسالته: (أن قريشًا قد أجمعت المسير إليك، فما كنت صانعًا إذا حلوا بك فاصنعه، وقد توجهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة دارع وثلاثة آلاف بعير، وأوعبوا من السلاح).

كما أرسل صلى الله عليه وسلم أنسًا ومؤنسًا ابني فضالة يتنصتان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة، وأرسلت خيلها وإبلها ترعى زروع يثرب المحيطة بها، وعادا فأخبراه بخبر القوم.

بعد أن جمع صلى الله عليه وسلم المعلومات الكاملة عن جيش كفار قريش جمع أصحابه رضي الله عنهم وشاورهم في البقاء في المدينة والتحصن فيها أو الخروج لملاقاة المشركين، وكان رأي النبي صلى الله عليه وسلم البقاء في المدينة، وقال: «إنا في جنة حصينة» فإن رأيتم أن تقيموا وتدعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبي ابن سلول مع رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن رجالاً من المسلمين ممن كان فاته بدر قالوا: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا.

قال ابن كثير: (وأبى كثير من الناس إلا الخروج إلى العدو و لم يتناهوا إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأيه، ولو رضوا بالذي أمرهم كان ذلك، ولكن غلب القضاء والقدر، وعامة من أشار عليه بالخروج رجال لم يشهدوا بدرًا، قد علموا الذي سبق لأهل بدر من الفضيلة).

وقال ابن إسحاق: فلم يزل الناس برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان من أمرهم حب لقاء القوم، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته، فلبس لأمته، فتلاوم القوم فقالوا: عرض نبي الله صلى الله عليه وسلم بأمر وعرضتم بغيره، فاذهب يا حمزة فقل لنبي الله صلى الله عليه وسلم: (أمرنا لأمرك تبع) فأتى حمزة فقال له: (يا نبي الله إن القوم تلاوموا، فقالوا: أمرنا لأمرك تبع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنه ليس لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل».

و من الأسباب المهمة التي اتخذها صلى الله عليه وسلم لملاقاة أعدائه اختياره لوقت التحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة، وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء، غالبا، في نوم عميق لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذا منهم مجهودًا كبيرًا.

وعندما وصل جيش المسلمين الشواط (بستان في المدينة) انسحب المنافق ابن سلول بثلاثمائة من المنافقين بحجة أنه لن يقع قتال مع المشركين، ومعترضًا على قرار القتال خارج المدينة قائلا: (أطاع الولدان ومن لا رأي له، أطاعهم وعصاني، علام نقتل أنفسنا). وكان هدفه الرئيس من هذا التمرد أن يحدث بلبلة واضطرابًا في الجيش الإسلامي لتنهار معنوياته، ويتشجع العدو، وتعلو همته، وعمله هذا ينطوي على خيانة عظيمة.

وضع الرسول صلى الله عليه وسلم خطة محكمة لمواجهة المشركين من قريش، حيث اختار الموقع المناسب، وانتخب من يصلح للقتال، ورد من لم يكن صالحًا، واختار خمسين منهم للرماية، وشدد الوصية عليهم، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب، وأعطى اللواء لأحد أفراد الكتيبة، وهذه الكتائب هي:

1- كتيبة المهاجرين، وأعطى لواءها مصعب بن عمير رضي الله عنه.

2- كتيبة الأوس من الأنصار، وأعطى لواءها أسيد بن حضير رضي الله عنه.

3- كتيبة الخزرج من الأنصار، وأعطى لواءها الحباب بن المنذر رضي الله عنه.

وفي بداية القتال حاول أبو سفيان أن يوجد شرخًا وتصدعًا في جبهة المسلمين المتماسكة، فأرسل إلى الأنصار يقول: (خلوا بيننا وبين ابن عمنا، فننصرف عنكم، فلا حاجة بنا إلى قتال) فردوا عليه بما يكره.

ولما فشلت المحاولة الأولى لجأت قريش إلى محاولة أخرى عن طريق عميل خائن من أهل المدينة، وهو أبو عامر الراهب، حيث حاول أبو عامر الراهب أن يستزل بعض الأنصار فقال: يا معشر الأوس، أنا أبو عامر، قالوا: فلا أنعم الله بك عينًا يا فاسق فلما سمع ردهم عليه قال: لقد أصاب قومي بعدي شرٌّ، ثم قاتلهم قتالاً شديدًا، ورماهم بالحجارة.

وبدأ القتال بالمبارزة ثم التحم الجيشان واشتد القتال، وشرع رسول الله يشحذ في همم أصحابه ويعمل على رفع معنوياتهم، فاستبسل المسلمون في مقاتلة المشركين وكان شعارهم: أمت، أمت، واستماتوا في قتال بطولي ملحمي سجل فيه أبطال الإسلام صورًا رائعة في البطولة والشجاعة، وسجل التاريخ روائع بطولات حمزة بن عبد المطلب، ومصعب بن عمير، وأبو دجانة وأبي طلحة الأنصاري، وسعد بن أبي وقاص، وأمثالهم كثير، وحقق المسلمون الانتصار في الجولة الأولى من المعركة.

ولما رأى الرماة الهزيمة التي حلت بقريش وأحلافها ورأوا الغنائم في أرض المعركة جذبهم ذلك إلى ترك مواقعهم ظنًا منهم أن المعركة انتهت، فقالوا لأميرهم عبد الله بن جبير: (الغنيمة الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قالوا: والله لنأتين الناس فلنصيبن من الغنيمة، ثم انطلقوا يجمعون الغنائم ولا يعبأون بقول أميرهم.

ورأى خالد بن الوليد وكان على خيالة المشركين الفرصة سانحة ليقوم بالالتفاف حول المسلمين، ولما رأى المشركون ذلك عادوا إلى القتل من جديد، وأحاطوا بالمسلمين من جهتين، وفقد المسلمون مواقعهم الأولى، وأخذوا يقاتلون بدون تخطيط، فأصبحوا يقاتلون متفرقين، فلا نظام يجمعهم ولا وحدة تشملهم، بل لم يعودوا يميزون بعضهم، فقد قتلوا اليمان والد حذيفة بن اليمان خطأ، وأخذ المسلمون يتساقطون شهداء في الميدان، وفقدوا اتصالهم بالرسول صلى الله عليه وسلم وشاع أنه قُتل، واختلط الحابل بالنابل واشتدت حرارة القتال، وصار المشركون يقتلون كل من يلقونه من المسلمين، واستطاعوا الخلوص قريبًا من النبي صلى الله عليه وسلم فرموه بحجر كسر أنفه الشريف ورباعيته وشجه في وجهه الكريم فأثقله وتفجر الدم منه صلى الله عليه وسلم.

وحمل ابن قمئة على مصعب بن عمير ﷺ حيث كان شديد الشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم فقتله، فقال لقريش: قد قتلت محمدًا وشاع أن محمدًا قد قتل فتفرق المسلمون، ودخل بعضهم المدينة، وانطلقت طائفة منهم فوق الجبل، واختلطت على الصحابة أحوالهم، فما يدرون كيف يفعلون من هول الفاجعة، ففر جمع من المسلمين من ميدان المعركة، وجلس بعضهم إلى جانب ميدان المعركة بدون قتال، وآثر آخرون الشهادة بعد أن ظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات، ومن هؤلاء أنس بن النضر الذي كان يأسف لعدم شهود بدر، والذي قال في ذلك: (والله لئن أراني الله مشهدًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله كيف أصنع) وقد صدق في وعده، مر يوم أحد على قوم ممن أذهلتهم الشائعة وألقوا بسلاحهم فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله، فقال: يا قوم إن كان محمد قد قُتل فإن رب محمد لم يقتل، وموتوا على ما مات عليه، وقال: اللهم إني أعتذر إليك مما قال هؤلاء، يعني المسلمين، وأبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، يعني المشركين، ثم لقي سعد بن معاذ فقال: يا سعد إني لأجد ريح الجنة دون أحد، ثم ألقى بنفسه في أتون المعركة، وما زال يقاتل حتى استُشهد، فوُجد فيه بضع وثمانون ما بين ضربة بسيف، أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، فلم تعرفه إلا أخته ببنانه.

فعندما ابتدأ الهجوم المعاكس من المشركين خلف المسلمين والهدف الرئيسي فيه شخص النبي صلى الله عليه وسلم، لم يتزحزح عليه الصلاة والسلام من موقفه والصحابة يسقطون واحدًا تلو الآخر بين يديه، وحصر رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلب المشركين وليس معه إلا تسعة من أصحابه سبعة منهم من الأنصار، وكان الهدف أن يفك هذا الحصار، وأن يصعد في

الجبل ليمضي إلى جيشه، واستبسل الأنصار في الدفاع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم واستشهدوا واحدًا بعد الآخر، ثم قاتل عنه طلحة بن عبيد الله حتى أُثخن وأصيب بسهم شلت يمينه، وأراد النبي صلى الله عليه وسلم إلى صخرة فلم يستطع، فقعد طلحة تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «أوجب طلحة»، وقاتل سعد بن أبي وقاص بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان يناوله النبال ويقول له: «ارم يا سعد، فداك أبي وأمي»، كما قاتل بين يديه أبو طلحة الأنصاري الذي كان من أمهر الرماة، وهو الذي قال عنه النبي صلى الله عليه وسلم: «لصوت أبي طلحة في الجيش أشد على المشركين من فئة»، وقد كان متترسًا على رسول الله بحجفة، وكان راميًا شديد الترع كسر يومئذ قوسين أو ثلاث، وكان الرجل يمر معه الجعبة من النبل فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انثرها لأبي طلحة» ثم يشرف إلى القوم فيقول أبو طلحة: يا نبي الله بأبي أنت، لا تشرف إلى القوم ألا يصيبك سهم، نحري دون نحرك.

واستطاع عمر بن الخطاب أن يرد هجومًا مضادًا قاده خالد ضد المسلمين من عالية الجبل، واستبسل الصحابة الذين كانوا مع عمر في رد الهجوم العنيف، عاد المسلمون فسيطروا على الموقف من جديد، ويئس المشركون من إنهاء المعركة بنصر حاسم، وتعبوا من طولها ومن جلادة المسلمين، وانسحب النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه ومن لحق به من أصحابه إلى أحد شعاب جبل أحد، وكان المسلمون في حالة من الألم والخوف والغم لما أصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أصابهم، رغم نجاحهم في رد المشركين.

أما قريش فإنها يئست من تحقيق نصر حاسم وأجهد رجالها من طول المعركة، ومن صمود المسلمين وجلدهم وخاصة بعد أن اطمأنوا وأنزل الله عليهم الأمنة والصمود فالتفوا حول النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك كفوا عن مطاردة المسلمين وعن محاولة اختراق قواتهم.

ـ غزوة الأحزاب (الخندق) 5هـ:

إن يهود بني النضير بعد أن خرجوا من المدينة إلى خيبر خرجوا وهم يحملون معهم أحقادهم على المسلمين، فما أن استقروا بخيبر حتى أخذوا يرسمون الخطط للانتقام من المسلمين، فاتفقت كلمتهم على التوجه إلى القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وكونوا لهذا الغرض الخبيث وفدًا يتكون من سلام بن أبي الحقيق وحيي بن أخطب وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وهوذة بن قيس الوائلي وأبي عمار.

وقد نجح الوفد نجاحًا كبيرًا في مهمته، حيث وافقت قريش التي شعرت بمرارة الحصار الاقتصادي المضروب عليها من قبل المسلمين، ووافقت غطفان طمعًا في خيرات المدينة وفي السلب والنهب وتابعتهم قبائل أخرى.

وقد أبرم الوفد اليهودي مع زعماء أعراب غطفان اتفاقية الاتحاد العربي الوثني اليهودي العسكري ضد المسلمين، وكان أهم بنود هذا الاتفاق هو:

أ- أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد هذا ستة آلاف مقاتل.

ب- أن يدفع اليهود لقبائل غطفان (مقابل ذلك) كل تمر خيبر لسنة واحدة.

لقد استطاع وفد اليهود أن يرجع من رحلته إلى المدينة، ومعه عشرة آلاف مقاتل؛ أربعة آلاف من قريش وأحلافها، وستة آلاف من غطفان وأحلافها، وقد نزلت تلك الأعداد الهائلة بالقرب من المدينة.

فأشار سلمان على الرسول بحفر الخندق، وتم ذلك. وهنا قسم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه إلى مجموعات للحراسة ومقاومة كل من يريد أن يخترق الخندق، وقام المسلمون بواجبهم في حراسة الخندق وحراسة نبيهم صلى الله عليه وسلم،

واستطاعوا أن يصدوا كل هجوم حاول المشركون شنه، وكانوا على أهبة الاستعداد جنودًا وقيادة.

ومع أن المسلمين أخذوا بكافة الاحتياطات في تأمين جبهتهم الداخلية، ومحاولة الدفاع عن الإسلام والمدينة من جيش الأحزاب الزاحف، لكنهم كانوا يخشون غدر يهود بني قريظة الذين يسكنون في جنوب المدينة فيقع المسلمون حينئذ بين نارين، اليهود خلف خطوطهم، والأحزاب بأعدادهم الهائلة من أمامهم، ونجح اليهودي زعيم بني النضير في استدراج كعب بن أسد زعيم بني قريظة لينضم مع الأحزاب لمحاربة المسلمين.

وسرت الشائعات بين المسلمين بأن قريظة قد نقضت عهدها معهم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يخشى أن تنقض بنو قريظة العهد الذي بينهم وبينه؛ لأن اليهود قوم لا عهد لهم ولا ذمة، ولذلك انتدب النبي صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام (رجل المهمات الصعبة) ليأتيه من أخبارهم فذهب الزبير، فنظر ثم رجع فقال: يا رسول الله: رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم. وبعد أن كثرت القرائن الدالة على نقض بني قريظة للعهد، أرسل سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعبد الله بن رواحة وخوات بن جبير -رضي الله عنهم- وقال لهم: انطلقوا حتى تنظروا أحقٌّ ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقًّا فالحنوا لي لحنًا أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم قد نقضوا العهد، فرجعوا فسلموا على النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: عضل والقارة، فعرف النبي صلى الله عليه وسلم مرادهم.

واستقبل النبي صلى الله عليه وسلم غدر بني قريظة بالثبات والحزم واستخدام كل الوسائل التي من شأنها أن تقوي روح المؤمنين وتصدع جبهات المعتدين، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في الوقت نفسه (سلمة بن أسلم) في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل، يحرسون المدينة، ويظهرون التكبير ليرهبوا بني قريظة، وفي هذه الأثناء استعدت بنو قريظة للمشاركة مع الأحزاب، فأرسلت إلى جيوشها عشرين بعيرًا كانت محملة تمرًا، وشعيرًا، وتينًا لتمدهم بها وتقويهم على البقاء إلا أنها أصبحت غنيمة للمسلمين الذين استطاعوا مصادرتها وأتوا بها إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

زادت جيوش الأحزاب في تشديد الحصار على المسلمين بعد انضمام بني قريظة إليها، واشتد الكرب على المسلمين، وتأزم الموقف، وأما المنافقون فقد انسحبوا من الجيش، وزاد خوفهم حتى قال معتب بن قشير أخو بني عمرو بن عوف: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط، وطلب البعض الآخر الإذن لهم بالرجوع إلى بيوتهم بحجة أنها عورة، فقد كان موقفهم يتسم بالجبن والإرجاف وتخذيل المؤمنين.

وتزايدت محاولات المشركين لاقتحام الخندق، وأصبحت خيل المشركين تطوف بأعداد كبيرة كل ليلة حول الخندق حتى الصباح.

ظهرت حنكته صلى الله عليه وسلم وحسن سياسته حين اختار قبيلة غطفان بالذات لمصالحتها على مال يدفعه إليها على أن تترك محاربته وترجع إلى بلادها، فهو يعلم صلى الله عليه وسلم أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه، أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما كان هدفهم الأول والأخير من الاشتراك في هذا الغزو الكبير هو الحصول على المال بالاستيلاء عليه من خيرات المدينة عند احتلالها؛ ولهذا لم يحاول الرسول صلى الله عليه وسلم الاتصال بقيادة الأحزاب من اليهود (كحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع) أو قادة قريش كأبي سفيان بن حرب، لأن هدف أولئك الرئيسي، لم يكن المال، وإنما كان هدفهم هدفًا سياسيًّا وعقائديًّا يتوقف تحقيقه والوصول إليه على هدم الكيان الإسلامي من الأساس؛ لذا فقد كان اتصاله (فقط) بقادة غطفان، الذين (فعلاً) لم يترددوا في قبول العرض الذي عرضه عليهم النبي صلى الله عليه وسلم، فقد استجاب القائدان الغطفانيان (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف) لطلب النبي صلى الله عليه وسلم وحضرا مع بعض أعوانهما إلى مقر قيادة النبي صلى الله عليه وسلم واجتمعا به وراء الخندق مستخفين دون أن يعلم بهما أحد،

وشرع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مفاوضتهم، وكانت تدور حول عرض تقدم به رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو فيه إلى عقد صلح منفرد بينه وبين غطفان، وأهم البنود التي جاءت في هذه الاتفاقية المقترحة:

أ- عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان الموجودة ضمن جيوش الأحزاب.

ب- توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي عمل حربي ضدهم (وخاصة في هذه الفترة).

ج- تفك غطفان الحصار عن المدينة وتنسحب بجيوشها عائدة إلى بلادها.

د- يدفع المسلمون لغطفان (مقابل ذلك) ثلث ثمار المدينة كلها من مختلف الأنواع، ويظهر أن ذلك لسنة واحدة، فقد ذكر الواقدي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لقائدي غطفان: «أرأيت إن جعلت لكم ثلث تمر المدينة ترجعان بمن معكم وتخذلان بين الأعراب؟» قالا: تعطينا نصف تمر المدينة، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزيدهما على الثلث، فرضيا بذلك، وجاءا في عشرة من قومهما حين تقارب الأمر.

ويعني قبول قائدي غطفان ما عرضه عليهما رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوجهة العسكرية، وضوح الهدف الذي خرجت غطفان من أجله، وهو الوقود الذي يشعل نفوس هؤلاء ويحركها في جبهة القتال، ولا شك في أن اختفاء هذا الدافع يعني أن المحارب فقد ثلثي قدرته على القتال، وبذلك تضعف عنده الروح المعنوية التي تدفعه إلى الاستبسال في مواجهة خصمه؛ وبذلك استطاع صلى الله عليه وسلم أن يفتت ويضعف من قوة جبهة الأحزاب.

واستخدام النبي صلى الله عليه وسلم سلاح التشكيك والدعاية لتمزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن، فلقد كان يعلم صلى الله عليه وسلم أن هناك تصدعًا خفيًا بين صفوف الأحزاب، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ويستغله في جانبه، فقد سبق أن أطمع غطفان ففكك عزمها، والآن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليعلن إسلامه، وقال له: يا رسول الله، إن قومي لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة».

فقام نعيم بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار، وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في أنها لا تتناقى مع قواعد السياسة الشرعية، فالحرب خدعة.

وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك، وعدم الثقة بين قادة الأحزاب؛ مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم.

وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

أ- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح.

ب- أنه ذكر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير، وبصرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول صلى الله عليه وسلم، فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية.

ج- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له، وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته. وهكذا قام نعيم بن مسعود بدور عظيم في غزوة الأحزاب.

فانسحبت جيوش الأحزاب مخذولة.

ــ صلح الحديبية:

في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة 6هـ خرج الرسول صلى الله عليه وسلم من المدينة متوجها بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة، وسبب هذه الغزوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رؤيا في منامه وهو في المدينة، وتتلخص هذه الرؤيا أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى أنه قد دخل مكة مع أصحابه المسلمين محرمًا مؤديًا للعمرة، وقد ساق الهدي معظمًا للبيت مقدسًا له، فبشر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ففرحوا بها فرحًا عظيمًا، فقد طال عهدهم بمكة والكعبة التي رضعوا بلبان حبها ودانوا بتعظيمها، وما زادهم الإسلام إلا ارتباطًا بها وشوقًا إليها، وقد تاقت نفوسهم إلى الطواف حولها، وتطلعت إليها تطلعًا شديدًا، وكان المهاجرون أشدهم حنينًا إلى مكة، فقد ولدوا ونشأوا فيها وأحبوها حبًّا شديدًا، وقد حيل بينهم وبينها، فلما أخبرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك، تهيأوا لتلك الزيارة العظيم، واستنفر صلى الله عليه وسلم أهل البوادي والأعراب ليخرجوا معه؛ لأنه كان يخشى أن تصده قريش عن البيت الحرام، وكانت استخبارات المدينة قد علمت بأمر التحالف العسكري الذي عقد بين قريش في جنوب المدينة المنورة وخيبر في شمالها، وكان هدف هذا التحالف جعل الدولة الإسلامية بين طرفي الكماشة، ثم إطباق فكيها عليها وإنهاء الوجود الإسلامي فيها، فقد حان الوقت لكسر ذلك التحالف سياسيًّا، فقد كانت الكعبة في نظر العرب قاطبة ليست ملكًا لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من زيارتها من تشاء، وتجيز من تشاء، فإذن من حق محمد وأصحابه زيارة الكعبة.

لما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم بعسفان لقيه بشر بن سفيان الكعبي الخزاعي، فقال: يا رسول الله، هذه قريش قد سمعت بمسيرك ومعها العوذ المطافيل، قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم عنوة أبدًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله له حتى يظهر الله له أو تنفرد هذه السالفة». وقد استشار صلى الله عليه وسلم أصحابه لما بلغه خبر استعداد قريش لصده عن دخول البيت الحرام، وعرض صلى الله عليه وسلم على الصحابة -رضي الله عنهم- المشورة في هذا الأمر على رأيين يحملان العزم والتصميم:

1- الميل إلى عيال وذراري الأحابيش الذين خرجوا لمعاونة قريش على مقاتلة المسلمين وصدهم عن البيت.

2- قصد البيت الحرام، فمن صده عنه قاتله حتى يتمكن من تحقيق هدفه. ولما عرض صلى الله عليه وسلم المشورة في هذا الأمر على الصحابة تقدم أبو بكر الصديق برأيه الذي تدعمه الحجة الواضحة، حيث أشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك قتالهم والاستمرار على ما خرج له من أداء العمرة حتى يكون بدء القتال منهم، فاستحسن النبي صلى الله عليه وسلم هذا الرأي، وأخذ به وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل. وعندما اقتربت خيل المشركين من المسلمين صلى النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه صلاة الخوف بعسفان.

ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قريشًا قد خرجت تعترض طريقه وتنصب كمينًا له ولأصحابه بقيادة خالد بن الوليد، وهو لم يقرر المصادمة، رأى أن يغير طريق الجيش الإسلامي تفاديًا للصدام مع المشركين، فقال: «من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التي هم بها؟» فقال رجل من أسلم: أنا يا رسول الله، فسلك بهم طريقا وعرًا بين شعاب شق على المسلمين السير فيه حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وعند ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للناس: «قولوا: نستغفر الله ونتوب إليه» فقالوا ذلك. فقال: «والله إنها الحطة التي عرضت على بني إسرائيل فلم يقولوها».

فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن يسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق تخرجه إلى ثنية المرار، مهبط الحديبية من أسفل مكة، فسلك الجيش ذلك الطريق بخفة ودون أن يشعر به أحد، فما نظر خالد إلا وقترة جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعًا هو ومن معه إلى مكة يحذر أهلها، ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجئ، وقد أصاب الذعر المشركين وفوجئوا بنزول الجيش الإسلامي بالحديبية حيث تعرضت مكة للخطر، وأصبحت مهددة من المسلمين تهديدًا مباشرًا.

بذل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما في وسعه لإفهام قريش أنه لا يريد حربًا معهم، وإنما يريد زيارة البيت الحرام وتعظيمه وهو حق للمسلمين، كما هو حق لغيرهم، وعندما تأكدت قريش من ذلك أرسلت إليه من يفاوضه، ويتعرف على قوة المسلمين ومدى عزمهم على القتال إذا أُلجئوا إليه، وطمعًا في صد المسلمين عن البيت بالطرق السلمية من جهة ثالثة.

ومن المفاوضين: بُدَيل بن ورقاء – عروة بن مسعود الثقفي – الحُلس بن علقمة – مكرز بن حفص. ثم أرسل الرسول عثمان بن عفان رسولاً، فأُشيع أنه قُتل، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن عثمان ﷺ قُتل، دعا رسول الله أصحابه إلى مبايعته على قتال المشركين ومناجزتهم، فاستجاب الصحابة وبايعوه على الموت، سوى الجد بن قيس، وذلك لنفاقه. وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر، وفي رواية على عدم الفرار، ولا تعارض في ذلك؛ لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار.

ولما بلغ قريشًا أمر بيعة الرضوان، وأدرك زعماؤها تصميم الرسول صلى الله عليه وسلم على القتال أوفدوا سهيل بن عمرو في نفر من رجالهم لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم، ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم سهيلا قال: «لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل».

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين الذين كانوا يعرفون بالحنكة السياسية والدهاء، فهو خطيب ماهر، ذو عقل راجح، ورزانة، وأصالة في الرأي.

شرع الفريقان المتفاوضان في بحث بنود الصلح، وذلك بعد رجوع عثمان بن عفان ﷺ، وقد استعرض الفريقان النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، واستعرضا في مباحثاتهما مختلف القضايا التي كانت تشكل مثار الخلاف بينهما.

وتم عقد هذه المعاهدة وكانت صياغتها من عشرة بنود جاءت على الشكل التالي:

1- باسمك اللهم.

2- هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو.

3- واصطلحا على وضع الحرب على الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

4- على أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجًّا أو معتمرًا أو يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله، ومن قدم المدينة من قريش مجتازًا إلى مصر أو إلى الشام، يبتغي من فضل الله فهو آمن على دمه وماله.

5- على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه.

6- وأن بيننا عيبة مكفوفة، وأنه لا أسلال ولا أغلال.

7- وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخله، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه (فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتوثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم).

8- وأنت ترجع عنا عامك هذا، فلا تدخل علينا مكة، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك، فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب، السيوف في القرب، ولا تدخلها بغيرها.

9- وعلى أن هذا الهدي ما جئناه ومحله فلا تقدمه علينا.

10- أشهد على الصلح رجال من المسلمين ورجال من المشركين.

فمن المسلمين: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن سهيل بن عمرو، وسعد بن أبي وقاص، ومحمد بن سلمة، وعلي بن أبي طالب كاتب المعاهدة رضي الله عنهم أجمعين.

ومن المشركين: مكرز بن حفص، وسهيل بن عمرو.

تعتبر هذه المعاهدة أساسًا للمعاهدات الإسلامية ونموذجًا فريدًا للمعاهدات الدولية، بما سبقها من مفاوضات، وما حوته من شروط، وما تمثل بها من خلق النبي صلى الله عليه وسلم في النزول عند رضا الطرف الآخر، وفي كيفية الصياغة والالتزام، هذه المعاهدة سبقها مفاوضات من قبل المشركين والمسلمين، وفشل بعض الممثلين في الوصول إلى اتفاق، ودارت مشاورات شتى من الجانبين قبل الوصول إليه، حتى توصل الفريقان إلى اتفاق عن طريق ممثل المشركين (سهيل بن عمرو) ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ملأ المسلمين.

عقدت هذه المعاهدة في الوقت الذي كان فيه المسلمون بمركز القوة لا الضعف، وكان باستطاعتهم ألا يقبلوا شروطها التي اغتاظ منها كثير من الصحابة، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طوع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وقد تمادى رسول قريش على رسول الله في مفاوضته، وكان فردًا بين جيش المسلمين، فلم ينله أذى، و لم يتمادَ عليه المسلمون بالقتل (لأن السفراء لا تقتل) ولكن رسول الله يرضيه، ويسعه بالحلم واللين، حتى يصل إلى الغاية التي ينشدها الإسلام، وهي حقن الدماء، وإحلال السلام، ورجاء أن يعقل القوم الحق، وأن يراجعوا المواقف، ويسمعوا كلام الله.

غزوة فتح مكة (8هـ)

ـ أسبابها:

1- ارتكبت قريش خطأ فادحًا عندما أعانت حلفاءها بني بكر على خزاعة حليفة المسلمين بالخيل والسلاح والرجال، وهاجم بنو بكر وحلفاؤهم قبيلة خزاعة عند ماء يقال له الوتير، وقتلوا أكثر من عشرين من رجالها، ولما لجأت خزاعة إلى الحرم الآمن

-و لم تكن متجهزة للقتال- لتمنع بني بكر منه، قالت لقائدهم: يا نوفل، إنا قد دخلنا حرم إلهك! فقال نوفل: لا إله اليوم، يا بني بكر أصيبوا ثأركم، عندئذ خرج عمرو بن سالم الخزاعي، في أربعين من خزاعة، حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، وأخبروه بما كان من بني بكر، وبمن أصيب منهم، وبمناصرة قريش بني بكر عليهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم! لا نصرني الله إن لم أنصر بني كعب» .

2- أبو سفيان يحاول تلافي حماقة قريش: بعثت قريش أبا سفيان إلى المدينة لتمكين الصلح وإطالة أمده، وعندما وصل إلى المدينة ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض حاجته، أعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم و لم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي حتى يتوسطوا بينه وبين رسول الله، فأبوا جميعًا، فعاد أبو سفيان إلى مكة من

غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد، ومما يذكر عند نزوله في المدينة أنه دخل على ابنته أم حبيبة أم المؤمنين، وأراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه، فقال: يا بنية، ما أدري، أرغبت بي عن هذا الفراش، أم رغبت به عني؟! قالت: بل هذا فراش رسول الله، وأنت مشرك نجس، قال: والله لقد أصابك بعدي شر.

وأمام نقض قريش للعهود والمواثيق مع المسلمين فقد عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على فتح مكة وتأديب كفارها، وقد ساعده على ذلك العزم -بعد توفيق الله- عدة أسباب منها:

أ- قوة جبهة المسلمين الداخلية في المدينة وتماسكها: فقد تخلصت الدولة الإسلامية من غدر اليهود، وتم القضاء على يهود بني قينقاع، وبني النضير، وبني قريظة، ويهود خيبر.

ب- ضعف جبهة الأعداء في الداخل: وفي مقدمة هؤلاء المنافقون الذين فقدوا الركن الركين لهم -وهو يهود المدينة- فهم أساتذتهم الذين يوجهونهم ويشيرون عليهم.

ج- اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بتطوير القوة العسكرية، وإرسال السرايا في فترة الصلح؛ وبذلك أصبحت متفوقة على قوة مشركي قريش حيث العدد والعدة والروح المعنوية.

د- كانت الغزوة بعد أن ضعفت قريش اقتصاديًّا وبعد أن قويت الدولة الإسلامية اقتصاديًّا، فقد فتح المسلمون خيبر وغنموا منها أموالاً كثيرة.

هـ- انتشار الإسلام في القبائل المجاورة للمدينة، وهذا يطمئن القيادة حين تتخذ قرارها العسكري بنقل قواتها ومهاجمة أعدائها.

و- قيام السبب الجوهري والقانوني لغزو مكة، وهو نقض قريش للعهد والعقد. ونلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يضيع قانون الفرصة وتعامل معه بحكمة بالغة، فكان فتح خيبر، وذلك بعد صلح الحديبية، والآن تتاح فرصة أخرى بعد أن نقضت قريش عهدها، وتغيرت موازين القوى في المنطقة، فكان لا بد من الاستفادة من المعطيات الجديدة، فأعد صلى الله عليه وسلم جيشًا لم تشهد له الحجاز مثيلاً من قبل، فقد وصلت عدته إلى عشرة آلاف رجل.

ـــ الاستعداد للخروج:

إن حركة النبي صلى الله عليه وسلم في بناء الدولة وتربية المجتمع وإرسال السرايا، وخروجه في الغزوات، تعلمنا كيفية التعامل مع سنة الأخذ بالأسباب، سواء كانت تلك الأسباب مادية أو معنوية، ففي غزوة الفتح نلاحظ هذه السنة واضحة في هديه صلى الله عليه وسلم؛ فعندما قرر صلى الله عليه وسلم السير لفتح مكة، حرص على كتمان هذا الأمر؛ حتى لا يصل الخبر إلى قريش فتعد العدة لمجابهته، وتصده قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه، وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

1- أنه كتم أمره حتى عن أقرب الناس إليه:

فقد أخذ النبي صلى الله عليه وسلم بمبدأ السرِّية المطلقة والكتمان الشديد حتى عن أقرب الناس إليه وهو أبو بكر ﷺ أقرب أصحابه إلى نفسه، وزوجته عائشة رضي الله عنها أحب نسائه إليه، فلم يعرف أحد شيئًا عن أهدافه الحقيقية، ولا باتجاه حركته، ولا بالعدو الذي ينوي قتاله؛ بدليل أن أبا بكر الصديق ﷺ عندما سأل ابنته عائشة رضي الله عنها عن مقصد الرسول صلى الله عليه وسلم قالت له: ما سمى لنا شيئًا. وكانت أحيانًا تصمت، وكلا الأمرين يدل على أنها لم تعلم شيئًا عن مقصده صلى الله عليه وسلم.

2- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضم:

بعث النبي صلى الله عليه وسلم قبل مسيرة مكة سرية مكونة من ثمانية رجال؛ وذلك لإسدال الستار على نياته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد: (لما همَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة بن ربعي في ثمانية نفر سرية إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توجه إلى تلك الناحية؛ ولأن تذهب بذلك الأخبار، فمضوا و لم يلقوا جمعًا، فانصرفوا حتى انتهوا إلى ذي خُشُب فبلغهم أن رسول الله قد توجه إلى مكة، فأخذوا على (بيبين) حتى لقوا النبي صلى الله عليه وسلم بالسُّقيا) .

وهذا منهج نبوي حكيم في توجيه القادة من بعده إلى وجوب أخذ الحذر وسلوك ما يمكن من أساليب التضليل على الأعداء والإيهام التي من شأنها صرف أنظار الناس عن معرفة مقاصد الجيوش الإسلامية التي تخرج من أجل الجهاد في سبيل الله حتى تحقق أهدافها وتسلم من كيد أعدائها.

3- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء:

بث صلى الله عليه وسلم رجال استخبارات الدولة الإسلامية داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأنقاب، فكان عمر بن الخطاب ﷺ يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه.. إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة.

ـــ الشروع في الخروج:

1- خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قاصدًا مكة في العاشر من رمضان من العام الثامن للهجرة، وكان عدد الجيش عشرة آلاف فيهم المهاجرون والأنصار الذين لم يتخلف منهم أحد.

فخرج أبو سفيان بن الحارث وعبد الله بن أمية بن المغيرة من مكة، فلقيا رسول الله بثنية العقاب فيما بين مكة والمدينة، فالتمسا الدخول عليه، فكلمته أم سلمة فقالت: يا رسول الله ابن عمك، وابن عمتك وصهرك، فقال: لا حاجة لي فيهما؛ أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فهو الذي قال لي بمكة ما قال، فلما خرج الخبر إليهما بذلك -ومع أبي سفيان بن الحارث ابن له- فقال: والله ليأذنن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لآخذن بيد ابني هذا، ثم لنذهب في الأرض حتى نموت عطشًا أو جوعًا، فلما بلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم رقَّ لهما، فدخلا عليه، فأنشده أبو سفيان قوله في إسلامه واعتذاره عما كان مضى فيه، قال: فلما أنشد رسول الله صلى الله عليه وسلم (إلى الله من طردت كل مطرد)، ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدره، فقال: «أنت طردتني كل مطرد».

كان أبو سفيان بن الحارث يهجو بشعره رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرًا، وأما عبد الله بن أمية فقد قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: (فوالله لا أومن بك حتى تتخذ إلى السماء سلمًا ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي بصك معه أربعة من الملائكة يشهدون لك كما تقول، ثم وايم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك).

ومع فداحة جرمهما فإن النبي صلى الله عليه وسلم عفا عنهما وقبل عذرهما، وهذا مثال عالٍ في الرحمة والعفو والتسامح، ولقد كفَّر أبو سفيان بن الحارث عن أشعاره السابقة بهذه القصيدة البليغة التي قالها في مدح النبي صلى الله عليه وسلم وبيان اهتدائه به، ولقد حسن إسلامه، وكان له موقف مشرف في الجهاد مع رسول الله في معركة حنين.

وتابع رسول الله صلى الله عليه وسلم سيره حتى أتى مر الظهران فنزل فيه عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله على الحرس عمر بن الخطاب.

قال العباس: فقلت: واصباح قريش! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر، وركب بغلة رسول الله وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى مكة ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة، وكان أبو سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء قد خرجوا يلتمسون الأخبار، فلما رأوا النيران قال أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا، فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها الحرب، فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها.. وسمع العباس أصواتهم فعرفهم فقال: يا أبا حنظلة، فقال: أبو الفضل؟ قلت: نعم، قال: ما لك، فداك أبي وأمي؟! قال العباس: قلت: ويحك يا أبا سفيان، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس واصباح قريش والله! قال: فما الحيلة فداك أبي وأمي؟! قال: قلت: والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتي بك رسول الله فأستأمنه لك، قال: فركب خلفي ورجع صاحباه، فجئت به، كلما مررت بنار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب فقال: من هذا؟ وقام إلي فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان عدو الله، الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم، ودخل عليه عمر فقال: يا رسول الله هذا أبو سفيان قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعني فلأضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إني قد أجرته. فلما أكثر عمر في شأنه قلت: مهلا يا عمر، فوالله أن لو كان من بني عدي ما قلت هذا، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف، فقال: مهلا يا عباس، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أني قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب لو أسلم، فقال صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتني به»، فلما أصبح غدوت به، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟» قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني بعد، قال: «ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟» قال: بأبي أنت وأمي ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! أما هذه والله فإن في النفس منها حتى الآن شيئًا، فقال له العباس: ويحك أسلم قبل أن نضرب عنقك، قال: فشهد شهادة الحق فأسلم. قال العباس: قلت: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا، قال: «نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن» فلما ذهب لينصرف قال رسول الله: «يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمر به جنود الله فيراها» قال: فخرجت حتى حبسته حيث أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرت القبائل على راياتها، كلما مرت قبيلة قال: يا عباس من هذه؟ فأقول: سليم، فيقول: ما لي ولسليم، ثم تمر به القبيلة فيقول: يا عباس من هؤلاء؟ فأقول: مزينة، فيقول: ما لي ولمزينة.. حتى مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، من هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا. قال: قلت: يا أبا سفيان: إنها النبوة، قال: فنعم إذن، قال: قلت: النجاء إلى قومك.

ـــ خطة النبي صلى الله عليه وسلم لدخول مكة وفتحها:

عندما وصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذي طوى وزع المهام، فجعل خالد بن الوليد على المجنبة اليمنى، وجعل الزبير على المجنبة اليسرى، وجعل أبا عبيدة على البياذقة وبطن الوادي، فقال: «يا أبا هريرة ادع لي الأنصار» فدعاهم فجاءوا يهرولون، فقال: «يا معشر الأنصار، هل ترون أوباش قريش؟» قالوا: نعم، قال: «انظروا إذا لقيتموهم غدًا أن تحصدوهم حصدًا» وأخفى بيده ووضع يمينه على شماله وقال: «موعدكم الصفا».

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الزبير بن العوام على المهاجرين وخيلهم، وأمره أن يدخل من كداء من أعلى مكة وأمره أن يغرز رايته بالحجون، ولا يبرح حتى يأتيه، وبعث خالد بن الوليد في قبائل قضاعة وسليم وغيرهم وأمره أن يدخل من أسفل مكة، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت، وبعث سعد بن عبادة في كتيبة الأنصار في مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمرهم أن يكفوا أيديهم ولا يقاتلوا إلا من قاتلهم. وبهذا كانت المسئوليات واضحة، وكل قد عرف ما أسند إليه من مهام والطريق الذي ينبغي أن يسير فيه.

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آنٍ واحدٍ، و لم تلق تلك القوات مقاومة، وكان في دخول جيش المسلمين من الجهات الأربع ضربة قاضية لفلول المشركين، حيث عجزت عن التجمع، وضاعت منها فرصة المقاومة، وهذا من التدابير الحربية الحكيمة التي لجأ إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أصبح في مركز القوة في العدد والعتاد، ونجحت خطة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ فلم يستطع المشركون المقاومة، ولا الصمود أمام الجيش الزاحف إلى أم القرى، فاحتل كل فيلق منطقته التي وجه إليها، في سلم واستسلام، إلا ما كان من المنطقة التي توجه إليها خالد، فقد تجمع متطرفو قريش ومنهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض حلفائهم في مكان اسمه (الخندمة) وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمموا على القتال، فأصدر خالد بن الوليد أوامره بالانقضاض عليهم، وما هي إلا لحظات حتى قضى على تلك القوة الضعيفة وشتت شمل أفرادها، وبذلك أكمل الجيش السيطرة على مكة المكرمة.

لقد أعلن في مكة قبيل دخول جيش المسلمين أسلوب منع التجول؛ لكي يتمكنوا من دخول مكة بأقل قدر من الاشتباكات والاستفزازات، وإراقة الدماء، وكان الشعار المرفوع: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن»، وجعل صلى الله عليه وسلم لدار أبي سفيان مكانة خاصة كي يكون أبو سفيان ساعده في إقناع المكيين بالسلم والهدوء، ويستخدمه كمفتاح أمان يفتح أمامه الطريق إلى مكة دون إراقة دماء، ويشبع في نفسه عاطفة الفخر التي يحبها أبو سفيان حتى يتمكن الإيمان من قلبه.

لقد دخل أبو سفيان إلى مكة مسرعًا ونادى بأعلى صوته:

يا معشر قريش، هذا محمد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بشاربه فقالت: اقتلوا الحميث الدسم الأحمس -تشبهه بالزق لسمنه-، قبح من طليعة قوم. قال: ويلكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم؛ فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله! وما تغني عنا دارك؟! قال: ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن. وتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد.

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح مستشعرًا بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز، وعندما دخل مكة فاتحًا -وهي قلب جزيرة العرب ومركزها الروحي والسياسي- رفع كل شعار من شعائر العدل والمساواة، والتواضع والخضوع، فأردف أسامة بن زيد -وهو ابن مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم- و لم يردف أحدا من أبناء بني هاشم وأبناء أشراف قريش وهم كثير، وكان ذلك صبح يوم الجمعة لعشرين ليلة خلت من رمضان، سنة ثمانٍ من الهجرة.

هذا وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على تأمين الجبهة الداخلية في مكة عند دخوله يوم الفتح؛ ولذلك عندما بلغته مقولة سعد بن عبادة لأبي سفيان: اليوم يوم الملحمة، اليوم نستحل الكعبة، قال صلى الله عليه وسلم: «هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة، ويوم تكسى فيه الكعبة»، وأخذ الراية من سعد بن عبادة وسلمها لابنه قيس بن سعد؛ وبهذا التصرف الحكيم حال دون أي احتمال لمعركة جانبية هم في غنى عنها، وفي نفس الوقت لم يثره، ولا أثار الأنصاري، فهو لم يأخذ الراية من أنصاري

ويسلمها لمهاجر، بل أخذها من أنصاري وسلمها لابنه، ومن طبيعة البشر ألا يرضى الإنسان بأن يكون أحد أفضل منه إلا ابنه.

ولما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة واطمأن الناس خرج حتى جاء البيت فطاف به، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بالقوس، ويقول: (**جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**) [الإسراء:81] (جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ) [سبأ:49] والأصنام تتساقط على وجوهها، ثم دخل البيت وكبَّر في نواحيه ثم صلى، وكان مفتاح الكعبة مع عثمان بن طلحة، قبل أن يسلم، فأراد علي ﷺ أن يكون المفتاح له مع السقاية، لكن النبي صلى الله عليه وسلم دفعه إلى عثمان بعد أن خرج من الكعبة ورده إليه قائلا: اليوم يوم بر ووفاء، وكان صلى الله عليه وسلم قد طلب من عثمان بن طلحة المفتاح قبل أن يهاجر إلى المدينة، فأغلظ له القول ونال منه، فحلم عنه، وقال: «يا عثمان، لعلك ترى هذا المفتاح يومًا بيدي، أضعه حيث شئت» فقال: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: «بل عمرت وعزت يومئذ»، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعًا، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال، ولقد أعطى له رسول الله صلى الله عليه وسلم مفاتيح الكعبة قائلا له: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، خذوها خالدة تالدة لا يترعها منكم إلا ظالم».

ثم أنال الرسول أهل مكة عفوًا عامًّا رغم أنواع الأذى التي ألحقوها بالرسول صلى الله عليه وسلم ودعوته، ورغم قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو عنهم وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم، فقال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» فقالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، فقال: (لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) [يوسف:92].

ـ غزوة حنين والطائف (8هـ):

لما فتح الله مكة على رسوله والمؤمنين، وخضعت له قريش، خافت هوازن وثقيف وقالوا: قد فرغ محمد لقتالنا، فلنغزه قبل أن يغزونا، وأجمعوا أمرهم على هذا، وولوا عليهم مالك بن عوف النصري، فاجتمع إليه هوازن، وثقيف وبنو هلال، ولم يحضرها من هوازن كعب وكلاب، وكان معهم دريد بن الصمة، وكان معروفًا بشدة البأس في الحرب وأصالة الرأي، إلا أنه كان كبيرًا فلم يكن له إلا الرأي والمشورة.

وكان رأي مالك بن عوف أن يخرجوا وراءهم النساء والذراري والأموال حتى لا يفروا، فلما علم بذلك دريد سأله: لم ذلك؟ فقال: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فقال دريد: راعي ضأن والله، وهل يرد المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك. ولكنه لم يستمع لمشورته.

تحرك المسلمون باتجاه حنين في اليوم الخامس من شوال ووصلوا حنين في مساء العاشر من شوال وقد استخلف الرسول صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد على مكة عند خروجه، وكان عدد جيش المسلمين اثني عشر ألفا من المسلمين، أما عدد هوازن وثقيف فكانوا ضعف عدد المسلمين أو أكثر، ولما رأى بعض الطلقاء جيش المسلمين قالوا: لن نغلب اليوم من قلة، ودخل الإعجاب في النفوس.

ولما بلغ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عزم هوازن على حربه بعد أن تم له فتح مكة -شرفها الله- قام بالآتي:

1- أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي حتى يوافيه بخبر هوازن:

فذهب ﷺ ومكث بينهم يومًا أو يومين ثم عاد وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بما رأى.

ولقد ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول صلى الله عليه وسلم وعاد على وجه السرعة بخبر هؤلاء الأعداء، إلا أنه قصر ﷺ في أداء هذا الواجب حيث لم يختلط بهوازن اختلاطًا كاملاً بحيث يسمع ويرى ما يدبر ضد المسلمين هناك، وكان من أهم

ما يجب أن يُعنى به معرفة مواقع المشركين التي احتلوها، وقد فوجئ المسلمون باختفاء تلك الكمائن التي نصبها الأعداء في منحنيات الوادي حتى استطاعوا أن يمطروا المسلمين بوابل من سهامهم فانهزموا في الجولة الأولى، فكان الجهل بهذه الكمائن أحد الأسباب الرئيسية وراء هزيمة المسلمين في أول المعركة، وما حدث نتيجة لهذا الخطأ لا يقدح في العصمة الثابتة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن هذا الأمر ليس وحيًا من الله سبحانه وتعالى، وإنما هو من باب الاجتهاد في الأمور العسكرية، وقد بذل النبي صلى الله عليه وسلم جهده في سبيل الحصول على أدق المعلومات وأوفاها لكي يضع على ضوئها الخطة العسكرية المناسبة لمجابهة العدو.

2- عدة الجيش واستعارة الدروع والرماح:

أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشًا قوامه عشرة آلاف -وهم من خرجوا معه من المدينة- وألفان من مسلمة الفتح؛ فكان عدد من خرج في تلك الغزوة اثني عشر ألفا، عن أنس بن مالك ﷺ قال: لما كان يوم حنين أقبلت هوازن وغطفان بذراريهم ونَعمهم ومع النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ عشرة آلاف ومعه الطلقاء وهم ألفان، وسعى صلى الله عليه وسلم لتأمين عدة الجيش فطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح إعارة، وطلب من صفوان بن أمية دروعًا، وتكفل صلى الله عليه وسلم بالضمان، وكان نوفل وصفوان لا يزالان على شركهما، عن صفوان بن يعلى بن أمية عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أتتك رسلي فأعطهم -أو قال فادفع إليهم- ثلاثين درعا وثلاثين بعيرا، أو أقل من ذلك» فقال له: العارية مؤداة يا رسول الله، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «نعم» وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استعار منه يوم حنين دروعا فقال: أغصبًا يا محمد؟ قال: «لا، بل عارية مضمونة» قال: فضاع بعضها فعرض عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضعها له، فقال: أنا اليوم يا رسول الله في الإسلام أرغب، قال أبو داود: وكان أعاره قبل أن يسلم ثم أسلم.

3- ثباته صلى الله عليه وسلم وأثره في كسب المعركة:

سبقت هوازن المسلمين إلى وادي حنين، واختاروا مواقعهم، وبثوا كتائبهم في شعابه ومنعطفاته وأشجاره، وكانت خطتهم تتمثل في مباغتة المسلمين بالسهام أثناء تقدمهم في وادي حنين المنحدر.

لقد باغت المشركون المسلمين وأمطرهم الأعداء من جميع الجهات، فاضطربت صفوفهم، وماج بعضهم في بعض، ونتيجة لهول هذا الموقف انهزم معظم الجيش ولاذوا بالفرار، كل يطلب النجاة لنفسه، وبقي الرسول صلى الله عليه وسلم ونفر قليل في الميدان يتصدون لهجمات المشركين، ونترك العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم يصف لنا ذلك المشهد المهيب حيث يقول: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم نفارقه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم على بغلة له بيضاء، فلما التقى المسلمون والكفار ولَّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته قِبَل الكفار، قال العباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم أكفها إرادة ألا تسرع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي عباس، نادِ أصحاب السمرة» فقال العباس -وكان رجلا صيتًا-: فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟ قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك! قال: فاقتلوا الكفار، والدعوة في الأنصار، يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثم قصرت الدعوة على بني الحارث من الخزرج، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بغلته، كالمتطاول عليها إلى قتالهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هذا حين حمي الوطيس».

ـــ مطاردة فلول الفارين إلى أوطاس والطائف:

أ- قال أبو موسى الأشعري ﷺ: لما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من حنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دُريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه، قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، فرُمي أبو عامر في ركبته، رماه جُشمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم، من رماك؟ فأشار إليَّ فقال: ذاك قاتلي الذي رماني، فقصدت له، فلحقته، فلما رآني ولى فأتبعته وجعلت أقول له: ألا تستحي؟ ألا تثبت؟ فكف، فاختلفنا ضربتين بالسيف فقتلته، ثم قلت لأبي عامر: قتل الله صاحبك، قال: فانزع هذا السهم، فنزعته فنزا منه الماء.

قال: يا ابن أخي أقرئ النبي صلى الله عليه وسلم السلام وقل له: استغفر لي، واستخلفني أبو عامر على الناس فمكث يسيرًا ثم مات، فرجعت فدخلت على النبي صلى الله عليه وسلم في بيته على سرير مُرمل وعليه فراش قد أثر رمال السرير بظهره وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقوله: قل له استغفر لي، فدعا بماء فتوضأ، ثم رفع يديه فقال: «اللهم اغفر لعبيد أبي عامر» ورأيت بياض إبطيه، ثم قال: «اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك من الناس» فقلت: ولي فاستغفر، فقال: «اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريمًا».

قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى.

ب- محاصرة الفارين إلى الطائف: حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الطائف، واستخدم أساليب متنوعة في القتال والحصار، ومارس الشورى، واختار المكان المناسب عند الحصار، واستخدم الحرب النفسية والدعاية في صفوف الأعداء.. ومن هذه الأساليب:

1- استخدامه صلى الله عليه وسلم أسلوبا جديدا في القتال: استعمل النبي صلى الله عليه وسلم في حصاره للطائف أسلحة جديدة لم يسبق له أن استعملها من قبل، وهذه الأسلحة هي:

* المنجنيق: فقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعمل هذا السلاح عند حصاره لحصن ثقيف بالطائف، فعن مكحول ﷺ أن النبي صلى الله عليه وسلم نصب المنجنيق على أهل الطائف.

والمنجنيق من أسلحة الحصار الثقيلة ذات التأثير الفعال على من وجهت إليه، فبحجارته تهدم الحصون والأبراج، وبقنابله تحرق الدور والمعسكرات، وهذا النوع يحتاج إلى عدد من الجنود في إدارته واستخدامه عند القتال.

* الدبابة: ومن أسلحة الحصار الثقيلة التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم لأول مرة في حصار الطائف: الدبابة؛ والدبابة على شكل بيت صغير تعمل من الخشب وتتخذ للوقاية من سهام الأعداء، عندما يراد نقض جدار الحصن، بحيث إذا دخلها الجنود كان سقفها حرزًا لهم من الرمي.

* الحسك الشائك: من الأسلحة الجديدة التي استعملها الرسول صلى الله عليه وسلم في حصاره لأهل الطائف: الحسك الشائك؛ وهو من وسائل الدفاع الثابتة، ويعمل من خشبتين تسمران على هيئة الصليب، حتى تتألف منهما أربع شعب مدببة، وإذا رمى في الأرض بقيت شعبة منه بارزة تتعثر بها أقدام الخيل والمشاة، فتتعطل حركة السير السريعة المطلوبة في ميدان القتال.

وقد ذكر أصحاب المغازي والسير أن الرسول صلى الله عليه وسلم استعمل هذا السلاح في حصاره لأهل الطائف، حيث أمر جنده بنشر الحسك الشائك حول حصن ثقيف، وفي هذا إشارة إلى قادة الأمة خصوصًا، والمسلمين عمومًا، ألا يعطلوا عقولهم وتفكيرهم من أجل الاستفادة من النافع والجديد الذي يحقق للأمة مصلحة الدارين، ويدفع عنها شرور أعدائها.

2- اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانًا مناسبًا عند القتال: نزل الجيش في مكان مكشوف قريب من الحصن، وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى أمطرهم الأعداء بوابل من السهام؛ فأصيب من جراء ذلك ناس كثيرون، وحينئذ عرض

الحباب بن المنذر على الرسول صلى الله عليه وسلم فكرة التحول من هذا الموقع إلى مكان آمن من سهام أهل الطائف، فقبل صلى الله عليه وسلم هذه المشورة وكلف الحباب -لكونه من ذوي الخبرات الحربية الواسعة في هذا المجال- بالبحث عن موقع ملائم لنزول الجند، فذهب ﷺ ثم حدد المكان المناسب، وعاد فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم جيشه بالتحول إلى المكان الجديد، وهذا شاهد عيان يحدثنا عما رأى؛ قال عمرو بن أمية الضمري ﷺ: لقد أطلع علينا من نبلهم ساعة نزلنا شيء الله به عليم كأنه رجل جراد، وترسنا لهم حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم الحباب فقال: «انظر مكانًا مرتفعًا مستأخرًا عن القوم» فخرج الحباب حتى انتهى إلى موضع مسجد الطائف خارج من القرية، فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يتحولوا.

3- استخدام الحرب النفسية والدعاية: لما اشتدت مقاومة أهل الطائف وقتلوا مجموعة من المسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بتحريق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف للضغط على ثقيف، ثم أوقف هذا العمل بعد أثره في معنوياتهم وإضعافه روح المقاومة، وبعد أن ناشدته ثقيف بالله والرحم أن يترك هذا العمل، ووجه النبي صلى الله عليه وسلم نداء لعبيد الطائف أن من يترل من الحصن ويخرج إلى المسلمين فهو حر، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد منهم أبو بكرة الثقفي فأسلموا، فأعتقهم و لم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم.

ـ غزوة تبوك (9هـ):

خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لهذه الغزوة في رجب من العام التاسع الهجري بعد العودة من حصار الطائف بنحو ستة أشهر.

واشتهرت هذه الغزوة باسم غزوة تبوك، نسبة إلى مكان هو عين تبوك، التي انتهى إليها الجيش الإسلامي، وأصل هذه التسمية جاء في صحيح مسلم، فقد روي بسنده إلى معاذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ستأتون غدًا إن شاء الله عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمس من مائها شيئا حتى آتي».

وللغزوة اسم آخر، وهو: غزوة العسرة، وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم حينما تحدث عن هذه الغزوة في سورة التوبة، قال تعالى: (لَقَد تَّابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ) [التوبة: 117]. وقد روى البخاري بسنده إلى أبي موسى الأشعري، قال: أرسلني أصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله الحملان لهم إذ هم معه في جيش العسرة، وهي غزوة تبوك...، وعنون البخاري لهذه الغزوة بقوله: (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة).

لقد سميت بهذا الاسم لشدة ما لاقى المسلمون فيها من الضنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقًا لقلة المؤونة وقلة الدواب التي تحمل المجاهدين إلى أرض المعركة، وقلة الماء في هذا السفر الطويل والحر الشديد، وكذلك قلة المال الذي يجهز به الجيش وينفق عليه، ففي تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عقيل قال: خرجوا في قلة من الظهر، وفي حر شديد حتى كانوا ينحرون البعير فيشربون ما في كرشه من الماء، فكان ذلك عسرة من الماء، وهذا الفاروق عمر بن الخطاب يحدثنا عن مدى ما بلغ العطش من المسلمين فيقول: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد فترلنا مترلا أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع، حتى إن كان أحدنا يذهب يلتمس الخلاء فلا يرجع حتى يظن أن رقبته تنقطع، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فرشه فيشربه ويضعه على بطنه.

وللغزوة اسم ثالث هو: الفاضحة، ذكره الزرقاني -رحمه الله- في كتابه «شرح المواهب اللدنية» وسميت بهذا الاسم لأن هذه الغزوة كشفت عن حقيقة المنافقين، وهتكت أستارهم، وفضحت أساليبهم العدائية الماكرة، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم

الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله والمسلمين.

وأما موقع تبوك فيقع شمال الحجاز، يبعد عن المدينة 778 ميلاً حسب الطريق المعبدة في الوقت الحاضر، وكانت من ديار قضاعة الخاضعة لسلطان الروم آنذاك.

ـــ أسبابها:

ذكر المؤرخون أسباب هذه الغزوة فقالوا: وصلت الأنباء للنبي صلى الله عليه وسلم من الأنباط الذين يأتون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم جمعت جموعا وأجلبت معهم لخم وجذام وغيرهم من مستنصرة العرب، وجاءت في مقدمتهم إلى البلقاء فأراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يغزوهم قبل أن يغزوه.

ويرى ابن كثير أن سبب الغزوة هو استجابة طبيعية لفريضة الجهاد؛ ولذلك عزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على قتال الروم؛ لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ) [التوبة: 123].

والذي قاله ابن كثير هو الأقرب للصواب، إضافة إلى أن الأمر الذي استقر عليه حكم الجهاد هو قتال المشركين كافة بمن فيهم أهل الكتاب، الذين وقفوا في طريق الدعوة وظهر تحرشهم بالمسلمين كما روى أهل السير.

ولا يمنع ما ذكره المؤرخون بأن سبب الخروج هو عزم الروم على غزو المسلمين في عقر دارهم أن يكون هذا حافزًا للخروج إليهم، لأن أصل الخروج كان واردًا.

لقد كان المسلمون على حذر من مجيء غسان إليهم من الشام، ويظهر ذلك جليا مما وقع لعمر بن الخطاب، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم آلى من نسائه شهرا فهجرهن، ففي صحيح البخاري: وكنا تحدثنا أن آل غسان تنعل النعال لغزونا فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاء فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أثَمَّ هو؟ ففزعت، فخرجت إليه، وقال: حدث عظيم، فقلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه....

ـــ إعلان النفير وتعبئة الجيش:

أعلن النفير العام للخروج لغزوة تبوك، حتى بلغ عدد من خرج مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تبوك ثلاثين ألفا، وقد عاتب القرآن الكريم الذين تباطأوا بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ) [التوبة: 38].

وقد طالبهم القرآن الكريم بأن ينفروا شبابًا وشيوخًا وأغنياء وفقراء بقوله تعالى: (انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) [التوبة: 41].

لقد استطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، ولقد أعلن رسول الله صلى الله عليه وسلم -على غير عادته في غزواته- هدفه ووجهته في القتال، إذ أعلن صراحة أنه يريد قتال بني الأصفر (الروم)، علما بأن هديه في معظم غزواته أن يوري فيها، ولا يصرح بهدفه ووجهته وقصده، حفاظًا على سرية الحركة ومباغتة العدو.

ولما علم المسلمون بجهة الغزوة سارعوا إلى الخروج إليها، وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على النفقة قائلا: «من جهز جيش العسرة فله الجنة».

وعندما تجمع المسلمون عند ثنية الوداع بقيادة رسول الله، اختار الأمراءَ والقادة وعقد الألوية والرايات لهم، فأعطى اللواء الأعظم إلى أبي بكر الصديق، ورايته العظمى إلى الزبير بن العوام ﷺ ودفع راية الأوس إلى أسيد بن حضير، وراية الخزرج إلى أبي دجانة، وأمر كل بطن من الأنصار أن يتخذ لواء، واستعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على حراسة تبوك من يوم قدم إلى أن رحل منها عباد بن بشر، فكان ﷺ يطوف في أصحابه على العسكر، وكان دليل رسول الله في هذه الغزوة علقمة بن الفغواء الخزاعي، فقد كان من أصحاب الخبرة والكفاءة في معرفة طريق تبوك.

ويلاحظ الباحث التطور السريع لعدد المقاتلين بشكل عام، ولسلاح الفرسان بشكل خاص. إن الذي يدرس تاريخ الدعوة الإسلامية، ونشوء الدولة الإسلامية ومؤسساتها العامة -وفي مقدمة هذه المؤسسات الجيش الإسلامي القوة الضاربة للدولة- يلاحظ أن هناك تطورًا سريعًا جدًّا في مجال القوة العسكرية، إذ بلغ عدد المقاتلين في غزوة بدر الكبرى ثلاثمائة وثلاثة عشر مقاتلا، وفي غزوة أحد بلغ سبعمائة مقاتل تقريبا، وفي غزوة الأحزاب ثلاثة آلاف مقاتل، وفي غزوة فتح مكة عشرة آلاف مقاتل، وفي غزوة حنين بلغ العدد اثني عشر ألف مقاتل، وأخيرًا بلغ عدد المقاتلين في تبوك ثلاثين ألف مقاتل أو يزيد.

عاد النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بعد أن مكث في تبوك عشرين ليلة، وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون وهو راجع إلى المدينة، ولما اقترب من المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه، ودخل المدينة، فصلى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وجاء المخلفون لرسول الله صلى الله عليه وسلم يقدمون له الاعتذار، وكانوا أربعة أصناف: فمنهم من له أعذار شرعية وعذرهم الله -سبحانه وتعالى-، ومنهم من ليس له أعذار شرعية وتاب الله عليهم، ومنهم من منافقي الأعراب الذين يسكنون حول المدينة، ومنهم من منافقي المدينة.

عصر الخلفاء الراشدين : (11-40هـ/632-660م)

حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم (11هـ / 632م) خلفه أربعة من كبار الصحابة عُرفوا بالراشدين ، وكانوا في حياته من أقرب الناس إليه ، حمل الأول وهو أبو بكر لقب خليفة رسول الله ، وحمل الآخرون (عمر وعثمان وعلي) لقب أمير المؤمنين ، ولقد نُظر إلى عصر هؤلاء الخلفاء الأربع الأوائل على أنه العصر الذهبي للفضائل الإسلامية النقية ، ومن هنا كانت تسميته بعصر الخلفاء الراشدين .

1- أبو بكر الصديق عبد الله بن أبي قحافة عثمان بن عامر :

(ح : 11 – 13هـ / 632 – 634م)

(ت 13هـ / 634م)

بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعت كلمة المسلمين على أن يكون أبو بكر الصديق رضي الله عنه أول خليفة له ، فهو خليفته في الصلاة ، ومؤنسه في في الغار ، وصاحبه في الهجرة ، فضلاً عن شدة إيمانه ، وسموّ أخلاقه ، وتضحيته في سبيل الله . وأول عمل قام به الصديق بعد توليه الخلافة إرسال جيش أسامة بن زيد إلى مشارف بلاد الشام بهدف الثأر لقتلى معركة

مؤتة ، غير مبال بالآراء التي فضلت تجميد الحملة ، بسبب وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولظهور بوادر الردة بين صفوف القبائل . والحدثان البارزان في خلافة أبي بكر الصديق هما : الردة ، وبداية الفتوح الإسلامية خارج الجزيرة العربية ، فواجه المرتدين والمتنبئين ومانعي الزكاة بشدة وحزم ، ونجح في القضاء عليهم من العام الأول لحكمه . وبدأت الفتوحات الإسلامية في عهد أبي بكر على جبهتين ، الأولى جبهة العراق ، وحدثت فيها معركة ذات السلاسل ، والثانية جبهة بلاد الشام ، وكانت فيها معركة أجنادين ، فحقق فيهما النصر تلو النصر ، إلى أن حل موعد وفاته إثر إصابته بالحمى وهو ابن ثلاث وستين سنة ، ودُفن في بيت الصديقة عائشة بجانب قبر النبي صلى الله عليه وسلم .

2- عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح :

(ح: 13 – 23هـ / 634 – 644م)

(ت 23هـ / 644م)

حينما اشتد المرض على أبي بكر رضي الله عنه ، وشعر بدنو أجله ، استشار كبار الصحابة وعامة المسلمين بمن يخلفه بعد أن طرح عليهم اسم عمر رضي الله عنه ، فوافق الجميع على اختياره وبايعوه . قرر عمر منذ اليوم الأول لتوليه الخلافة أن يتابع الفتوحات الإسلامية ، فكانت في عهده الإنجازات والانتصارات التالية ، على الجبهة الفارسية : معركة الجسر ، معركة البويب ، معركة القادسية ، فتح المدائن ، فتح جلولاء وحلوان ، فتح الأهواز ، معركة نهاوند . وعلى الجبهة الشامية : فتح دمشق وحمص ، معركة اليرموك ، إتمام فتوح بلاد الشام ، ثم فتوح الجزيرة الفراتية . وعلى الجبهة المصرية : فتح مصر ، والتوسع منها نحو المغرب العربي . ولما كان عهد عمر رضي الله عنه عهد فتوح حالف النصر فيه المسلمين ، كان لابد لهذه الدولة من تنظيم حتى تستمر ، فأقام لذلك ما يمكن أن نسميه : مؤسسات الدولة ، التي كانت نقلة نوعية في تطور الدولة الإسلامية ، التي أصبحت تسير على التاريخ الهجري حين جعل عمر هجرة النبي صلى الله عليه وسلم مبدأً للتاريخ الإسلامي ؛ فحدد القضاء وأصوله ، وتوسع في نظامه فأرسل إلى كل مصر من الأمصار قاضياً يتولى أموره ، ثم دَوَّن الدواوين التي باتت أول شكل من أشكال الإدارة العربية الجديدة ، وأنشأ بيت المال (وزارة المالية) ، وأبقى على النظم الإدارية التي كانت مطبقة في البلاد التي تم فتحها ، وكانت نهاية عمر بالشهادة ، حين أقدم رجل فارسي هو أبو لؤلؤة فيروز بطعنه في صلاة الفجر عدة طعنات بخنجر مسموم ، ودُفن بجوار قبر أبي بكر الصديق .

3- عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس:

(ح :24 – 35هـ / 644 – 656م)

(ت 35هـ / 656م)

رشح عمر بن الخطاب قبل وفاته ستة رجال من الصحابة كلهم من قريش لاختيار أحدهم خليفة للمسلمين ، وبعد أن عقد مجلس الشورى هذا عدة جلسات ، تقرر تعيين عثمان خليفة على المسلمين .

وما إن تولى عثمان منصبه حتى حاولت بعض الأقاليم التي فتحها الصديق وعمر الانتفاضة على حكم المسلمين فأرسل عثمان الجيوش إليها ، وأخضعها وأعادها إلى حظيرة الدولة ، ثم واصل عمليات الفتح على عدة جبهات ، ففتح على الجبهة الفارسية : طبرستان وجرجان والجوزجان والطالقان ، وأما على الجبهة الشامية فواجه البيزنطيين ، وفتح المسلمون أرمينية وقرطاجنة ، ووصل معاوية بن أبي سفيان إلى عمورية في قلب آسيا الصغرى ، وفتح جزيرة قبرص ، ثم توقفت هذه الفتوحات نتيجة انشغال المسلمين بأحداث المحنة الأولى (الفتنة الأولى) بعد أن سادت اضطرابات في بعض أمصار الدولة الإسلامية لأسباب كثيرة أبرزها التحول الجذري في مقومات المجتمع الإسلامي آنذاك نتيجة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي مرَّ بها هذا المجتمع بعد الفتوحات ، فثارت على عثمان عدة أمصار : الكوفة والبصرة ومصر ثم الشام .

وقد أرجع ابن خلدون في مقدمته أسباب المحنة (الفتنة) إلى الناحيتين السياسية والعصبية ، حيث التنافس القبلي ورفض القبائل سيطرة قريش على مقدرات المسلمين ، وقال عن أصحاب الفتنة : ((وكان أكثر العرب الذين نزلوا الأمصار : الكوفة ، والبصرة ، ومصر ، جفاة لم يستكثروا من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولا هذبتهم سيرته وآدابه ، ولا ارتاضوا بخلقه ، مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصبية والتفاخر والبعد عن سكينة الإيمان)) .

وتطورت الأحداث وتخللها مناظرات ومفاوضات ووساطات ، انتهت باستشهاد عثمان في داره ، ودُفن خارج أسوار البقيع .

4- علي بن أبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم :

(ح 36 – 40هـ / 656 – 661م)

(ت 40هـ / 661م)

، بويع علي بالخلافة بعد خمسة أيام من استشهاد عثمان ، وعلى الرغم من أنه – على الأغلب – قبل مكرهاً تولي منصب الخلافة خشية منه على الدين والمسلمين من التمزق والفتنة ، إلا أنه اشترط أن تكون البيعة علانية في المسجد ، وعن رضا من عامة المسلمين وبخاصة أهل الشورى وأهل بدر .

واجه علي منذ أول يوم استلم فيه الخلافة مشاكل أدت في النتيجة إلى معركتي : الجمل وصفين ، منها قضية المطالبة بدم عثمان ، وقضية عزل ولاة عثمان .

فقد طلب التريث بالثأر لمقتل عثمان كي لا تتغلب الأهواء السياسية على الميول الدينية ، وكي لا يُحتكم إلى القوة بدلاً من العودة إلى كتاب الله .

ثم أصرَّ على عزل ولاة عثمان من مناصبهم ليهدئ النفوس من جهة ، وليضمن تحقيق التعاون مع ولاة يثق بهم من جهة أخرى ، على الرغم من نصيحة بعض مقربيه بأن لا يُقدم على هذه الخطوة .

أدت هذه التدابير – بالإضافة إلى اختلاف المصالح والأهواء السياسية – إلى ردة فعل من مكة ثم من الشام ، فكانت ردة الفعل الأولى من أم المؤمنين عائشة من مكة ، فنددت بمقتل عثمان وبالطريقة التي قُتل فيها ، وتسارعت الأحداث فكانت معركة الجمل (36هـ / 656م) .

ثم كانت ردة الفعل الثانية من معاوية بن أبي سفيان من الشام ، وتطورت الأحداث حتى كانت معركة صفين (37هـ / 657م) ، ثم حادثة التحكيم بين علي ومعاوية ، وظل الخلاف محتدماً بين الاثنين حتى استُشهد علي على يد عبد الرحمن بن ملجم وهو أحد الخوارج .

الدولة الأموية :(41-132هـ/661-749م)

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قيس ، وكان أمية من سادات قريش في الجاهلية ، وكان في الشرف والرفعة كما كان عمه هاشم بن عبد مناف ، فبنو أمية بطن من بطون قريش ، كما أن بني هاشم بطن منها أيضاً ، فلما استشهد عثمان رضي الله عنه وهو الخليفة الراشدي الثالث وكان من بني أمية ، اختلف الناس على خلافة علي بن أبي طالب ، فنهض معاوية بن أبي سفيان الأموي للرئاسة وللأخذ بثأر عثمان ، وانتهى الأمر بمبايعته نهائياً حين تنازل له الحسن بن علي بن أبي طالب عن الخلافة.

1ـ معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية:

(ح : 41 – 60هـ / 661 –680م)

(ت 60هـ / 680م)

بعد استشهاد علي بايع الناس في الكوفة ابنه الحسن ، في حين بايع أهل الشام معاوية ، ثم فضَّل الحسن أن يخلع نفسه من الخلافة خوفاً على دماء المسلمين ، ويسلمها لمعاوية ، فدخل معاوية الكوفة ، وبايعه الحسن والحسين ، وسمي ذلك العام (41هـ) بعام الجماعة ، لاجتماع الأمة الإسلامية على خليفة واحد ، وبذلك قامت دولة الخلافة الأموية.

اتبع معاوية في خلافته حسن التدبير والشدة في وقت واحد ، ووازن في أعماله حين نشط داخلياً وخارجياً ، فداخلياً اجتهد في إقامة صرح دولته ، فأحدث تغييرات في بنية النظام السياسي ، وأسس الجيش ونظمه ، وحقق التوازن القبلي ، وأحسن إلى كبار الشخصيات الإسلامية من الصحابة وأبنائهم ، وشهدت الدواوين في عهده تطوراً جديداً منطلقاً من مؤسستين جديدتين هما : ديوان الخاتم ، وديوان البريد ، بالإضافة إلى دواوين الجند والخراج والرسائل .

وفي سياسته العسكرية الداخلية واجه الخوارج بعنف وشدة ، وواجه خطراً آخر تمثل بشيعة علي بالطريقة نفسها ، معتمداً على واليه المشهور زياد بن أبيه .

ثم كان أن أقدم على جعل ولاية العهد لابنه يزيد من بعده ، على الرغم من معارضة معظم الشخصيات الحجازية والمصرية ، وبذلك يكون قد حول الخلافة من خلافة قائمة على الشورى إلى ملكية وراثية .

وفي سياسته الخارجية وضع معاوية أسساً مدروسة وقواعد ثابتة ، فاتجه إلى تثبيت الفتوحات في المشرق ، وواجه البيزنطيين مرات عديدة على الجبهة الغربية في بلاد الشام ومصر ، وبنى من أجل ذلك البحرية الإسلامية ، وفتح عدداً من المواقع على جبهة شمالي إفريقية ، إلى أن توفي بعد مرض ألم به .

2- يزيد بن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب:

(ح :60 – 64هـ / 680 – 683م)

(ت 64هـ / 683م)

، بويع بعد وفاة والده ، وواجه خلال مدة حكمه ثلاث قضايا خطيرة ، الأولى خروج الحسين بن علي عليه من مكة إلى الكوفة واستشهاده في كربلاء (61هـ / 680م) ، والثانية خروج أهل المدينة عليه بعد مأساة كربلاء ، فأخضعهم في معركة الحرة (63هـ / 683م) ، والثالثة حركة عبد الله بن الزبير التي هي امتداد للأحداث المتقدمة ، ومات يزيد قبل أن يقضي عليها .

وفي مجال السياسة الخارجية لم تحصل أحداث تُذكر سوى بعض الفتوحات على جبهة شمالي إفريقية بقيادة عقبة بن نافع .

3- معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (معاوية الثاني):

(ح : 64هـ / 684م)

(ت 64هـ / 684م)

بعد وفاة يزيد حدثت بيعتان : الأولى في بلاد الشام لمعاوية بن يزيد ، والثانية في الحجاز لعبد الله بن الزبير .

كان معاوية هذا يُلقب : الراجع إلى الله ، وشكَّل ظاهرة فريدة في التاريخ الأموي ، حين اتخذ موقفاً خاصاً من الخلافة ، فقد تنحى بعد مبايعته مبرراً بعدم قدرته على لمِّ شمل المسلمين ، تاركاً الأمر شورى لهم فيمن يختاروا غيره ، وتغيَّب في مترله ، وتوفي بعد ثلاثة أشهر من خلافته .

وهو رجل كان لا يحب الخصام ، ويحب العزوف عن السياسة ، و لم يكن مؤمناً بحق بني سفيان بالخلافة .

4- مروان بن الحكم :

(ح :64 – 65هـ / 684 – 685م)

(ت 65هـ / 685م)

عمت الفوضى أرجاء العالم الإسلامي بعد تنازل معاوية بن يزيد ثم وفاته ، فاجتمع بنو أمية في مؤتمر الجابية قرب دمشق ، لإنقاذ خلافتهم المهددة ، وتمخض الاجتماع عن اختيار مروان بن الحكم خليفة بإجماع الحاضرين ، وبذلك انتقلت الخلافة الأموية من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني .

ظهرت في عهد مروان العصبية القبلية ، وكان هو يمانياً ، فواجه القيسيين بقيادة الضحاك ابن قيس في معركة مرج راهط (64هـ / 684م) وقُتل بها الضحاك .

وبدأ مروان يبسط نفوذه على بلاد الشام ومصر ، ثم سيَّر جيشين للغرض نفسه ، أحدهما إلى الحجاز للقضاء على حركة عبد الله بن الزبير ، والثاني إلى الجزيرة ، و لم يحقق هذان الجيشان نتائج تُذكر .

وقبيل وفاته عهد مروان بالخلافة لاثنين من أبنائه ، هما : عبد الملك ثم عبد العزيز ، وهو أو من جعل ولاية العهد لاثنين في التاريخ الإسلامي ، ثم توفي بالطاعون ودُفن في دمشق .

5- عبد الملك بن مروان بن الحكم :

(ح: 65 – 86هـ / 685 – 705م)

(ت 86هـ / 705م)

هو أول من سُمي عبد الملك في الإسلام ، تولى الخلافة في ظل انقسام في العالم الإسلامي ، حيث واجه حركات داخلية عديدة كانت تتنازع مع الأمويين السيطرة على الحكم ، فدخل في صراع مع العلويين بزعامة سليمان بن صرد الخزاعي ، وغلب عليهم اسم التوابين ، وانتصر عليهم ، وناهضته حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي التي رفعت شعار التشيع وحب السلطة ، فقضى عليه ، وخرج عليه الخوارج فقاتلهم وتخلص منهم ، ثم واجهته حركة عبد الرحمن بن الأشعث التي انتهت بانتحار ابن الأشعث .

و لم تسمح هذه الاضطرابات المتلاحقة للمسلمين بالتوسع في عهد عبد الملك في الجبهة الشرقية إلا قليلاً ، واضطر عبد الملك إلى عقد معاهدة مع الإمبراطور البيزنطي لتهدئة هذه الجبهة معه .

والنجاح الذي حالف عبد الملك كان على جبهة شمالي أفريقيا ، فانتصر هناك في عدة معارك .

والشهرة الخاصة التي تُحسب لعبد الملك هي اهتمامه الخاص بإدارة شؤون الدولة ، فطور الجهاز الإداري موزعاً إياه على خمسة دواوين هامة ، وأقدم على خطوة سُجلت باسمه وهي تعريب الإدارة والنقد بما يُعرف بحركة التعريب .

6- الوليد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم :

(ح: 86 – 96هـ / 705 – 715م)

(ت 96هـ / 715م)

تولى الوليد بعهد من أبيه عبد الملك ، وابتدأ بتوليه الخلافة جيل أموي جديد ، وكان جيلاً نشيطاً متحضراً فاهماً للحضارة عاملاً على نشر الإسلام . وكان الوليد يريد أن يعيد للإسلام مجده ، واستبعد من إدارة دولته غير العرب ، واهتم بالفقراء ونشط الاقتصاد .

اتصف حكمه بالإيجابيات داخلياً وخارجياً ، فداخلياً استتب الأمن وعمَّ الرخاء ، وازدهرت العمارة الإسلامية ، فبنى المسجد الجامع بدمشق (الأموي) ، وبنى المسجد الأقصى في القدس ، ووسع الحرم النبوي ، وأصلح الطرق ، وحسَّن مدينة دمشق حيث أوصل الماء إلى كل بيت من بيوتها عبر أقنية من نهر بردى ، وهو أو من اتخذ البيمارستان للمرضى ، وأول من اتخذ دار الضيافة ، وأول من بنى الأميال في الطرقات .

وشهد عهده توسعات خارجية عظيمة على يد قادة جيشه : قتيبة بن مسلم الباهلي ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، ومحمد بن القاسم الثقفي ، وموسى بن نصير ، وأخوه مسلمة بن عبد الملك ، ، ففتح هؤلاء بلاد ما وراء النهر وبلاد السند ، وحققوا انتصارات هامة على الجبهتين البيزنطية والإفريقية .

7- سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم :

(ح: 96 – 99هـ / 715 – 717م)

(ت 99هـ / 717م)

يعد عصر سليمان مقدمة لعصر عمر بن عبد العزيز في التدين وتطبيق الشرع ، فتابع أعمال التحضير والفتوح التي بدأها سلفه الوليد ، وكان ديناً وعادلاً ومحباً للغزو ، أطلق سراح آلاف المسلمين المعارضين للحكم الأموي ، وضاعف العطاء للناس ، وتتبع الفُساق.

والحدث الأكبر الذي شهده عهد سليمان كان حصار القسطنطينية(98هـ / 717م) بقيادة مسلمة بن عبد الملك براً وبحراً ، وبلغت القوات التي شاركت في هذا الحدث مائة وثمانين ألف جندي ، وألف وثمانمائة قطعة بحرية ، واستمر هذا الحصار حتى جاء كتاب عمر بن عبد العزيز الذي خلف سليمان يأمر بفكه والعودة إلى الشام .

قال ابن سيرين : يرحم الله سليمان ، افتتح الخلافة بإحيائه الصلاة لمواقيتها ، واختتمها باستخلافه عمر بن عبد العزيز .

8- عمر بن عبد العزيز : (ح: 99 – 101هـ / 717 – 720م)

(ت 101هـ / 720م)

وندخل مع عمر بن عبد العزيز في عصر رائع من عصور الإسلام ، في عصر تتجلى فيه مظاهر التقى والعدل والحكمة والفهم والإدراك وحسن السياسة .

يعد عهده من أزهى عهود الخلفاء الأمويين ، حتى أن بعض المؤرخين كالطبري وابن كثير رأوا أنه متمم لعهد الخلفاء الراشدين ، فقد كان عميق المسؤولية والزهد والصدق ، بعيداً عن كبرياء الملوك ، فكان إلى النهج الراشدي أقرب .

جمَّد عمر العمليات العسكرية ليتفرغ للإصلاحات الداخلية ، متبعاً سياسة سلمية مع الشعوب غير الإسلامية دعاهم من خلالها إلى الدخول في الإسلام ، وتناول في إصلاحاته مختلف جوانب المجتمع الإسلامي ، وأهمها : انفتاحه على الفئات المعارضة ، وتسامحه الديني مع غير المسلمين ، وتأسيس فئة إدارية متنورة تحكم البلاد ، واستيعابه المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أفرزتها الفتوحات .

وبنى الخانات على الطرقات ، وحقق أفكاره المثالية التي تهدف إلى نشر العدل وتوفير الأموال .

توفي عمر في منطقة خناصرة من دير سمعان بين حماة وحلب .

9- يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم (يزيد الثاني) :

(ح: 101 – 105هـ / 720 – 724م)

(ت 105هـ / 724م)

تولى الخلافة بعهد من أخيه سليمان حين جعله بعد عمر بن عبد العزيز ، اتصف بشدة تعصبه للحزب القيسي ، فأدى ذلك إلى خروج يزيد بن المهلب اليمني عليه ، وحقق ابن المهلب عدة انتصارات وكاد أن يبسط سلطانه على العراق كله ، لولا أن نجح مسلمة بن عبد الملك بتصفيته .

وفي عهد يزيد ظهرت الدعوة العباسية على أيدي علي بن عبد الله بن العباس ، وعبد الله ابن محمد بن الحنفية ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس ، وركَّز هؤلاء الدعاة دعوتهم في إقليم خراسان ، الإقليم الأكثر تشنجاً من الحكم الأموي .

وخارجياً شهدت المناطق الحدودية للدولة الأموية في عهد يزيد وعلى كافة الجبهات هدوءاً نسبياً بفعل الظروف السياسية التي مرَّت بها هذه الدولة ، بل هُزم المسلمون في بلاد القوقاز ، فلم تكن الفتوحات موفقة في عهده .

وقبيل وفاته عيّن أخاه هشاماً ولياً لعهده ، ثم ابنه الوليد .

10- هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم:

(ح: 105 – 125هـ / 724 – 743م)

(ت 125هـ / 743م)

كان رجلاً منظماً ، واضح الرأي والفكر ، حازماً ذا سيطرة وقوة ، ولم يكن من الجبابرة المتكبرين ، استطاع أن يعيد للدولة توازنها القبلي ، ولم يخرج عليه في عهده إلا زيد ابن علي ، أحد كبار زعماء آل البيت ، فالتفت حوله الجموع ، حتى قضى عليه هشام .

من إصلاحات هشام : شق قنوات الري وحفر الآبار على طريق الحج ، وبناء القصور كقصر الرصافة الذي عُرف باسمه (رصافة هشام) .

وشهدت جبهة المشرق في عهده اضطرابات خطيرة أدت إلى تقلص ممتلكات المسلمين وانسحابهم من بعض مناطق ما وراء النهر بما فيها بخارى ، وعلى الجبهة البيزنطية استمر القتال بين الطرفين ، واهتم هشام ببناء الحصون على طول الحدود ، وحدثت معركة (ربض أكرن 122هـ / 740م) وهي آخر المعارك الكبرى بين الأمويين والبيزنطيين ، وعانى الأمويون على جبهة شمالي إفريقية من عداء البربر ، الذين أحدثوا ثورة أخمدها هشام .

11- الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان (الوليد الثاني) :

(ح: 125 – 126هـ / 743 – 744م)

(ت 126هـ / 744م)

بويع بالخلافة بعد وفاة عمه هشام ، وكان كريماً فزاد في أعطيات الجند والناس ، وسخّر الخدَّام للعميان وأمثالهم ، لكنه اتخذ سياسة العداء تجاه أبناء عمه وتجاه بعض الولاة ، فاندلعت ثورة ضد حكمه في دمشق ، تزعمها يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فاستولى على دمشق وقتل الخليفة ، فكانت هذه الأحداث بداية النهاية للحكم الأموي ، وبداية انقسام بيتهم على نفسه ، فاتصف عهده بالقلق والاضطراب وتحرك الخصومات .

كان الوليد شاعراً فصيحاً من ظرفاء بني أمية ، وقد بالغ بعض أصحاب الأخبار في وضع روايات ضده ، فاتهموه في دينه تهماً ليست حقيقية .

12- يزيد الثالث (الناقص) ابن الوليد الأول ابن عبد الملك بن مروان:

(ح: 126هـ / 744م)

(ت 126هـ / 744م)

بويع بعد قتله للوليد بن يزيد في قرية المزة ، ثم دخل دمشق واستولى عليها ، وأعلن عن رغبته في أن يسير سيرة عمر بن عبد العزيز ، وأن يتتبع خطاه ، ويأخذ بالشورى ، ولكن الناس لم يجمعوا على بيعته ، فاضطربت الأحوال ، فحاول أن يقوم بالإصلاح ، وأخذ بالتقشف كما وعد ، وأنقص أعطيات الجند ، فسمّاه الناس بالناقص ، وتصدع حكم بني أمية ، فقامت معارضة ضده ، ثم فاوضه مروان بن محمد حاكم الجزيرة وأذربيجان ، ودخل في مفاوضات معه ، ولما أوشك الرجلان على الاتفاق ، توفي يزيد فجأة ، بعد حكم لم يطل أكثر من ستة أشهر .

13- مروان بن محمد الجعدي (مروان الثاني) :

(ح: 127 – 132هـ / 744 – 750م)

(ت 132هـ / 750م)

وهو رجل قوي وداهية محارب ، صبور على الشدائد ، وهو الذي كان يقود الفتوح الإسلامية في جنوبي القفقاس ، وكان شيخاً محنكاً ، فقد تجاوز الخامسة والخمسين من العمر حين توفي يزيد الثالث ، وهو رجل ذو طموح عجيب ، فبعد وفاة يزيد

الثالث انتقلت الخلافة إلى إبراهيم بن الوليد بالوصية ، فلم يعترف مروان بإبراهيم هذا ، وزحف إلى دمشق ودخلها ، وبويع بالخلافة ، إلا أن الظروف شاءت أن تكون نهاية دولة الخلافة الأموية في عهده ، على الرغم من حنكته وقوته ، وقد لا يكون المسؤول عن ذلك ، لأن العوامل التي أدت إلى إضعافها وزوالها كانت تتفاعل منذ زمن بعيد ، فانهمك في إخماد الثورات التي قامت ضد حكمه ، فشغله ذلك عما كان يجري في خراسان التي كانت مركزاً للدعوة العباسية ، فزحفت الجيوش العباسية باتجاه بلاد الشام ، وبويع في هذه الأثناء عبد الله بن محمد العباسي بالخلافة من الكوفة ، وهو المعروف بأبي العباس السفاح ، فأرسل جيشاً بقيادة عمه عبد الله بن علي الأصغر ، التقى بجيش مروان على نهر الزاب (132هـ / 750م) ، ثم طارد مروان حتى ألقى القبض عليه في قرية بمصر تدعى بوصير ، وانتهت بمقتله الخلافة الأموية .

الدولة العباسية

132 – 656 هـ = 749 – 1258م

– مراحل قيام الدولة العباسية.

أ– الدعوة العباسية:

نتيجة للاضطرابات الخطيرة التي شهدتها الدولة الأموية، استغل الهاشميون هذه الفرصة وتربصوا بالأمويين الدوائر، بزعامة العباس بن عبد المطلب – عم النبي – بقصد المطالبة بحق آل البيت في الخلافة، ونلاحظ أن العباس مؤسس هذه الأسرة، لم يثبت أنه طالب بالخلافة ربما لأنه تأخر في إسلامه إلى ما قبل فتح مكة، وقد حرص المؤرخون العرب القدامى على إظهاره بمظهر المؤيد للدعوة الإسلامية، وأنه لم يحمل لها الحقد مثل غيره من أعمام النبي كأبي لهب وأبي جهل؛ فهو الذي خرج مع النبي عند بيعة العقبة ليمهد له الأمر، وكان يكاتبه سراً وهو بالمدينة، ولم يظهر العباس طمعاً في خلافة النبي، بل أقبل بعد موته على ابن أخيه علي، وقال له «ابسط يدك لنبايعك»، ولكن علياً تباطأ أيضاً وانشغل بدفن النبي، وكان عمر بن الخطاب ينظر إلى العباس على أنه رأس أسرة النبي، ففرض له في الديوان وبدأ به. وقد توفي العباس في خلافة عثمان سنة 32هـ = 652م.

وابنه عبد الله بن العباس، كان غير طامع للخلافة، وبعد مقتل علي وتسلم الحسن، اعتزل عبد الله الفتنة وأقام بمكة واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه، وعرف بالبحر لعلمه، ورفض عبد الله بن العباس مبايعة ابن الزبير وخرج من مكة إلى الطائف مع ابن الحنفية محمد بن علي بن أبي طالب حيث توفي فيها سنة 68هـ = 687م، كذلك لم يسع علي بن عبد الله بن العباس إلى الخلافة وهو الذي ولد في الليلة التي قتل فيها علي بن أبي طالب فسماه أبوه علياً، وقد أقام في قرية الحميمة بشرق الأردن اليوم، ربما بأمر من الأمويين ليكون تحت رقابتهم إلى وقت وفاته سنة 118هـ = 736م.

ب– انتقال الدعوة إلى بني العباس:

إن طموح بني العباس للخلافة ظهر على يد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس استناداً إلى روايتين؛ الأولى: تعزو ذلك الطموح إلى الصدفة عندما جاءه أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وريث الدعوة الشيعية المعروفة بالكيسانية وأوصى له بها. فقد كان أبو هاشم في زيارة الخليفة سليمان بن عبد الملك (96 - 99هـ = 715- 717م) لقضاء بعض الأعمال، فلما رأى الخليفة سليمان علمه وفصاحته خافه، فدبر من وضع له السم في اللبن، ولما شربه أبو هاشم وأحس بالسم قصد الحميمة – وكان بها محمد بن علي – فأوصى له بأن يرثه في إمامة الشيعة خصوصاً وأن أبا هاشم لم يكن له عقب.

أما الرواية الثانية: فتذكر أن الوصية سلمها أبو هاشم إلى علي بن عبد الله بن العباس بدوره إلى محمد حتى بلغ، فهو الإمام. ولما آلت إليه الدعوة جعل هدفها القضاء على دولة بني أمية وإعلان الخلافة في بني هاشم، وذلك بالدعوة الغامضة للرضا في آل محمد دون أن يذكر الدعاة المقصود أهو فرع آل علي بن أبي طالب (العلويين) أو آل العباس (العباسيين)، واستمر محمد بن علي في إرسال الرجال والدعاة، وكان أبو هاشم طلب من الدعاة الطاعة له فأصبحت الدعوة أكثر تنظيماً على يديه بجعله لها مجلساً يشرف عليها يتكون من اثني عشر نقيباً، أما الدعاة فكان عددهم كبيراً حتى بلغ السبعين، وكانوا يذهبون في زي التجار مستبضعين، على أن يجتمع بهم محمد بن علي في موسم الحج إذ يأتون إليه بالمال ويأخذون منه التعليمات والأوامر، وتميزت الدعوة العباسية بالسرية والكتمان واستجاب للعباسيين في خراسان أعداد كبيرة لأن بني أمية لم يحسنوا معاملتهم وبخسوهم حقهم في العطاء، غير أن محمد بن علي مات قبل أن ينال غرضه من دعوته في سنة 124هـ = 742م، فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم الذي عرف بالإمام.

جـ – قيام دولة الخلافة العباسية:

بعد أن استقرت الدعوة العباسية في خراسان بفضل جهود أبي مسلم الخراساني الذي قاد الثورة في خراسان واتخذ السواد شعاراً له فعرف جيشه «بالمسودة»، حتى تهيأت القيادة لتسديد الضربة القاضية للدولة الأموية، ونجح الحسن بن قحطبة بن شبيب القائد الأعلى للجيوش العباسية في دخول الكوفة، واعترف بأبي سلمة الخلال، رئيس دعاة العراق، وزيراً لآل محمد، وبعد سيطرة أنصار الثورة على العراق، حان الوقت لاختيار الشخص من آل محمد الذي أُعلنت الثورة باسمه، وكان اسم إبراهيم بن محمد هو الشائع لكن هذا التداول كشف الغطاء عنه، فقبض عليه مروان الثاني آخر خليفة أموي وقتله، وكان قد أوصى قبل وفاته إلى أخيه أبي العباس عبد الله بن محمد، فبويع له في الكوفة بعد أن انتقل إليها من الحميمة يوم الجمعة في (الثاني عشر من شهر ربيع الثاني عام 132هـ = شهر تشرين الأول عام 749م) ، لكن تاريخ خلافته يبدأ بعد مقتل مروان الثاني في شهر آب عام 750م = 133 هـ وهو تاريخ قيام دولة الخلافة العباسية.

انتهجت دولة الخلافة العباسية منذ نشأتها سياسة مشرقية واضحة وتطلعت إلى خراسان مهد نشأتها، وجاء هذا التحول نتيجة لعدة عوامل، أهمها:

- مناوأة أهل الشام للعباسيين.
- انتقال العاصمة من دمشق إلى بغداد.
- التأثير الفارسي على النظم والحياة العباسية.
- انتعاش التجارة المشرقية.
- ابتعاد الدولة العباسية عن عالم البحر الأبيض المتوسط.
- عدم اهتمام العباسيين بإنشاء أسطول بحري في المتوسط يقارع الأسطول الأموي.

وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم تاريخ دولة الخلافة العباسية إلى أربعة عصور وفقاً لقدرات الخلافة وتطور أوضاعهما السياسية، وازدهار الحياة الثقافية والفكرية، وهي: عصر القوة والتوسع والازدهار، عصر النفوذ التركي، عصر النفوذ البويهي الفارسي، وعصر النفوذ السلجوقي التركي.

العصر العباسي الأول

132- 232هـ = 750- 847م

وهنا سأذكر أبرز خلفاء هذا الدور.

ـ أبو العباس عبد الله السفاح 132- 136هـ = 750- 754م:

هو أول الخلفاء العباسيين، والذي عمل على تمتين دعائم الدولة الجديدة بالضرب بشدة على أيدي أعدائها، لأنه كان يعلم أن أي تراخ أو تسامح مع خصومها قد يقضى عليها في المهد، لذلك نراه يتهدد ويتوعد في أول خطبة له بالكوفة حين قال: «يا أهل الكوفة، أنتم أهل محبتنا ومنزل مودتنا فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»، وقال آخرون إنما لقب بالسفاح لكرمه، وانشغل خلال فترة حكمه بتصفية الجيوب الأموية وارتكب المجازر ضدهم، وقضى على منافسه السياسي أبي سلمة الخلال الذي أراده أن يملك ولا يحكم.

– حروبه الخارجية:

أ– جبهة المشرق: حيث نجح الصينيون في بسط سيطرتهم على أجزاء من بلاد ما وراء النهر وظهروا أمام فرغانه وهاجمو الشاس (طشقند الحالية)، ولكنهم انسحبوا بسبب الصراع على العرش، ومع ذلك تقدمت القوات العباسية واشتبكت مع القوات الصينية في معركة طراز التي جرت سنة 133هـ = 751م، وانتصرت القوات الإسلامية بقيادة زياد بن صالح ووضعت حداً للتدخل الصيني في المنطقة التي نعمت في ظل الحكم العباسي بعهد طويل من الرخاء.

ب – الجبهة البيزنطية: استغل البيزنطيون الاضطرابات في الدولة الإسلامية، فأغار الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس على الثغور الشامية والجزرية وهاجم أرمينيا واستولى على أرضروم وكماخ الواقعة على نهر الفرات، فقامت الدولة العباسية باستئناف حركة الصوائف والشواتي، وتمكن المسلمون سنة 134هـ = 752م من السيطرة على ملاطية ودخلوا حصن طوانة.

– الوزارة في عهد أبي العباس السفاح:

أقر أبو العباس نظام الوزارة ليؤكد على تطور الدولة واتجاهها نحو المركزية وتوزيع السلطات، وهذا المنصب أخذ من النظام الفارسي القديم وتم ذلك بتحريض من الفرس وتأثير الخراسانيين، حيث إنهم دعوا أبا سلمة الخلال «وزير آل محمد» وأقره أبو العباس.

تميز أبو العباس السفاح بأنه كان يؤمن بسلطة الخليفة المطلقة والقضاء على كل من يشك في إخلاصه، وهكذا كانت عمليات اغتيال أقرب المقربين إليه مثل وزيره أبي سلمة الخلال داعي العباسيين بالكوفة بتهمة أنه كان يريد تحويل الخلافة عنهم إلى آل علي بن أبي طالب.

ـ عبد الله أبو جعفر المنصور 136– 158هـ = 754– 775م:

يعد أبو جعفر المنصور – عبد الله بن محمد – المؤسس الحقيقي للدولة العباسية، لما عرف عنه من العزم، ولما اتصف به من الدهاء والمكر والجرأة، فعندما تولى أبو جعفر الخلافة، لم تكن دعائمها قد توطدت بعد، وقد خشي من منافسة عمه عبد الله بن علي الذي كان يطالب بالخلافة، كما انتابه الخوف من تعاظم نفوذ أبي مسلم الخراساني، ومن خروج بني عمه آل علي بن أبي طالب على حكمه، فقرر ضرب أعدائه حتى تخلو له الساحة السياسية.

– الأوضاع الداخلية في عهد المنصور:

أ– التخلص من عمه عبد الله بن علي:

كان عبد الله بن علي على رأس الجيش الذي أرسله أبو العباس السفاح إلى آسيا الصغرى لمقاتلة البيزنطيين، ولما وصل إلى دلوك، بنواحي حلب، علم بوفاة الخليفة أبي العباس فتوقف عن الزحف، وارتد إلى حران، وبايعه الجند بالخلافة، ثم زحف نحو الجزيرة، ندب المنصور أبا مسلم الخراساني لقتاله، ونجح هذا القائد في التغلب عليه قرب نصيبين، وقبُض على عبد الله، وسجن، ثم قتله المنصور في عام 147هـ = 764م.

ب- نهاية أبي مسلم الخراساني:

استخدم المنصور المكر والدهاء للقضاء على أبي مسلم الذي كان يشعر بأنه المؤسس الحقيقي لدولة الخلافة العباسية، وراودته أحلام وطموحات شخصية في التفرد بحكم خراسان وبلاد فارس كلها، فقد ظهر ذلك بوضوح عندما وصله كتاب الخليفة أبي جعفر بتوليته على مصر والشام، فأجاب غاضباً: «هو يوليني الشام ومصر، وخراسان لي»، ولجأ المنصور إلى أسلوب الدهاء حيث دعاه إلى مجلسه وأمر رجاله بقتله سنة 137هـ = 755م.

ولكن نلاحظ أنه بعد أن تخلص المنصور من هذا الخطر نتج عن مقتله ظهور حركات فارسية دينية سياسية وقوميه غريبه عن الإسلام، أظهر أصحابها الإسلام وأبطنوا أهدافهم الدينية المجوسية، والسياسية الهدامة، والعنصرية الفارسية، واتخذوا من أبي مسلم رمزاً ووسيلة للتعبير عن معارضتهم للسلطة العباسية، والتنفيس عما في نفوسهم، ومنفذاً لتحقيق آمالهم وأهدافهم. نذكر من هذه الحركات: حركة سنباذ والحركة الراوندية، وحركة أستاذ سيس وقد نجح المنصور في القضاء عليها.

- الأوضاع الخارجية في عهد المنصور:

أ- البيزنطيون:

قام الإمبراطور البيزنطي قسطنطين الخامس سنة 138هـ = 755م بحملة عسكرية على «ملطية» إحدى الثغور الإسلامية في الجزيرة، مستغلاً انشغال الخليفة المنصور في قمع الفتن الداخلية، فهدم سور المدينة وعاث فيها فساداً وخراباً، فردت القوات العباسية وطردت البيزنطيين من الثغور الشامية والثغور الفراتيه. ثم انصرف الإمبراطور البيزنطي إلى قتال البلغار في البلقان من جهة، ومواجهة مشكلة عبادة الأيقونات من جهة أخرى، حيث أعاد المنصور بناء ما تهدم من حصون وثغور، ولجأ البيزنطيون إلى طلب الصلح مقابل جزيه يؤدونها للمسلمين.

ب- الأندلس:

تمكن الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان من دخول الأندلس وأسس فيها الدولة الأموية، وبسبب بعد المسافة بين العراق والأندلس وصعوبة وصول الجيوش العباسية إليه، لجأ المنصور إلى الحيلة لاسترداد الأندلس، حيث

قام بتحريض أحد الزعماء العرب في المنطقة واسمه «العلاء بن مغيث الجذامي» في مدينة باجه غرب الأندلس على الثورة ضد الأمير عبد الرحمن واعداً إياه بإعطائه إمرة الأندلس إن هو نجح في الانتصار على عدوه الأموي، لكن الأمير عبد الرحمن تمكن من الانتصار على العلاء بن مغيث الجذامي وقتله.

ومن هذا الواقع صرف المنصور النظر عن فكرة استعادة الأندلس وأبدى إعجابه بشجاعة عبد الرحمن، وقال: «إن صقر قريش هو هذا الأمير الشجاع عبد الرحمن الذي ذهب إلى الأندلس شريداً طريداً واستطاع بذكائه وشجاعته أن يؤسس هناك ملكاً عريضاً»، ومنذ ذلك الوقت لقب عبد الرحمن بلقب «صقر قريش».

جـ – بناء مدينة بغداد:

يعد بناء مدينة بغداد من قبل الخليفة أبي جعفر المنصور من أهم الأعمال، وتركت أثرها على مستقبل دولة الخلافة العباسية، وتم اختيار المكان بعناية فائقة بين نهري دجلة والفرات، مدفوعاً بعدة عوامل سياسية وعسكرية واقتصادية ومناخية. شرع المنصور في بناء عاصمته في عام 145هـ = 762م واستغرق بناؤها أربع سنوات، وانتهى في عام 149هـ = 766م. وظلت بغداد عاصمة للعباسيين حتى سقوطهما على يد المغول عام (656هـ = 1258م).

ـ أبو جعفر هارون الرشيد 170 193هـ = 786– 809م:

تجاوزت شهرة الرشيد الشرق ووصلت إلى الغرب حيث تناولها المجتمع الغربي بالتحليل والدراسة، وحاول بعض ملوك أوروبا التقرب منه واكتساب مودته. اتصف الرشيد بمجموعة من الصفات الشديدة الاختلاف، فهو سياسي بارع، فيه حزم المنصور وعنفه مع مرونه واضحة وسخاء بالمال لاصطفاء الناس، شديد الاهتمام بشؤون الرعية، مرهف الإحساس، حاد المزاج، سريع التأثر، يثور غضباً، ويفرط في الانتقام، وقد ترق عواطفه فيبكي، ويظهر رحمة متناهية، متديناً، ورعاً، فهو بين حج وغزو، حتى قيل إنه كان يحج عاماً ويغزو عاماً، وكان إذا حج، حج معه مئة من الفقهاء وأبنائهم، وإذا لم يحج أحج عنه ثلاثمئة رجل بالنفقة والكسوة الباهرة، يحب الشعر والأدب والفقه، ويعد عصره العصر الذهبي لدولة الخلافة العباسية.

– الأوضاع الداخلية في عهد الرشيد

أ– حركة الخوارج:

ازداد نشاط الخوارج في منقطة الجزيرة، في عهد الرشيد، الذين أخذوا على الخلفاء مأخذ الاستبداد في السلطة والخروج عما توجبه الأوامر الشرعية في كتاب الله وسنة نبيه، حسب اعتقادهم، وكانوا بقيادة الوليد بن طريف الشاري الشيباني المقيم

في الجزيرة بنواحي نصيبين، فأرسل الرشيد قوة عسكرية في عام 179هـ = 795م بقيادة يزيد بن مزيد الشيباني، اصطدمت بهم في حديثة الفرات وقضت عليهم.

ب- الاضطرابات في شمال إفريقية:

تمكن قائد الرشيد هرثمة بن أعين من القضاء على الاضطرابات بفعل خروج الخوارج وقادة الجند والبربر، إلا أن تجدد الانتفاضات على الحكم المركزي، دفعت الرشيد إلى توليه إبراهيم بن الأغلب والياً على إفريقية في عام 184هـ = 800م الذي نجح في التغلب على الصعوبات التي اعترضت حكمه، ثم مهد لقيام دولة الأغالبة التي ما لبثت أن استقلت عن الإدارة المركزية واتخذت من القيروان حاضرة لها.

ج- الاضطرابات في المشرق:

نتيجة لسوء تصرف ولاة الرشيد في المشرق قامت الانتفاضات الشعبية وأهمها خروج رافع بن الليث بن نصر بن سيار في سمرقند (بلاد ما وراء النهر) على الحكومة المركزية بسبب دوافع شخصية، وتبعه سكان خراسان وبلاد ما وراء النهر، بسبب كراهيتهم لسياسة العباسيين، واضطر الرشيد أن يخرج بنفسه إلى خراسان لوضع حد للاضطرابات فيها، إلا أن المنية وافته وهو في الطريق.

د- نكبة البرامكة:

يعود أصل البرامكة إلى برمك وهو رجل فارسي مجوسي من مدينة «بلخ». وهو لقب أطلق على سادن معبد النوبهار في هذه المدينة، وقد برز من هذه الأسرة في أوائل عهد الدولة العباسية خالد بن برمك، فقلده أبو العباس ديوان الخراج والجند، كما تولى وزارة التنفيذ بعد مصرع أبي سلمة الخلال، وعمل مستشاراً للمنصور. أنجب خالد ولداً هو يحيى الذي ارتبط تاريخه بتاريخ هارون الرشيد، وقد أدى دوراً بارزاً في تأمين ولاية العهد له في مواجهة الضغوط الكبيرة التي مارسها عليه الهادي بهدف تنحيته عن ولاية العهد، وتولية ابنه جعفر بدلاً منه، وحفظ الرشيد فضل يحيى عليه، فولاه الكتابة والنيابة عنه ووزارته، ومنحه سلطات مطلقة، فكانت الدواوين كلها بيده. واستطاع يحيى من خلال ابنيه الفضل وجعفر من إدارة الدولة محققاً بذلك نظريه المشاركة الكاملة في الحكم، وأحاط البرامكة بالرشيد يتحكمون به، كما أن معظم الرجال البارزين في الدولة كانوا من صنائعهم وأتباعهم لدرجة أن الرشيد وجد صعوبة كبرى في العثور على رجال لم تكن لهم صلة بهم، ليتولوا بعض شؤون

الدولة، ويبدو أن البرامكة كانت لهم سياسة كامنة لإحياء الإرث الفارسي المندثر، وبلغ أوج هذه الأسرة في حياة الخيزران والدة الرشيد، فلما توفيت في عام 173هـ = 789م بدأت ثقة الخليفة بأفرادها تهتز حتى نكل بهم، فقد تبين له ميلهم إلى الطالبيين وميولهم العنصرية، ومن جهة أخرى، استبد البرامكة بمالية الدولة حتى قيل إن الرشيد «يحتاج إلى اليسير من المال فلا يقدر عليه».

في الوقت الذي كان البرامكة يسرفون في النفقات، وقد قيدوا الخليفة في هذا التصرف المالي، كما كبلوه في تصرفه السياسي، وأدت الوشاية، من قبل خصومهم، دوراً أخر في التأثير على الرشيد، فقتل جعفر في 187هـ = 802م، وسجن يحيى وأبناءه وصادر ممتلكاتهم وأموالهم.

– العلاقات الخارجية في عهد الرشيد:

أ– العلاقة مع البيزنطيين:

عمد الرشيد إلى تحصين الحدود وتقوية الجيش، ونجح في إجبار الإمبراطورة إيرين على القبول بشروط الصلح التي فرضها عليها. وفي عام (187هـ = 803م) خُلعت إيرين عن العرش البيزنطي وتولاه نقفور الأول، وقد نقض الصلح مع المسلمين، وطالب الرشيد بإعادة مادفعته إيرين من الجزية، وجاء الرد الإسلامي سريعاً وحاسماً، وهزم نقفور عسكرياً، فالتزم بدفع الجزية، والامتناع عن ترميم الحصون التي هدمها المسلمون، على أن تستمر الهدنه مدة ثلاث سنوات، ثم بعد ذلك نلاحظ أن الرشيد تفرغ لحل المشكلات التي استجدت في خراسان ولم تتهيأ له بعد ذلك ظروف مناسبة لمتابعة نشاطه الجهادي على الجبهة البيزنطية.

ب– العلاقة مع الفرنجة:

انفردت المصادر اللاتينية بذكر الصلة التي ربطت هارون الرشيد بشارلمان ملك الفرنجة، لكنها تبدو مضطربة وغامضة مما يقلل ثقة المؤرخين بها، واستناداً إلى هذه المصادر، فقد ابتدأت العلاقات بين العاهلين في عام 181هـ = 798م، وتبادلا الوفود والهدايا، لكنها لم تسفر عن قيام تحالف سياسي. والراجح وجود نوع من العلاقات التجارية وخاصة على يد التجار اليهود الذين كانوا حلقة الوصل بين المشرق والمغرب وبخاصة أن أساليب التجار آنئذٍ أن يدعوا بأنهم سفراء لتسهل مصالحهم.

ـــ أبو موسى محمد الأمين (193– 198هـ = 809– 813م):

– أسباب النزاع بين الأمين والمأمون:

أ– مشكلة ولاية العهد:

كان الأمين هو البادئ بنقض بنود العهد الذي أخذه والدهم عليهم، فقد حاول بسط نفوذه على ولايات أخويه، ثم قدم ابنه موسى عليهما، مما تسبب في تفجير الوضع. وظل المأمون قابعاً في خرسان لم يبرحها، وخشي الأمين عاقبة هذا الاعتكاف، فكان طبيعياً أن تسوء ظنون الأخوين أحدهما بالآخر.

ب- صراع العنصرين العربي والفارسي:

لقد كان للفضل بن سهل كاتب المأمون ومديره، والذي مثل العنصرية الفارسية في الإدارة العباسية، والفضل بن الربيع الذي مثل التطلعات العربية، دوراً كبيراً في ملامح الدور السياسي، حيث انكشفت نوايا الرجلين بعد وفاة الرشيد وظهر التناقض بينهما في وجهات النظر السياسية، وهكذا اتخذت قضية النزاع بعداً شعوبياً بين العرب والفرس.

جـ - أطماع الحاشية:

شجع الفضل بن سهل المأمون على البقاء في خراسان رافضاً طلب الأمين بعودته إلى بغداد، ساعياً لإيصال صاحبه إلى منصب الخلافة، في حين ساند الفضل بن الربيع وعلي بن يحيى بن هامان الأمين ودفعاه إلى نكث العهد، وهكذا أدى تدخل رجال الحاشية إلى حدوث الصراع بين الأخوين.

- الحرب بين الأخوين:

جرت سفارات ومراسلات متبادلة بين الأخوين حول قضية ولاية العهد والصلاحيات الخاصة بالخلافة، والتي حاول فيها الأمين إثبات أحقية ابنه بالخلافة قبل أخيه ناقضاً للعهد، ثم كان الرفض القاطع من قبل المأمون لذلك بتشجيع من كاتبه الفضل بن سهل، وسير الأمين جيشاً إلى خراسان بقيادة علي بن عيسى بن ماهان الذي اصطدم بجيش المأمون بقيادة طاهر بن الحسين الذي انتصر وقتل علي بن عيسى، وبعد هذا الانتصار بايع الناس في مرو المأمون بالخلافة، وتمكن طاهر بن الحسين من القضاء على جيش الأمين الثاني بقيادة عبد الرحمن بن جبلة الأنصاري في همدان، ودخل جيش المأمون بغداد وتم أسر الأمين ثم خلعه، وتم إعدامه على يد طاهر بن الحسين في 25 حرم 198هـ = 25 أيلول 813م.

ـ أبو جعفر عبد الله المأمون (198- 218هـ = 813 – 833م):

- الأوضاع الداخلية في عهد المأمون:

كان للفضل بن سهل دور كبير في تولي المأمون الخلافة، لذلك نجده يستجيب لطلب وزيره بتعيين أخيه الحسن بن سهل والياً على العراق بدلاً من طاهر بن الحسين، كما عين هرثمة بن أعين والياً على خراسان، وكافأ المأمون وزيره فخلع عليه لقباً

جديداً هو «ذو الرئاستين» أي رئاسة السيف ورئاسة القلم، وهذه خاصية تدل على مدى النفوذ الواسع الذي وصل إليه هذا الرجل الفارسي.

سبب هذا التصرف سخط العناصر العربية، واستاء بنو هاشم من ميل المأمون إلى العلويين حيث لبس الثياب الخضراء شعارهم، وطرح السواد شعار العباسيين، وصاهر علي الرضا الإمام الثامن عند الشيعة الإمامية، واختاره لولاية العهد من بعده سنة 201هـ = 816م، فنشبت الفتن في بغداد، وبايع سكانها إبراهيم بن المهدي عم المأمون الذي اكتفى بحكم مدينة بغداد، وقد حجب الفضل بن سهل أخبار هذه التطورات السياسية السلبية عن المأمون الذي عرفها من علي الرضا، فأدرك خطأ بقائه في خراسان، وأن بغداد لا يمكن أن تعيش بدون خليفة، وقرر العودة، ورأى من خلال تصرفات وزيره أنه كان يخطط لكي يسيطر على الدولة العباسية من داخلها، فتخلص منه عام 202هـ = 818م. ولما وصل إلى طوس توفي علي الرضا فجأة، ولما وصل المأمون بغداد في سنة 203هـ = 819م طرح شعار العلويين وعاد إلى لبس السواد وبايعه الناس.

– **ثورة الزط:** كان جنوب العراق مسرحاً لثورة خطيرة في عهد المأمون، عرفت باسم ثورة الزط، وكلمة الزط هي تعريب للفظ «جت» الفارسي، وهم خليط من الشعوب أقرب إلى الغجر، نزحوا أول أمرهم من شمال غرب الهند، فسكنوا شواطئ الخليج العربي، واستغلوا الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون، فاستولوا على البصرة التي عاثوا فيها فساداً، وقطعوا الاتصالات بين البصرة وبغداد، فأرسل اليهم المأمون عدة حملات عسكرية لقمعهم، إلا أنه لم يتمكن من القضاء عليهم، وظل الزط شوكة في حلق الدولة العباسية إلى أيام المعتصم الذي قضى على حركتهم عام 219هـ = 834م بقيادة «عجيف بن عنبسة».

– **الاضطرابات في مصر:** استغل بعض الزعماء الفتنه بين الأمين والمأمون فقاموا ببعض الحركات الاستقلالية منها حركة السري بن الحكم في عام 206هـ = 821م. كما ثارت القبائل العربية في مصر السفلى في عام 214هـ = 829م بسبب سياسة الولاة التعسفية، ولكن المأمون تصدى لها ونجح في القضاء عليها.

– **حركة بابك الخرمي:** تعد أخطر حركة دينية المظهر، سياسية الهدف، وقد شكلت ذروة التآمر الفارسي المسلح ضد السلطة العربية العباسية، وصادف بابك نجاحاً في الأقاليم الشرقية حيث إنه أباح للناس سائر المحرمات وقطع السبل ونشر الفساد، واتبع سياسة عسكرية قائمة على هدم الحصون وكسرها وتخريبها حتى تضعف دفاعات العباسيين، وقد وجه إليه المأمون عدة حملات عسكرية فشلت في القضاء عليه، وأضحى بابك يشكل قوة خطيرة ضد الدولة.

– **العلاقات الخارجية مع البيزنطيين:**

شهدت الجبهة مع البيزنطيين فترة من الركود بسبب الظروف التي كانت تمر بها الخلافة، ولكن الملاحظ تعاون البيزنطيين مع بابك الخرمي في تنفيذ هجمات على الأراضي الإسلامية وبخاصة مدينة زبطرة، وفي المقابل تعاون المأمون مع الثائر البيزنطي توماس الصقلبي ضد الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن سنة 206هـ = 821م، وتمكن المأمون وابنه العباس من فتح عدة حصون في منطقة كبادوكية، واستردا هرقلة ولؤلؤة.

ـ أبو إسحاق محمد المعتصم (218– 227هـ = 833– 841م):

تولى أبو إسحاق المعتصم بالله مصر والشام في عهد أخيه المأمون، فأظهر من ضروب الشجاعة وقوة الشكيمة ما جعله موضع ثقة أخيه فولاه عهده، وقد رفض غالبية الجند في أول الأمر مبايعة المعتصم بالخلافة، وأرادوا تولية العباس بن المأمون، لكن العباس أسرع إلى مبايعة عمه بالخلافة احتراماً لوصية أبيه، فحذا الجيش حذوه.

– الأوضاع الداخلية في عهد المعتصم:

يعد حكم المعتصم حكماً استبدادياً مقروناً بشيء من العطف وحسن التدبير. اتصف بالشجاعة والإقدام، ولم تكن سياسته تجاه العلويين أقل شدة من سياسة من سبقه من الخلفاء باستثناء المأمون. خرج في عهده محمد بن القاسم بن علي الزيدي في عام (219هـ = 834م) في مدينة الطالقان بخراسان، وقضى المعتصم على حركة الزط، وقضى على حركة بابك الخرمي بعد عدة حملات عسكرية وجهها إلى مناطق نفوذه، وجيء ببابك إلى سامراء عام 223هـ = 838م ومعه أخاه عبد الله، فقتلهما المعتصم.

– المعتصم وظهور العنصر التركي:

في ظل الصراع العنيف بين العرب والفرس، نجد أن الخليفة لم يركن إلى العنصر العربي، ولم يثق بالعرب نظراً لكثرة تقلبهم، وقيامهم ضد الخلفاء، كما أن هؤلاء فقدوا كثيراً من مقومات قوتهم السياسية والعسكرية، كما ضعفت ثقه المعتصم بالفرس بعد استحالة التوفيق بين تطلعاتهم ومصالح العباسيين. حملت هذه المعطيات الخليفة المعتصم على أن يوكل أمر سلامته الشخصية إلى فرقة من العنصر التركي، جلبهم من أقاليم بلاد ما وراء النهر، إما عن طريق النخاسة أو عن طريق الأسر في الحروب، ومكن لهم في الأرض وخصهم بالنفوذ، وقلدهم قيادة الجيوش، وجعل لهم مركزاً متقدماً في مجال السياسية، وسمح لهم ركوب الخيل في شوارع بغداد مما أدى إلى اصطدامهم بالناس، فأثار ذلك مشاجرات بينهم وبين أهلها، ولماشكا أهل بغداد إلى المعتصم عنت الأتراك وعنفهم، قام ببناء مدينة خاصة بالأتراك على بعد ستين ميلاً من بغداد عرفت باسم «سر من رأى» ولما خربت سميت «ساء من رأى»، ثم اختصرت إلى «سامراء».

– المعتصم والمعتزلة:

اتبع المعتصم وصية أخيه المأمون في حمل الناس على القول بخلق القرآن، ولأنه كان محدود الثقافة، ضعيف الكتابة، كره العلم منذ صغره، ولم تعقد مجالس المناظرة في عهده، كما كانت تعقد في عهد أخيه المأمون، ولكنه حرص على سياسة القول بخلق القرآن والامتحان به، لا عن اقتناع وتفكير، وإنما تنفيذاً لوصية المأمون التي جاء فيها: «وخذ بسيرة أخيك في القرآن»، وقام المعتصم بجلد الإمام أحمد بن حنبل لإقناعه بالقول بخلق القرآن ثمانية وثلاثين سوطاً حتى سال منه الدم، وتعددت جراحه، بعدما كان استحضره من سجنه الذي ظل محبوساً فيه منذ وفاة المأمون، وأدخله في حضرته ليناظر مجموعة علماء، وعلى مر ثلاثة أيام متواصلة، فشلوا في إقناعه، الأمر الذي جعل المعتصم يأمر بضربه، ثم أرسل إلى السجن.

– العلاقات الخارجية مع البيزنطيين:

في السنوات الأولى لخلافة المعتصم شهدت المناطق الحدودية هدوءاً شبه تام، لانشغال الخليفة بالقضاء على ثورة بابك الخرمي، وانصراف الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل إلى التخطيط لاستعادة جزيرة صقلية من المسلمين، ثم استؤنفت العمليات العسكرية بعد أربع سنوات لأن ثيوفيل أراد التعاون مع بابك الخرمي ضد العباسيين، لذلك أغار على منطقة الفرات ليؤمن اتصالاً مع بابك في أرمينيه وأذربيجان، واستولى في طريقه على زبطرة، مسقط رأس والدة الخليفة، وأسر من فيها من المسلمين، ومثل بهم، وسبى المسلمات، كما هاجم سمسياط وملطيه وأحرقهما.

بعد أن أخمد المعتصم ثورة بابك، جهز جيشاً كبيراً وأراد الثأر لزبطرة وأهلها متوجهاً إلى عمورية مسقط رأس أسرة الإمبراطور ثيوفيل في وسط آسية الصغرى، ودخل المنطقة من ثلاثة محاور، ومنيت القوات البيزنطية بهزيمة نكراء، وتراجع ثيوفيل إلى نهر هاليس، وحاصرت القوات الإسلامية عمورية ودخلتها في شهر رمضان عام 223هـ = 838م ودمرت أسوارها، وأمر بالمقابل بترميم زبطرة وتحصينها، ثم تقررت الهدنة بين الجانبين وتوفي كل من المعتصم وثيوفيل في العام نفسه.

العصر العباسي الثاني

عصر النفوذ التركي

232– 334هـ = 847– 946م

– طبيعة العصر العباسي الثاني:

ابتدأ هذا العصر بخلافة المتوكل وانتهى بخلافة المستكفي، وتميز بضعف الخلافة وسقوط هيبتها شيئاً فشيئاً حتى تجرأ أمراء الأطراف على الانفصال عنها، وانتقلت الدولة من المركزية إلى اللامركزية في نظام الحكم، وقامت دول انفصالية مستقلة استقلالاً تاماً أو جزئياً مع الاعتراف بسلطان الخلافة الروحي، ومن مظاهر اعتراف الدول الانفصالية بسلطة الخليفة الدينية،

الدعوة للخليفة على المنابر، وضرب اسم الخليفة على النقود قبل اسم الأمير المستقل، وإرسال قسم من الخراج إلى بيت مال الخلافة.

ونلاحظ أن دولة الخلافة العباسية، أثناء قيامها، حملت بذور هذا الانفصال، حين تطلعت الشعوب غير العربية للحصول على مبدأ المساواة التامة مع العرب وفقاً لأحكام الشريعة الإسلامية، بعد أن حرمت منه في مراحل سابقة، وعملت الخلافة العباسية على تنفيذ هذا المطلب مما أدى إلى تقوية الروح الشعوبية لدى الشعوب غير العربية، ودفعها إلى إقامة دول انفصالية عنصرية، لكنها حافظت في الوقت نفسه على الولاء لمنصب الخلافة، واعترفت بسلطان الخليفة الروحي، وعليه، فإن مطالبة هذه الشعوب بتطبيق مبدأ المساواة، كان يخفي وراءه هدفا سياسياً.

وكان لأسلوب الحكم في الولايات النائية دور في تغليب نزعة الانفصال، فقد عمد خلفاء بني العباس، خاصة في عهد تصاعد نفوذ الأتراك، إلى تعيين بعض قادتهم حكاماً على هذه الأقاليم، وأهملوا في الوقت نفسه مراقبتهم ومحاسبتهم، وبحكم الأوضاع الفوضوية السائدة في الإدارة المركزية، عمد هؤلاء إلى تعيين نواب عنهم لإدارة الأقاليم باسمهم فيما حافظوا على وجودهم في العاصمة، يشاركون في رسم السياسة العليا للدولة، ويشتركون في المؤامرات، وينعمون بحياة البلاط، وأحكم الأتراك قبضتهم على أجهزة الدولة، ومنذ عهد المتوكل بدأ الانحلال يتسرب إلى جسمها بفعل ازدياد نفوذهم، وتقلصت نتيجة لذلك رقعة الدولة، واقتصر حكم الخلفاء على العراق وبعض مناطق فارس والأحواز، وتولت الدول الانفصالية مسؤولية الدفاع عن العالم الإسلامي كل من ناحيتها، إلا أن الخلافة استعادت قدراً كبيراً في سلطتها بين عامي (256-295هـ = 870-908م).

وتشمل عهود الخلفاء: المعتمد والمعتضد، والمكتفي الذي تمكن بعد قتال طويل من قتل زعيم القرامطة زكرويه سنة 294هـ = 909م.

وقد أطلق على هذه المرحلة اسم «صحوة الخلافة».

وأهم ما حدث في هذا الدور:

- ثورة الزنج:

الزنج طائفة من العبيد الأفارقة، كلفوا بالأعمال الشاقة في إصلاح الأراضي الزراعية جنوبي العراق، دون أن يتقاضوا أجراً سوى قليل من التمر والدقيق يقتاتون به، وسط هذه الأوضاع ظهر رجل فارسي الأصل يقال له علي بن محمد ادعى نسباً علوياً على أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي ابن أبي طالب، اشتهر بفصاحته وبلاغته ونبله استطاع أن يستميل قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها حينما قال بأن ساعة القضاء على الرق والعبودية قد حانت.

فاجتمع إليه منهم خلق كثيرون، حتى عظم شأنه وقويت شوكته وصار له عز بعد فاقة، حينما غزا أصحابه المدن ينهبون ويشيعون الذعر في قلوب الأهالي فأثرى بسببها وعظم حاله ونهبه.

وكان علي بن محمد شخصية محيرة فعلاً، حيث يلاقي الباحث صعوبات جمة في معرفة نسبه، وذلك بفعل تقلباته السريعة، تبعاً للظروف التي كان يمر فيها، واتصف بأنه رجل طموح وموهوب جداً وبعيد عن الزهد لأنه شارك في السلب والنهب، ويبدو أن حياته غير طبيعية، فقد بدأها كشاعر في بلاط الخليفة بسامراء، ثم حاول القيام بحركة ضد النظام في البحرين للوصول إلى الحكم، إلا أنه أخفق في تحقيق مبتغاه، ثم ادعى نسباً علوياً محاولاً أن يستثمر ما للشيعة من عطف وتأييد بين الناس، وقام أتباعه بتقديسه حتى أنهم حملوا له الخراج، وقد استغل الأوضاع الداخلية السياسية والاجتماعية في البصرة وحالة العبيد البائسة، فرصة لتحقيق طموحاته، وفي عام 255هـ = 869م تزعم حركة ثورية، مدعياً أن الله أرسله لتحرير العبيد وإنقاذهم مما كانوا يعانونه من بؤس، كما ادعى العلم بالغيب.

والواقع أن فكرة المهدي المنتظر قد رافقت علي بن محمد في جميع مراحل حياته السياسية، فاستغلها بذكاء، وهو بادعائه المهدوية، كان يضرب على وتر حساس في نفوذ جماعة العلويين الذين برح بهم الشقاء، فكانوا يأملون ظهور مهدي منقذ يزيل عنهم الغمة، ويفرج عن أيامهم كربتها، ويبدو التناقض في عقيدة هذه الحركة، حيث نجد أن علي بن محمد أعلن أن ثورته قامت لأجل العدالة الاجتماعية والمساواة، ولكنه في الوقت نفسه وعد أتباعه بأنه سيملكهم المنازل والعبيد، وهذا يعني تحويل حياة الزنج من أرقاء إلى ملاكين للعبيد، إن هذا التناقض جعل هذه الثورة حركة مسلحة ضد النظام لا غير، كما جعل من قائدها رجلاً مغامراً طموحاً إلى السلطة، مما حد من اندفاعها لدرجة كبيرة و حصرها في فئة من الزنج، وأبعد عنها تدريجياً الفئات الأخرى التي شاركت فيها.

وما زال الزنج يلتفون حول علي بن محمد وهو يخطب بهم، ويعيد إلى أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت، ومناهم الأماني الطيبة، واتخذ من مدينة المختارة، التي بناها جنوب شرق البصرة، كقاعدة للانطلاق.

وقد برهن على أنه قائد مقتدر، إذ تميزت حملاته بكفاءة استطلاعية، فتوفرت له دائماً المعلومات عن تحركات جيوش الخلافة، وأعطته السياسة القتالية التي اتبعها، والقائمة على نصب الكمائن، التفوق على قوات الخليفة، فدخل البصرة عام 257هـ = 871م، وقتل سكانها وأحرقها.

كانت الخلافة آنذاك منهمكة في حرب يعقوب بن الليث الصفار مما أعطى علي بن محمد فرصة التمادي والتوسع والتدمير، فسيطر خلال عشرة أعوام (255-265هـ = 869-879م) على رقعة واسعة تمتد بين الأحوار و واسط، وباتت بغداد مهددة، عندئذٍ عهد الخليفة المعتمد إلى أخيه أبي أحمد الموفق طلحة، بمحاربة الزنج، فتولى هذا القائد قيادة العمليات

العسكرية بنفسه، واستعمل كل ما لديه من إمكانيات سياسية واقتصادية وعسكرية ليكفل النجاح، فحاصرهم اقتصادياً ليضعف قدراتهم، فأحرق غلالهم ومؤنهم، وقطع التموين عنهم الذي كان يقدمه الأعراب لهم، فغطهم الجوع، وخارت قواهم، فاستسلمت أعداد كبيرة منهم، ومن حيث الصدمات العسكرية، فقد تمكن الموفق من إجلائهم عن الأحواز، وفتح مدينتهم المختارة، ثم توالت هزائمهم وسقوط مواقعهم الأخرى حتى تم النصر النهائي عليهم عام (270هـ = 883م)، وقُتل علي بن محمد إبان المعارك واستسلم من بقي من أتباعه، وبإخماد الثورة أسدل الستار على هذه الحركة التي أقضت مضاجع الخلافة العباسية، وكلفتها الكثير من الجهد والأموال والأرواح، والتي دامت أكثر من أربعة عشر عاماً (255-270هـ = 869-883م).

نلاحظ أن هذه الحركة رغم نجاحاتها الأولية أصابها الضعف لافتقارها إلى برنامج ثوري يصوغ تطلعات وأهداف القائمين بها، ويوضح العلاقة بين القيادة والأتباع، كما يلاحظ أن رجالها استهدفوا الانتقام لا الإصلاح، والانقلاب الاجتماعي لا التقويم، وأن قائدها لم يستطع أن يحرر نفسه من مسألة فكرة الزعامة القرشية، بالإضافة إلى أن أطرها الثورية كانت محلية ومحدودة و لم تكن لديها تطلعات شاملة، وندرك من هنا عدم نجاح علي بن محمد في اكتساب قطاعات كبيرة من المجتمع العراقي، كالفلاحين وكبار الملاك والتجار والحرفيين، وحتى القرامطة، فأصبح العبيد بمفردهم ضعفاء رغم عددهم الكبير، ومن جهة ثانية، فإن سرعة الأحداث، وتصميم العباسيين على القضاء عليها، لم يعطيا قائدها حملة لتنظيم صفوف قواته، وتمكنه من بناء مجتمع مستقر ذي أنظمة خاصة، لذلك كان من الطبيعي أن تفقد هذه الحركة طابعها الإنساني والثوري مما دفعها إلى نهايتها المحتومة، لكن قاعدتها الثورية التي تشتتت استطاعت أن تكون إحدى الدعائم الأساسية التي دفعت الحركة القرمطية إلى الظهور فيما بعد.

العصر العباسي الثالث

عصر النفوذ البويهي

334- 447هـ = 946- 1055م

يعد العصر العباسي الثالث ردة فعل مناهضة للنفوذ التركي الذي تمكن من السيطرة على مقدرات الخلافة العباسية في العصر العباسي الثاني. أما العصر البويهي فيمثل حركة فارسية شيعية زيدية لإعادة الاعتبار الذي تراجع خلال القرن الثالث الهجري، واختلف هذا العصر في مظاهره عن العصر العباسي الثاني من حيث التركيز على المشرق.

يرجع نسب البويهيين إلى زعيم فارسي اسمه بويه، عاش في إقليم الديلم إلى الجنوب الغربي من بحر قزوين. وقد بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث، عندما دخل علي بن بويه وأخواه الحسن وأحمد في خدمة مرداويج بن زيار مؤسس الدولة

الزيارية الانفصالية في طبرستان عام 316هـ = 927م، وكانت دولته تشمل جرجان وطبرستان وقزوين وزنجان والكرج. وقد ولى مرداويج علي بن بويه بلاد الكرج، وهكذا هاجرت هذه الأسرة من الشمال من بلاد الديلم المنطقة المجاورة لبحر قزوين، واشتهرت على يد الأخ الأكبر من الأخوة البويهين الثلاثة، وهو علي بن شجاع بن بويه، ويبدو أن علياً كانت تراوده نزعات تتعدى الاستقلالية إلى التوسع على حساب جيرانه بالإضافة إلى الطموح السياسي الذي تحقق له سريعاً، حيث ما لبث أن أصبح صاحب شوكة في هذه النواحي، واستمال الناس بحسن سياسته، وتمكن بفضل مقدرته العسكرية، والإدارية، وكرمه، وحسن معاملته لأتباعه، من بناء جيش قوي، انتزع به معظم بلاد فارس، خلال فترة قصيرة، واتخذ مدينة شيراز قاعدة لحكمه، كان علي يستولي على هذه البلاد باسم الخليفة العباسي ظاهراً، لكنه في باطن الأمر كان يهدف إلى إقامة دولة خاصة به مستغلاً ضعف الخلافة السياسي والعسكري وعجزها عن التدخل في هذه المناطق لترتيب أوضاعها، ثم أرسل إلى الخليفة الراضي يطلب منه الاعتراف بسلطانه وهذا طبيعي، فقد كان عليه أن يأمن جانب الخلافة لأنه سيطر على إحدى ولاياتها رغم إرادتها، فأراد أن يكسب حكمه صفة شرعية، وقد تم له ما أراد.

ثم التفت إلى مرداويج الذي كان قد غضب منه بسبب ضمه همذان وأصفهان وغيرها من الأقاليم في بلاد فارس الأمر الذي جعل الأمير مرداويج يخافه، فقرر طرده من بلاد الكرج، وأرسل جيشاً كبيراً لطرده منها، فتنقل علي بن بويه حوالي سنة 322هـ = 934م بين أصفهان واصطخر وشيراز، وأخيراً رأى ابن بويه أن من مصلحته أن يسترضي الأمير مرداويج بإقامة الخطبة له، وتقديم الهدايا الثمينة، كما أرسل أخاه الحسن ليكون رهينة عند مرداويج، فلاقى هذا الأسلوب استحساناً لدى الأخير فأضاف إليه أرجان بعد أن ثبته على بلاد الكرج، أما فيما يتعلق بالعلاقة بينه وبين الخلافة العباسية، في هذه الفترة، فقد تحددت بمقتضى التقليد الذي أرسله الخليفة، لكن الخلافة حاولت أن تستعيد هيبتها، فأرسلت جيشاً بلغ مشارف فارس، لكنه رد على أعقابه بعد وقعة أرجان في عام (323هـ = 935م)، وثبت علي بن بويه أقدامه في المنطقة، وأقام دولته فيها، ويبدو أن الظروف السياسية كانت تعمل لمصلحة البويهيين، ففي عام (323هـ = 935م) قتل مرداويج، فاستفاد علي من هذه الفرصة، وسيطر على بلاد الجبل التي كانت تحت سيطرة وشمكير الزياري شقيق مرداويج. وأرسل أخاه حسن، الذي فر بعد مقتل مرداويج، إلى عراق العجم، فسيطر على أصفهان والري وهمذان والكرج وبقية بلاد العراق العجمي، واتخذ أبا الفضل بن العميد وزيراً له.

تطلع علي بن بويه بعد ذلك إلى تأمين حدود الأقاليم التي استولى عليها وتطلبت سياسته الاستيلاء على كرمان والأحواز قبل الدخول إلى العراق الذي كان محط أنظاره، على اعتبار أن هذين الإقليمين يشكلان ممراً طبيعياً لأي غزو محتمل لإقليم فارس من ناحية الشرق أو من ناحية الشمال، لذلك أرسل أخاه أحمد على رأس قوة عسكرية، فاستولى على كرمان في عام 324هـ = 936م بعد معركة القنطرة، وأضافها إلى أملاك آل بويه، ثم سيطر على الأحواز. لم تقف الخلافة العباسية مكتوفة اليدين إزاء هذه التطورات السياسية والعسكرية لذلك انتهزت فرصة هذا الصراع البويهي – الزياري وحاولت استعادة

الأحواز، فأرسلت قوات بقيادة بجكم لاستردادها وطرد البويهيين منها، ووقف هذا عند حدود الأحواز القريبة من العراق منتهزاً الفرصة للتدخل. لكن القائد العباسي اضطر إلى التراجع تحت ضغط الأحداث العسكرية بعدما مالت كفة البويهيين للرجحان. وأضحت الأحواز نتيجة ذلك في يد آل بويه الذين ضموها إلى أملاكهم، نتيجة لهذه التطورات، تم لبني بويه توسيع قاعدتهم بما يتماشى مع تطلعاتهم التوسعية وأضحى نزولهم من الأحواز إلى العراق أمراً ميسوراً، فراحوا يراقبون الأحداث في عاصمة الخلافة، حتى تسنح لهم الفرصة لدخولها.

أما بالنسبة للأوضاع في العراق فكانت الحالة مضطربة نتيجة اشتداد الخلافات بين ابن رائق والي البصرة وأمير الأمراء من جهة، وبين أبي عبد الله البريدي والي الأحواز السابق والفار من وجه قوات الخلافة من جهة ثانية، وقد التجأ إلى علي بن بويه وأطمعه في دخول العراق. ومن جهة أخرى، كانت الخلافة واقعة تحت نفوذ الأتراك، وظهر عجزها في إقرار الأمور في العراق، فشعر الناس بهذا الفراغ السياسي، وبفشل أمراء الأمراء، كما اختلت المالية العامة في الدولة، وفرغت خزائن الخلافة، ووقع الخلفاء في ضائقة مالية شديدة نتيجة لتحكم الأتراك وجشعهم.

ولذلك تطلع الناس إلى هذه القوة الجديدة التي ظهرت بالقرب منهم وأثبتت جدارتها، لتنشلهم من الفوضى، كما تطلع بعض القادة المغلوب على أمرهم إلى قوة البويهيين النامية، آملين أن يحصلوا بواسطتها على الامتيازات التي حرموا منها أو أبعدوا عنها، وأخيراً مال الخليفة المتقي لطلب المساعدة من البويهيين لوضع حد للنزاعات الداخلية بين الأمراء، خاصة بعدما ساءت العلاقات بينه وبين توزون، وفعلاً دعا الخليفة أحمد بن بويه وطلب منه دخول بغداد، كما كاتبه بعض القادة للغاية نفسها، فسار إليها في عام (332هـ = 944م) ودخلها في عام (334هـ = 945م) بعدما خرج الأتراك منها، واستقبله الخليفة المستكفي واحتفى به وخلع عليه، وعينه أميراً للأمراء، ولقبه معز الدولة، ولقب أخاه علياً عماد الدولة، كما لقب أخاه حسن ركن الدولة، ومن ثم أضحت هذه الألقاب الفخمة والتسمية المألوفة للأمراء البويهيين، وهكذا أسس البويهيون في فارس والعراق والأحواز وكرمان والري وهمذان وأصفهان إمارات وراثية دامت حتى عام (447هـ = 1055م)، وقد أدى نظام الوراثة هذا إلى إيجاد نوع من الاستقرار السياسي في دولة الخلافة العباسية، سيطر البويهيون أثناءها على مقاليد الأمور، وتصرفوا بشكل مطلق، لكن هذا الاستقرار كانت تشوبه بعض الاضطرابات الناتجة عن النزاعات المذهبية بفعل تشيع الأسرة البويهية.

العصر العباسي الرابع

عصر النفوذ السلجوقي وسقوط الخلافة العباسية

ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي تجاذبت فيه السيادة على منطقة المشرق الإسلامي خلافتان؛ أولاهما الخلافة العباسية السنية، والثانية الخلافة الفاطمية الشيعية. وقد أصابهما الضعف واعتراهما الانحلال

بسبب تسلط بني بويه على الخلفاء العباسيين وازدياد نفوذ الوزراء بعد خلافة الحاكم بأمر الله الفاطمي. وأحدث ظهور السلاجقة الأتراك في هذه الفترة تغييراً في موازين القوى بالمنطقة.

1- قيام الدولة السلجوقية:

بزغ عصر جديد في تاريخ الخلافة والإسلام، عندما ظهر السلاجقة في الشرق في مطلع القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، كان الخليفة لا يتمتع بشيء من سلطة الخلافة الحقيقية وكانت دولة الخلافة العباسية قد تمزقت، فالأمويون قد استتب أمرهم في الأندلس، وكذلك الفاطميون في مصر و شمال إفريقية، و لم يعد لبغداد من سبيل إلا القضاء على شوكة هؤلاء جميعاً. وعمت الفوضى السياسية والعسكرية جميع الأنحاء. وتفاقم الخطاب المذهبي البغيض بين السنة والشيعة بحيث خُيل للناظر أن دولة الإسلام في طور النزع الأخير. تلك كانت حال الخلافة الإسلامية حين ظهرت على مسرحها السياسي، وعلى أنقاض أسلافهم البويهيين «الإمارة السلجوقية».

ينحدر السلاجقة من قبيلة قنق الغزية التركية، وينتسبون إلى جدهم سلجوق بن دقاق، وكانت منازلهم في الصحراء الواسعة والسهوب الممتدة من الصين حتى شواطئ بحر الخزر، اعتنقوا المذهب السني ونصروه بغيرة وحماسة. وفي عام (375هـ = 985م) نزحوا من موطنهم الأصلي إلى بلاد ما وراء النهر وخراسان بسبب الظروف الاقتصادية السيئة في هذه المناطق الصحراوية، أو بسبب الحروب التي كانت تدور بين هذه القبائل المختلفة، فاصطدموا بالغزنويين الذين كانوا يسيطرون على المنطقة، وطردوهم منها بعد سلسلة من الاصطدامات، وأسس السلطان السلجوقي طغرلبك دولة في خراسان في عام (431هـ = 1040م) على أثر انتصاره على السطان مسعود الغزنوي في معرة داندانقان واعترف الخليفة العباسي القائم به سلطاناً في العام التالي، واصل السلاجقة سياستهم التوسعية في فارس ضمن دائرة اعتراف الخلافة العباسية، بهدف القضاء على قوة البويهيين، تمهيداً لمد نفوذهم إلى العراق، فاستولوا على الري في عام 432هـ = 1041م ودخلوا في العام التالي جرجان وطبرستان واستولى السلطان طغرلبك في عام 442هـ = 1050م على أصفهان واتخذها عاصمة له، ثم ضم بعد أربع سنوات إقليم أذربيجان، وهكذا قامت دولة السلاجقة العظام في خراسان وفارس وأضحت جيوشهم على أهبة الاستعداد لدخول العراق.

المرحلة الأخيرة من حكم دولة الخلافة العباسية

590-656هـ = 1194-1258م

- الدولة الأتابكية - الشاهات - المغول:

بسبب الضعف الذي أصاب السلاجقة، برزت في أواخر عهدهم ظاهرة قيام دول منفصلة على حسابهم، دارت في فلك دولة الخلافة العباسية، عرفت بالدول الأتابكية، والكلمة تركية: (أتا: أب، بك: أمير) فيأخذ معنى «الأب الأمير»؛ وهو مصطلح أطلق على الرجل الذي يقوم بالإشراف على تربية ابن السلطان.

نشأ الأتابكة في البلاط السلجوقي نتيجة للنظام الذي استحدثه السلاجقة القائم على شراء المماليك الأتراك الذين يتم جلبهم من بلاد القبجاق أو القفجاق، وهو إقليم بحوض نهر الفولغا بالجنوب الشرقي من روسيا وشمال البحر الأسود والقوقاز، ويتم إدخالهم في خدمة القصور السلطانية، خاصة فيما يتعلق بتربية أبنائهم، بالإضافة إلى تولي الوظائف العامة، وترقى هؤلاء في المناصب الإدارية والعسكرية حتى وصلوا إلى المناصب القيادية واتخذوا من نشوب النزاعات داخل البيت السلجوقي بعد وفاة السلطان ملكشاه الأول فرصة لفرض سيطرتهم على المناطق التي تحت حكمهم، وتسابقوا في توسعة رقعتها كل على حساب الآخر، وبذلك نشأ نزاع أتابكي سار في خط مواز للنزاع السلجوقي الداخلي.

وأشهر هذه الأتابكيات: حصن كيفا وماردين ودمشق ودانشمند والموصل والجزيرة وأذربيجان وفارس.

ويعد من أشهر الأتابكة، في بداية القرن الثاني عشر، الأمير عماد الدين زنكي مؤسس أتابكية الموصل والشام وديار ربيعة ومصر – في الجزيرة الفراتية – وهو ابن قسيم الدولة آق سنقر الحاجب عند السلطان ملكشاه، وبفضل عماد الدين وابنه نور الدين زنكي انتقلت النظم السلجوقية إلى مصر، فتمثلت في الدولتين الأيوبية والمماليك، بظهور صلاح الدين الأيوبي فيها نائباً عن الزنكيين.

وقامت إلى جانب الأتابيكات دول أخرى، نتيجة تولية السلاطين السلاجقة نواباً لهم في الأقاليم التي كانت تحت حكمهم، فاستأثر هؤلاء النواب بحكم هذه الأقاليم وأورثوها أبناءهم، وقد تلقبوا بـــ«الشاهات» وأشهر هؤلاء الشاهات: شاهات خوارزم وشاهات أرمينيا.

وهكذا ورثت الدول الأتابكية وشاهات خوارزم أملاك السلاجقة، حيث نلاحظ أن دولة السلاجقة انقرضت بخراسان وبلاد الري والجبل وما وراء النهر على أيدي ملوك خوارزم: أتسز، وتكش وعلاء الدين الذي كان يمتلك آلاف المماليك. لكن هذه الدولة الخوارزمية انتهت على أيدي المغول سنة 628هـ = 1231م في عهد جلال الدين خوارزمشاه، ومن أصل هؤلاء المماليك قامت دولة المماليك الأولى في مصر.

وهكذا نجد أن ضعف السلاجقة مهد السبيل لقيام مرحلة استقل فيها الخلفاء العباسيون، واستردوا ما كان لهم من سلطات، كما أتاح هذا الضعف والانقسام للغرب الأوربي الفرصة لشن الحروب الصليبية ضد البلاد الإسلامية من جهة، ودفع المغول لاجتياح العالم الإسلامي في أقاليم بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق من جهة ثانية، فدمروا بغداد وقضوا على دولة

الخلافة العباسية. ولما كان سقوط هذه الدولة قد تم على أيدي هؤلاء المغول، فلا بد من أن نلم إلمامة وجيزة بتاريخ هذا الشعب قبل أن نتحدث عن ظروف سقوط دولة الخلافة العباسية.

– نشأة المغول:

الواقع أن ظروف خروج المغول من موطنهم الأصلي في جوف آسيا باتجاه العالم الإسلامي له علاقة بالمدى الذي وصلت إليه العلاقات بينم وبين الدولة الخوارزمية.

فما أن انبثق فجر القرن السابع الهجري حتى شهد العالم الإسلامي اندفاع الجيوش المغولية الجرارة من شمالي شرقي آسيا على دفعات متقاربة ومتباعدة، وكان لها أثرها القريب والبعيد من النواحي السياسية والاقتصادية والدينية والثقافية.

لم يكن المغول إلا مجموعة من القبائل الرحل، نشأت في الهضبة المعروفة باسم هضبة منغوليا شمالي صحراء جوبي، وعاشت على روافد نهر آمور، وسيطرت على الأراضي الواقعة بين بحيرة بايكال في الغرب وجبال كانكان على حدود منشوريا في الشرق، وقد نبغ من بين أفراد المغول تيموجين الذي اختارته القبائل المغولية زعيماً عليها، واتخذ اسم جنكيزخان أي قاهر العالم، وقد أنشأ إمبراطورية مترامية الأطراف امتدت من بلاد الصين شرقاً حتى حدود العراق وبحر الخزر وبلاد الروس غرباً وبلاد الهند جنوباً.

– ظروف توسع المغول باتجاه العالم الإسلامي:

وهكذا حل الخوارزميون محل السلاجقة في حكم المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، في بلاد ما وراء النهر وخراسان وإيران، وراح زعماؤهم يتدخلون في شؤون الخلافة العباسية حتى عزموا الاستيلاء على بغداد، فقد طمع علاء الدين محمد خوارزمشاه الذي خلف أباه تكش في تحقيق هذه الرغبة، وانتزاع السلطة من يد الخليفة العباسي الناصر. إلا أنه اضطر إلى التراجع تحت الضغط المغولي الذي أخذ يجتاح بلاده، بالإضافة إلى مضايقة الأمراء له. ويبدو أن الكارثة على الخوارزميين كانت آتية، لكن سببها المباشر يعود إلى إحدى هذه البعثات التجارية، حين أرسل جنكيزخان قافلة تجارية إلى غربي آسيا للتجارة في الأسواق الخوارزمية، ولما وصلت إلى مدينة آوترار الواقعة على نهر سيحون أجهز آينال خان، حاكم المدينة، عليها وقتل جميع أفرادها وسلب البضاعة، لم يكن بوسع جنكيزخان أن يتغاضى عن هذه الإثارة خاصة بعد أن رفض السلطان طلباً له بتسليمه حاكم آوترار، فجهز جيشاً جراراً وهاجم الأراضي الخوارزمية، فسيطر على إقليم ما وراء النهر في عام 617هـ = 1220م وقام بمطاردة علاء الدين خوارزمشاه الذي توفي في إحدى جزر بحر قزوين في عام 618هـ = 1221م غادر جنكيزخان الأقاليم الغربية بعد أن ثبت حكم المغول في إقليمي ما وراء النهر وخراسان بشكل نهائي.

– سقوط دولة الخلافة العباسية:

استأنف المغول زحفهم باتجاه مناطق غربي آسيا بعد وفاة جنكيزخان في عام (624هـ = 1227م) ضمن سياسة توسعية، فقد عهد منكوخان، الذي سلم الزعامة المغولية إلى أخيه هولاكو بقيادة حملة على فارس، وأوصاه ببسط السيطرة المغولية على البلاد الممتدة من العراق حتى أقاصي مصر، وحدد له إطار العلاقة مع الخليفة العباسي، بحيث إذا قدم فروض الولاء والطاعة فلا يتعرض له، أما إذا عصى، فعليه أن يتخلص منه حتى لا يشكل وجوده عقبة في طريق الزحف المغولي، هذا وقد وضع هولاكو خطة عسكرية تقضي أولاً بالقضاء على الإسماعيلية في شمال إيران، ثم غزو المناطق الغربية وصولاً إلى مصر في مرحلة ثانية. وبعد أن حقق هدفه الأول انطلق لتحقيق هدفه الثاني.

كانت الأوضاع في بغداد آنذاك، سيئة جداً، فقد اشتهر الخليفة العباسي المستعصم بعدم جديته في إدارة الشؤون العامة. فلم يستعد لمواجهة الزحف المغولي، ظناً منه أن في نفسه القدرة على المكر والصمود أمام خطرهم. كما تعددت مراكز القوى آنذاك في بغداد، واختلفت فيما بينها بفعل عوامل سياسية ومذهبية. ووقف الخليفة عاجزاً عن وضع حد للمشاكل المتفاقمة فترتب على ذلك أن اشتدت حدة الخلافات بين مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير، وكان سني المذهب، وبين مؤيد الدين بن العلقمي، وزير المستعصم، وكان شيعياً، مما كان لها أثرها السيئ في اضطراب الأمور، وتقويض سلطة الخلافة وتعدت الخلافات أهل الحكم لتنتقل إلى العامة من سكان بغداد الذين انقسموا على أنفسهم في تناحر مذهبي، مما دفع الوزير ابن العلقمي إلى مراسلة المغول، وأطمعهم في ملك بغداد، والواقع أنه لم يكن لهذه المراسلات بين الطرفين، ولا للمباحثات التي جرت بينهما في وقت لاحق من أثر كبير في دفع هولاكو أو في ثنيه عن مهاجمة بغداد، لأن الاستيلاء على العراق كان من ضمن سياسة مغولية عامة في هذه الظروف الحرجة، و طلب هولاكو من الخليفة أن يمده بجيش ليعاونه في القضاء على الإسماعيلية في شمال إيران. شاور المستعصم معاونيه، فنصحوه بعدم الإقدام على هذا العمل، لأن هولاكو يريد بهذه الوسيلة إفراغ بغداد من المدافعين عنها حتى يسهل عليه الاستيلاء عليها عندما يهاجمها، وامتنع عن إرسال المدد إلى هولاكو. ولما فرغ الزعيم المغولي من القضاء على الإسماعيلية، أرسل إلى الخليفة رسالة عتاب تتضمن تهديداً ووعيداً لامتناعه عن إرسال المدد المطلوب، والواقع أنه لم يكن هذا الاحتجاج إلا ذريعة للمطالبة بالسلطة الزمنية التي سبق أن منحت في بغداد للأمراء البويهيين ثم للسلاطين السلاجقة، وطلب منه:

- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.
- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه والدوادار.

رد الخليفة بالرفض الذي اتسم بالتهديد والوعيد، ظناً منه أن ذلك سوف يثني هولاكو عن عزمه، ويجعله يفكر ملياً قبل أن يقدم على خطوته.

ويبدو أن الخليفة العباسي كان يأمل في تلقي المساعدة من الأمراء المسلمين، إلا أنه أخطأ في تقديره إذ إن الأيوبيين في بلاد الشام، والمماليك في مصر، الذين عقد آماله عليهم، توافر عندهم من المشاكل ما منعهم من النهوض لمساعدته، و لم يتحرك الأتابكة والترك والفرس لمساندته بفعل ما استبد بهم من الخوف من المغول، أما سلاجقة الروم فقد خضعوا لحكم هؤلاء، وهكذا بدا العالم الإسلامي مفككاً، فلا يعقل أن يهب أمراؤه لنجدة الخليفة الذي لم يكن له سند حقيقي حتى يستطيع أن يقف هذا الموقف المتشدد، فكان لهذا الموقف العباسي الرافض أسوأ الأثر في نفس هولاكو مما دفعه إلى الزحف باتجاه بغداد. وصلت رسل الخليفة إلى هولاكو، فلما اطلع هذا على رسالته وعلم بما لحق برسله من أذى العامة في بغداد استبد به الغضب، فأعاد رسل المستعصم، وحملهم رسالة آخرى تتضمن إنذاراً نهائياً له صيغ في لهجة شديدة، ولما عاد الرسل إلى بغداد، وأدرك الخليفة ما ينطوي عليه الرد المغولي من تهديد ووعيد، عرض الرسالة على كبار رجال دولته مستطلعاً رأيهم، فأشار عليه وزيره ابن العلقمي أن يبذل الأموال والتحف والهدايا، ويرسلها إلى هولاكو مع الاعتذار إليه وأن يجعل الخطبة والسكة باسمه، على النحو الذي كان متبعاً أيام البويهيين والسلاجقة، وقد مال الخليفة إلى قبول هذا الرأي، والأخذ به، لكن مجاهد بن أيبك الدوادار الصغير الذي كان يستند على قوة الجيش، رفض رأي الوزير ابن العلقمي، وأصر على المقاومة، فعدل الخليفة عند ذلك عن رأي الوزير وتبنى خيار المقاومة. وهكذا لم يكن لتبادل الرسائل بين الطرفين من أثر سوى جعل الحرب ضرورة لا بد منها، ولما أيقن هولاكو أن في استطاعته السير إلى العراق دون أن يتعرض للمصاعب، وأن في مقدور قواته الاستيلاء على بغداد، أخذ في تنفيذ خططه الحربية التي وضعها أثناء إقامته في همذان، وأصدر أوامره بأن تتحرك الجيوش المغولية باتجاه عاصمة الخلافة. ولما وصلت إليها في (الثالث عشر من شهر محرم عام 656هـ = كانون الثاني عام 1258م) ضربت حصاراً مركزاً عليها، وأقام هولاكو معسكره في ظاهرة المدينة من ناحية الشرق، ولما رأى الخليفة حرج موقفه أراد أن يهدئ المغول ويثنيهم عن عزمهم على متابعة الهجوم، فأرسل إلى هولاكو الرسل والهدايا، لكن هولاكو رفض الاستجابة لهذا النداء، ونفذ خطة عسكرية، تقضي بإفراغ بغداد من مدافيعها قبل أن يقتحمها جنوده، فأرسل نصير الدين الطوسي إلى الخليفة يأمره بإرسال سليمان شاه والدوادار، فاضطر الخليفة إلى الاستجابة، ولما وصلا إليه، أعادهما إلى بغداد لاصطحاب أتباعهما وأصحابهما بحجة أنهم سينفون إلى الشام ومصر، فخرج معهما جند بغداد وكثير من السكان، فلما خرج هذا الجمع أمر هولاكو بقتلهم جميعاً، فانكشف عندئذٍ موقف الخليفة، ولما رأى أن لا مفر من دخول المغول بغداد مال إلى التسليم، و لم يمض على ذلك يومان حتى خدعه المغول بالوعود الكاذبة. وقد اشترك ابن العلقمي في هذه المؤامرة حين أقنع الخليفة بوجوب الاستسلام، لأنه مهد طريق الصلح، وسوف يأتيه هولاكو والمغول طائعين، وقد ذكر ابن كثير أن الوزير ابن العلقمي كان قد اجتمع بهولاكو مع أهله وأصحابه وحشمه، ثم أشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف الخراج لهولاكو والنصف الآخر للخليفة، وفي يوم الأحد (الرابع من شهر صفر عام 656هـ = شهر شباط عام 1258م) خرج الخليفة من بغداد وسلم نفسه وعاصمته للمغول دون قيد أو شرط، بعد أن وعده هولاكو بالأمان، عندئذٍ دخل الجنود المغول إلى المدينة وعاثوا فيها مدة

أسبوع، فهدموا مساجدها، وجردوا القصور فيها من التحف النادرة، وأتلفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة في مكتباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم فيها، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن. وتعطلت المدارس والربط وأضحت المدينة قاعاً صفصفاً وتكدست الجثث في الطرقات والأزقة. ثم انتشر الوباء فحصد كثيراً ممن كتبت لهم النجاة، وقد انتهت الأحداث بقتل الخليفة المستعصم وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبد الرحمن، وأسر ابنه الأصغر مبارك وأخوته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم، وبسقوط بغداد ومقتل الخليفة العباسي المستعصم انتهت دولة الخلافة العباسية التي عمرت أكثر من خمسة قرون، ويبقى أن نذكر أن هذه الأحداث جعلت منصب الخلافة شاغراً يتطلع إليه كل زعيم طموح، فلما تولى السلطان المملوكي الظاهر بيبرس عرش مصر، بحث عن أحد أفراد الأسرة العباسية ونصبه خليفة في مصر عام (659هـ = 1261م)، والواقع أن السلطان المملوكي هدف إلى إضفاء الصفة الشرعية على حكمه بفضل التقليد الذي حصل عليه من الخليفة، وقد استمر هذا الواقع قائماً في مصر إلى أن ضمها السلطان العثماني سليم الأول في عام (923هـ = 1517م) وأنهى هذه الظاهرة.

وشغل السلاطين العثمانيون منصب الخلافة، فأداروا شؤون العالم الإسلامي من عاصمتهم إستانبول حتى عام (1924م)، حين قاد كمال أتاتورك انقلاباً وأعلن إلغاء منصب الخلافة وقيام الجمهورية التركية.

الدولة الأموية في الأندلس :(138- 428هـ /756-1036م)

اندفعت طلائع الفاتحين المسلمين عبر سواحل أفريقية الشمالية سنة 21هـ = 641م، وبعد سبعة وخمسين عاماً استقرت أقدامهم في برقة وطرابلس وأفريقية (78هـ = 697م)، ثم تابع موسى بن نصير وطارق بن زياد الفتوحات، وعبرت جيوشهم مضيق جبل الزقاق (طارق بعد ذلك) إلى إسبانية وأطاحت بالقوط الغربيين، ثم استطاع المسلمون أن يعبروا جبال البرانس، فاستقر الحكم الإسلامي في معظم الأراضي الإسبانية التي سموها الأندلس، بينما قامت في الشمال الغربي مملكة ليون النصرانية.

وفي السنوات الأولى حكم الأندلس سلسلة من الحكام العرب المسلمين الذين أُرسلوا من المشرق للتوسع من جهة ونشر الإسلام والعربية من جهة أخرى (حوالي 24 والياً خلال 45 سنة)، إلا أن انهيار الحكم الأموي في المشرق أوصل إلى الأندلس سنة 138هـ = 756م عبد الرحمن الأول الذي لُقب فيما بعد باسم (الداخل)، وكان واحداً من الأمويين القلائل الذين نجوا من المذبحة في أعقاب استيلاء العباسيين على الحكم، فأقام إمارة بني أمية المستقلة في الأندلس.

_ فتح الأندلس:

كان فتح إسبانية متصلاً في كثير من جوانبه بسياسة الفتوح في المغرب والأسباب التي دفعت المسلمين إلى عبور المضيق تتصل مباشرة بالظروف السياسية والاجتماعية والدينية التي عاشتها إسبانية قبل الفتح، فمن حيث الظروف السياسية كانت إسبانية تحت حكم القوط الغربيين منذ القرن السادس الميلادي، وعاصمتهم مدينة طليطلة. وشهدت البلاد منذ بداية القرن الثامن الميلادي تدهوراً حاداً بفعل الصراع على العرش بعد وفاة الملك غيطشة عام 89هـ = 708م بين ابنه آخيلا ولذريق أحد قادة الجيش الذي تمكن من اعتلاء العرش بمساعدة النبلاء ورجال الدين، الأمر الذي أدى إلى انقسام حاد في البلاد، وفقدان الوحدة السياسية والنظام معاً مما جعلها أرضاً سهلة للفتح. يضاف إلى هذا العامل السياسي، عامل جغرافي يتمثل بالجمع بين شاطئي المضيق من حيث البيئة لأن إسبانية أكثر انفتاحاً على المغرب.

ومن حيث الظروف الاجتماعية؛ فقد كانت غاية في السوء بفعل انقسام المجتمع الإسباني إلى طبقات، واستغلال الطبقة الأعلى للطبقة الأدنى منها، وفقد الانسجام بين هذه الطبقات مما أوجد تنافراً بينهما، وفشلت الطبقة الحاكمة في خلق مجتمع متجانس وطني الانتماء.

واستغل رجال الدين مركزهم الديني المتميز فاستمتعوا بقسط وافر من النفوذ والسلطان، وأثقلت الطبقة الوسطى بالضرائب، وارتبطت الطبقة الدنيا من المزارعين والعبيد بالأرض. ووجدت في المجتمع الإسباني طائفة من اليهود عمل أفرادها في الصيرفة والشؤون المالية، إلا أن أفرادها كانوا مكروهين بسبب اختلاف عقيدتهم وتقاضيهم الربا الفاحش.

ومن حيث الظروف الدينية؛ كان الشعب الإسباني، باستثناء اليهود، يدين بالنصرانية على المذهب الكاثوليكي الذي فرضه رجال الدين، وحرّموا انتشار أي مذهب آخر.

لقد كان الفتح الإسلامي لإسبانية نتيجة خطة مدروسة، فأرسل موسى بن نصير عام 91هـ = 710م أحد رجاله، ويدعى طريفاً بن مالك المعافري، على رأس قوة عسكرية إلى ساحل إسبانية الجنوبي في مهمة استطلاعية، فأقنعته هذه الحملة بضعف وسائل الدفاع الإسباني، وقد شجع نجاح طريف موسى بن نصير فأرسل عام 92هـ = 711م قوة عسكرية بقيادة طارق بن زياد نائبه على طنجة، قوامها سبعة آلاف مقاتل، فعبر طارق المضيق وسيطر على الجبل الذي حمل اسمه منذ ذلك الوقت، ثم تقدم باتجاه الغرب حتى بلغ بحيرة خنده جنوبي غربي إسبانية، والتقى بالجيش الإسباني بمعركة عند وادي لكه من العام نفسه، أسفرت عن انتصار المسلمين، فتوغلوا في البلاد وفتحوا قرطبة وطليطلة في أوائل عام (93هـ = 712م) وشذونة والبيرة وغيرها من المدن.

ثم قدم موسى بن نصير وفتح مدناً أخرى مثل قرمونة وإشبيلية وصالحته ماردة، وامتدت فتوحه إلى برشلونة شرقاً وأربونا في الجوف وقادش في الجنوب، وجيليقية في الشمال الغربي.

ثم اجتمع القائدان المسلمان في مدينة طلبيرة، واشتركا معاً في فتح سرقسطة وبرشلونة، واخترق موسى جبال البرينيية الفاصلة بين إسبانية وفرنسة، فغزا ولاية سبتمانيا، وفتح قرقشونة وناربون، كما غزا وادي نهر الرون في بلاد الفرنجة، ووصل إلى مدينة ليون، في حين اختار طارق وادي الأبرو وغزا جيليقية، وتلقى في هذه الأثناء،كل من موسى وطارق، أمراً من الخليفة يوقف العمليات العسكرية والعودة فوراً إلى دمشق، وعين موسى قبل مغادرته ابنه عبد العزيز حاكماً على الأندلس نيابة عنه.

_ عهد الولاة الأمويين (95-138هـ = 714-756م):

تسلم عبد العزيز حكم الأندلس بتكليف من والده موسى بن نصير، وأقره الخليفة سليمان بن عبد الملك، وأبدى حين تسلم الحكم رغبة صادقة في تنظيم الإدارة الجديدة، فأنشأ ديواناً لتطبيق الأحكام الشرعية وتنسيقها لاستقطاب المسلمين من مختلف القبائل، وشجع الزواج بين العرب والإسبان لخلق مجتمع متجانس، وانتعشت في عهده الزراعة والصناعة والتجارة.

وانتهت حياته بالقتل، وعلى إثر مقتل عبد العزيز اتفق الزعماء في إشبيلية على تولية أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير، الذي حكم البلاد مدة ستة أشهر فقط، إذ عزله محمد بن يزيد والي أفريقية، وعين بدلاً منه الحر بن عبد الرحمن الثقفي، الذي كانت فاتحة أعماله نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة، وازدادت النزاعات في عهده حدة مما دفع الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى عزله عام (100هـ = 719م) واختار بدلاً منه السمح بن مالك الخولاني، وقرر الخليفة أن تكون الأندلس ولاية مستقلة عن أفريقية وتابعة للخلافة مباشرة، وذلك بفعل ما أدركه من أهميتها واتساع شؤونها.

خلف السمح بن مالك وال آخر هو عنبسة بن سحيم الكلبي الذي اختاره بشر بن صفوان الكلبي والي أفريقية، وقد بذل جهداً في تنظيم الإدارة، وإصلاح الجيش لإعداده للغزوات والفتوح، وقتل أثناء عودته من إحدى غزواته، فعمت الفوضى الأندلس واستمرت خمسة أعوام، تعاقب على الحكم خلالها ولاة معظمهم فرضته العصبية القبلية، و لم تنته هذه الحالة المضطربة إلا بتعيين عبد الرحمن الغافقي والياً على الأندلس في عام 113هـ = 731م.

فنظم الغافقي شؤون الأقاليم، وقضى صدر ولايته في إصلاح الإدارة والجيش، فاجتاحت جيوشه وادي الرون إلى عمق فرنسة حتى نهر اللوار قبل أن يسقط شهيداً في معركة بلاط الشهداء أمام القائد الفرنجي شارل مارتل.

كان لمعركة بلاط الشهداء صداها المؤثر في دمشق، وقد أثارت الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فرأى أن يعيد النظر في سياسة الأمويين في الأندلس، فاختار عبد الملك بن قطن الفهري والياً عليها، لكنه لم ينجح في إخماد الثورات التي اندلعت في الولايات الشمالية ضد الحكم الإسلامي، مما كان دافعاً إلى عزله عام 116هـ = 734م.

ثم توالى على حكم الأندلس عدة ولاة، وكان يوسف بن عبد الرحمن الفهري آخرهم، إذ سقطت في غضون ذلك الخلافة الأموية في دمشق عام (132هـ = 750م)، وتمكن أحد الأمراء الأمويين، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، أن ينجوا من المذابح التي نفذها العباسيون بحق الأمراء الأمويين، ويمم وجهه شطر المغرب ثم الأندلس ليدخلها ويؤسس الدولة الأموية فيها.

_ عهد الإمارة الأموية (138–300هـ = 756–912):

اتصف عبد الرحمن بالطموح، فعزم على تأسيس دولة له في المغرب، إلا أنه اصطدم بمعارضة والي أفريقية عبد الرحمن الفهري، فاتجهت أنظاره نحو الأندلس التي كانت تعاني اضطراباً في أوضاعها الداخلية، فوجد فيها الفرصة الأكثر منالاً من المغرب، ونجح خادمه بدر الذي أرسله إلى هناك لدراسة الموقف في تكوين نواة لقاعدة أموية اعتمدت على اليمنيين الذين يرتبطون عضوياً بالأسرة المروانية. وقد رحبوا بتأييد الأمير الأموي، للتحرر من قيود القيسيين الثقيلة، والأخذ بثأر قتلاهم في معركة شقندة.

بات أنصار الأمير الأموي يمتلكون من المعطيات ما شجعهم على دعوته، فعبر المضيق في (شهر ربيع الآخر عام 138هـ = شهر أيلول عام 755م)، وكان حاكم الأندلس آنذاك يوسف بن عبد الرحمن الفهري، لكن السلطة الفعلية كانت في يد الزعيم القيسي الصميل بن حاتم، وقد أدرك الزعيمان مدى الخطر الذي يشكله عبور الأمير الأموي على أوضاعهما وبخاصة أنه حاز على ثقة فئة كبيرة من المجتمع الأندلسي بفضل قوة شخصيته وجرأته، لذلك قررا التصدي له لإرغامه إما على العودة أو الخضوع لهما.

واستعد عبد الرحمن من جهته للوقوف في وجههما، فغادر حصن طرشة إلى شذونة التي أعلنت تأييدها له، ثم دخل إشبيلية، وبايعه أهلها، وانضمت إليه الفرق العسكرية التي كانت قد جاءت من دمشق وحمص والأردن، ثم غادرها باتجاه قرطبة، والتقى بقوات الصميل والفهري عند المسارة في (شهر ذي الحجة عام 138هـ = أيار عام 756م) وانتصر عليهما، ودخل قرطبة حيث صلى بالناس صلاة الجمعة في مسجدها الكبير وخطب فيهم معلناً قيام دولته الجديدة، واضطر كل من الصميل والفهري إلى الفرار، فأقام عبد الرحمن الدولة الأموية في الغرب بعد أن سقطت في الشرق، وجعل الأندلس دولة مستقلة عن دولة الخلافة العباسية.

دخل عبد الرحمن إلى الأندلس وهو لا يمتلك من الأعوان إلا القليل، ومن السلاح غير الطموح والجرأة، فكان عليه أن يبني دولة ويؤمن لها الأجهزة البشرية، وبخاصة الجيش الذي يعد الدعامة الأساسية لتثبيت حكمه، فاختار العناصر المخلصة له،

واستقطب الأشخاص الملاحقين من قبل السلطة العباسية في المشرق، الذين تدفقوا على الأندلس، فأسس من الجميع نواة جيش قوي، واتبع سياسة قبلية قائمة على التوازن حتى تلتف حوله كافة الفئات الاجتماعية، فقضى على رواسب التعصب، وانتزع عوامل البغضاء من المجتمع الأندلسي، الذي أراده أن يكون متلاحماً، وأن يكون هو الحاكم لجميع فئاته.

ثم بدأ يتعقب أقوى خصومه يوسف والصميل، وانتهى الأمر إلى عقد اتفاق بينهما عام 140هـ = 757م، وعفا عبد الرحمن عن خصميه واصطحبهما إلى قرطبة ليكونا تحت مراقبته، لكن نزعة السلطة أثارت الفهري، ففر إلى ماردة والتف حوله ما يزيد على عشرين ألفاً من أتباعه، خرج بهم إلى إشبيلية وحاصرها، فخرج عبد الرحمن للتصدي له بعد أن اعتقل الصميل بتهمة التآمر ضده، ثم حدث أن فك يوسف الفهري الحصار عن إشبيلية وتوجه نحو قرطبة، وانتهى الصراع بهزيمته وفراره، وقتل بعد ذلك بيد أحد أعوانه، أما الصميل فقد تخلص عبد الرحمن منه بأن دس له من خنقه في سجنه، وهكذا قضى عبد الرحمن على أخطر عدوين في الداخل، و لم يجد أدنى صعوبة في القضاء على الثورات الداخلية الأخرى التي كان يقوم بها الفهريون وأنصارهم.

وكانت العلاقات سيئة بين الخلافة العباسية في بغداد وبين الإمارة الأموية في الأندلس، إلا أن بعد المسافة حال دون إرسال الجيوش العباسية.

بعد وفاة عبد الرحمن الأول توالى على الحكم عدة أمراء، ثم تولى بعد وفاة عبد الرحمن الثاني الإمارة أمراء ضعاف، فتمزقت الأندلس وتفجرت الثورات في أنحائها المختلفة، واستقل الثوار بحكم المناطق التي ثاروا فيها، وتقلص نفوذ بني أمية، فاقتصر على قرطبة وضواحيها، وتعد المدة الزمنية بين أعوام (238-300هـ = 852-912م) بمجموعها مضطربة سياسياً وعسكرياً، وتمثل انتكاسة للمنجزات الكبيرة التي تحققت على يد الأمراء الأوائل، وتتصف بأنها موحدة الملامح، متشابهة الظروف، بحيث لا يمكن أن نميز أي عهد منها عن الآخر، بل كانت متلاحمة، أطلق عليها المؤرخون اسم «دويلات الطوائف الأولى».

خلف الأمير محمد أباه عبد الرحمن الثاني، وله تجربة سابقة في فن الحكم لأن والده كلفه خلال حياته بمهمات سياسية عسكرية، ولكن ظروف الإمارة لم تساعده على الاستمرار في تحقيق طموحات الأسرة الأموية، ولما توفي خلفه ابناه المنذر وعبد الله على التوالي، والواقع أن الإمارة الأموية عانت خلال عهود الأمراء الثلاثة من المتاعب السياسية والاجتماعية على الرغم من الرخاء الذي عم ربوع البلاد، ذلك أن المجتمع الأندلسي لم يكن في يوم من الأيام متجانساً، وتشكل من شعوب متعددة خضعت للسيادة الأموية إما طوعاً أو كرهاً، دون أن يجمعها قاسم مشترك، وعاشت في تنافر عنصري وديني، و لم يندمج بعضها ببعض.

شكل السكان الأصليون الغالبية العظمى، واعتنق بعضهم الإسلام، ثم كان هناك العرب، وهم أقلية من حيث العدد، توزعت ولاءاتهم قبلياً بين قيسي ويمني، بالإضافة إلى أقلية من البربر نازعتها مشاعر السيطرة والنفوذ.

تفرقت هذه الأجناس في ولايات متباعدة أو متقاربة دون أن تنصهر في بوتقة المجتمع الأندلسي، وراحت تعمل على تحقق طموحاتها العنصرية والوطنية المختلفة، لكنها كانت تصطدم بالقوة المركزية، فتخبو إلى حين سنوح فرصة أخرى للانفجار، حتى إذا ما ضعفت الحكومة المركزية، انتفضت من جديد، وظهرت أطماعها على شكل استقلال محلي، تساعدها طبيعة أرض الأندلس الجبلية، ولعل أهم الحركات الاستقلالية التي قامت ضد الحكومة المركزية في قرطبة في هذه المرحلة والتي تمثل الأسر الكبيرة هي:

– المولدون: أعلن بنو موسى في شمال شرقي إسبانية، منطقة الثغر الأعلى ولاية مستقلة عاصمتها مدينة سرقسطة، واستقل بنو مروان بقيادة عبد الرحمن الجيليقي في بطليموس غربي إسبانية، وامتد نفوذهم حتى جوار إشبيلية، واستقل بنو حفصون في المرتفعات الإسبانية الجنوبية الممتدة بين مالقة شرقاً ورُندة غرباً، وقاعدتهم قلعة ببشتر، وقد جسد عمر بن حفصون التطلعات الوطنية لأكثرية المولدين، وكان قد ارتد عن الإسلام واعتنق النصرانية في محاولة لتصعيد الأزمة مع قرطبة ووضعها في مأزق جديد لاستقطاب القوى النصرانية في الشمال وبخاصة الملك ألفونسو الثالث.

– البربر: سيطر بنو ذي النون على طليطلة، وبنو الملاخ على جيان.

– العرب: استقل بنو الحجاج بإشبيلية، وسعيد بن جودي السعدي بغرناطة، ولعل الخطأ أن نضع مسؤولية ذلك الانهيار السياسي على عاتق الأمراء محمد وابنيه المنذر وعبد الله، لأنهم تولوا الحكم في ظروف غير عادية، وتحتاج تالياً إلى رجل فذ وحاكم غير عادي.

وأدت التحولات الثقافية والاجتماعية، التي غيرت ملامح الأندلس، دوراً في هذا التمزق السياسي لتدفع البلاد إلى مرحلة جديدة في مسار التاريخ الأندلسي، فلم تعد البلاد منذ ذلك الحين تقبل الخضوع لأقلية عربية، وتطلعت مختلف الفئات إلى المشاركة في الحكم أو الاستئثار به معتمدة إما على تفوقها البشري أو على تراثها القديم.

_ عهد الخلافة الأموية (300–422هـ = 912–1031م):

تولى الحكم الأمير عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحكم في (شهر ربيع الأول عام 300هـ = تشرين الأول 912م) وهو في الحادية والعشرين من عمره، وكان أعمامه أحق منه في تولي الأمر، لكنهم زهدوا فيه بفعل تمزّق البلاد، ويبدو أنهم رأوا أنفسهم عاجزين عن وضع حد لتدهور أوضاع الدولة.

ومن جهة أخرى، كان عبد الرحمن شاباً، يتدفق حيوية ونشاطاً وطموحاً، فتعلقت آمال الجند به، ودفعه أعمامه إلى سدة الحكم، وفضلوه على أنفسهم آملين بأن ينقذ الموقف المتدهور.

تسلم عبد الرحمن الثالث الحكم والأندلس قد أرهقتها الثورات والانقسامات، فرأى أنه لا بد من القضاء عليها، وإحلال السلام في ربوع البلاد، وقد هدف إلى ضم كافة فئات المجتمع الأندلسي، وتحويلهم إلى أمة متحدة اتحاداً حقيقياً، واستهل عهده بخطوة مهمة في إطار معالجة الوضع الداخلي، فأصدر برنامجاً عاماً لسياسة جديدة، تجلت فيه دعوة إلى الثائرين في كافة أنحاء البلاد للانفتاح والحوار، والعودة إلى الجماعة والوحدة والطاعة كما تضمن في الوقت نفسه تهديداً ووعيداً بالعقاب، وأعقب ذلك بإرسال ممثلين عنه إلى الأقاليم الثائرة للتحاور، ويبدو أن هذه الخطوة جاءت في الوقت المناسب لأن الناس كانت قد سئمت الحروب الطويلة الكامنة التي أضرت بأمنهم وتجارتهم، وأوقعت البلاد في فوضى حقيقية، كما أن الأمير الجديد لم يكن أسير عقدة خاصة أو اعتبارات ضيقة، بل كان نموذجاً فريداً كرجل دولة يكرس كل طاقاته للعمل دون كلل وملل، واستطاع بما أبداه من حزم وكياسة أن يكتسب ولاء غالبية الثائرين وبخاصة في مقاطعتي جيان والبيرة، بينما تجاهلت أقلية صغيرة مثل بني حفصون نداءه، مفضلة البقاء خارج دائرة النفوذ الأموي وعدم التعاطف معه، فكان على عبد الرحمن الثالث أن يكافح ضد هذه القوى المتمردة لإخضاعها، وقد شهد إقليم ريّة، معقل عمر بن حفصون، فاتحة نشاطه العسكري، ونجح في دخوله والسيطرة عليه، وانكفأ ابن حفصون إلى حصن ببشتر، ثم انتقل الأمير إلى إشبيلية، حيث قضى على استقلال بني الحجاج في عام (301هـ = 914م)، والواقع أن عمر بن حفصون وجد نفسه في موقف حرج بعد فشل كفاحه الطويل مع السلطة المركزية في قرطبة، وما نتج عن ذلك من تدهور اقتصادي حاد، مما أفقد حركته كثيراً من حماسها، فاضطر إلى عقد صلح مع النظام الجديد، فأرسل إلى عبد الرحمن الثالث عهداً بالاعتراف به، والالتزام بالولاء للسلطة المركزية، ثم زار قرطبة عام 303هـ = 916م ليقدم خضوعه للأمير الأموي، واضعاً بذلك بداية النهاية لأخطر ثورة شهدها الحكم الأموي في الأندلس، ولم يجد عبد الرحمن أدنى صعوبة في تصفية خلفاء عمر بن حفصون، ودخل معقلهم ببشتر في عام 315هـ = 928م. وكان القضاء على ثورة عمر بن حفصون كافياً لإعطاء عبد الرحمن الثالث الاطمئنان إلى أوضاعه، بعد أن شعر بأنه اجتاز أصعب المراحل في طريق إعادة الوحدة السياسية.

وهكذا وبعد أن استتب الأمر لعبد الرحمن الثالث، وجد أن اللقب الذي ورثه عن أسلافه، وهو الأمير، لم يعد يتسع لطموحه الكبير، ورأى أنه أحق بألقاب الخلافة من دولة منحلة، وهي دولة الخلافة العباسية في بغداد، ودولة طارئة، هي الدولة

الفاطمية في المغرب، فاتخذ لنفسه لقب أمير المؤمنين وأمر في عام (316هـ = 928م)بأن تكون الدعوة له في مخاطباته والمخاطبات عنه في جميع ما يجري ذكره بـ«أمير المؤمنين»، لما استحقه من هذا الاسم، وتلقب بلقب الناصر لدين الله أمير المؤمنين، كما عرف بعبد الرحمن الناصروهكذا تحول الحكم في الأندلس من إمارة إلى خلافة، واستمر لقب «خليفة» في ذرية عبد الرحمن الثالث حتى سقوط دولة الخلافة الأموية في عام 422هـ = 1031م، ويبدو أن الأمير الأموي كان مدفوعاً بعدة عوامل لعل أهمها:

– ضعف الخلافة العباسية في بغداد كمؤسسة دينية وسياسية، وعجزها عن حماية العالم الإسلامي، وهيمنة الأتراك على مقدراتها وتحكمهم بالخلفاء. وشكل اغتيال الخليفة العباسي المقتدر مؤشراً لاتخاذ مواقف أكثر جرأة في مناهضتها.

– قيام دولة فتية معادية في شمالي أفريقية، هي الدولة الفاطمية التي تطلعت نحو الأندلس لضمه، مما كان باعثاً للقلق الشديد لدى الأمير الأموي، واتخاذه الحيطة لصرف اهتمامها عن بلاده.

– كانت الوحدة السياسية للأندلس قد قطعت شوطاً بعيداً بعد إخضاع القوى الثائرة على الحكم، فكان لا بد، بعد ذلك، من رفع مكانة الأمير السياسية والدينية وإعطاء قرطبة دوراً أكثر مركزية بحيث تشدد قبضتها على الأطراف.

– الاستجابة لرغبة الأندلسيين في أن يكون لهم خليفة.

وبعد تحقيق الوحدة السياسية، واستقرار الأوضاع الداخلية، التفت عبد الرحمن الناصر إلى الشؤون الخارجية، يساعده في ذلك جيش مدرب اختار معظم عناصره من المماليك الصقالبة المتفانين في خدمته.

ولا شك أن قيام دولتين متجاورتين مختلفتي المذهب كان كافياً ليسبب صداماً بينهما، ونظر الفاطميون إلى الحكم الأموي في الأندلس على أنه امتداد لخلافة دمشق، وبذلك كان لهم أطماع جدية في الأندلس، واضطر عبد الرحمن الناصر أن يقوم بخطوات إيجابية لمحاربة النفوذ الفاطمي ومنع امتداده إلى بلاده، منها:

– تقوية الأسطول الأندلسي، إذ إن البحرية الأندلسية لم تكن متكافئة آنذاك مع احتياجات دولة لها شواطئ ممتدة على مسافات طويلة، بالإضافة إلى تهديد الأسطول الفاطمي القوي في البحر المتوسط الذي هاجم المرية منطلقاً من قواعده في جزيرة صقلية، فأقام المنشآت الصناعية لبناء السفن العسكرية، واهتم بإعداد أسطول بحري قوي، كما فرض حصاراً على مضيق جبل طارق لمنع وصول إمدادات الفاطميين إلى الثائر عمر بن حفصون.

– تحصين الثغور الأندلسية الجنوبية المواجهة للمغرب، حتى لا تتعرض لهجوم فاطمي مفاجئ، فأشرف بنفسه على بناء التحصينات الدفاعية في جزيرة طريف والجزيرة الخضراء.

- ضم بعض ثغور ساحل المغرب الأقصى المواجهة لبلاده، مثل مليلة وسبته وطنجة، وحصنها.

- استقطاب رؤوساء الدويلات وزعماء القبائل في المغربين الأوسط والأقصى، مثل دولة الأدارسة، وإمارة منكور أو بني صالح، وقبيلة زناته البربرية، وذلك لتحقيق التوازن، ومواجهة الفاطميين المتحالفين مع قبائل كتامة ومكناسة.

- تأييد الثورات ودعم الحركات المعادية للحكم الفاطمي في شمال أفريقية، مثل ثورة أبي يزيد الخارجي التي شغلت عهد القائم الفاطمي وجزءاً من عهد ابنه إسماعيل المنصور.

- التحالف مع أعداء الدولة الفاطمية في الشرق والغرب، فتحالف مع الإمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع الذي كان يرغب في استعادة جزيرة صقلية من يد الفاطميين، وحرص على توطيد علاقته بالإخشيديين في مصر. كما تحالف مع ملك إيطاليا هودج دي بروفانس الذي كان على عداء مع الفاطميين.

غير أن تحول السياسة الفاطمية من المغرب إلى المشرق، وهو المجال الطبيعي للطموحات الفاطمية، حيث الخلافة العباسية السنية في بغداد، وبخاصة بعد ضم مصر، أنقذ الطرفين من صراع دموي طويل.

أما بالنسبة للعلاقات مع الممالك الإسبانية في الشمال؛ فإنه عندما اعتلى عبد الرحمن الناصر الحكم في قرطبة وجد نفسه أمام تحالف إسباني قوي ضم سانشو الأول ملك نافارا وآردونيو الثاني ملك ليون وقشتالة، وكلاهما تجسدت فيه آمال الإسبان للتخلص من الحكم الإسلامي، واستغل آردونيو الثاني حالة التفكك التي كانت تمر بها الأندلس واحتل بعض المدن والأراضي الإسلامية، مثل مدينة يابرة الواقعة غربي الأندلس، فخربها وقتل حاكمها مروان بن عبد الملك.

ولعل أخطر العمليات العسكرية التي قام بها تلك التي استهدفت مدينة ماردة عام 305هـ = 917م، فقد استولى عليها، ودمر الجيش الأموي بقيادة أحمد بن أبي عبيدة، ولم يكن باستطاعة الناصر تجاهل هذا النشاط الإسباني الواسع ضد أراضيه، وتجسد تصميمه على توجيه ضربة انتقامية للملك الليوني في عمق بلاده، وخاض من أجل ذلك حروباً طويلة من عام 308هـ = 920م وأحرز عدة انتصارات، واستعاد عدداً من المواقع المهمة لاسيما آوسما وتطيلة، غير أن راميرو الثاني خليفة آردينو الثاني، الذي اتصف بالنزعة الصليبية، أنزل به هزيمة في معركة جرت عند خندق مدينة شمنقة سنة 327هـ = 939م.

لم تحدث هذه المعركة أي تغيير في وضع الأراضي، كما أن استئناف العمليات العسكرية التقليدية من جانب الخلافة ضد ممالك الشمال في أعقاب الهزيمة، كان كافياً لردع أية محاولة توسعية من جانب الإسبان.

ثم ساد الهدوء هذه الجبهة في أعقاب النزاع الداخلي الذي نشب بعد وفاة راميرو الثاني، بين ولديه آردونيو وسانشو، وقد فاز هذا الأخير بالحكم بمساعدة الخليفة الأندلسي، الذي أضحى آنذاك أقوى شخصيات العصر.

أما العلاقات مع الدول الأوروبية؛ فإن أهم الدول التي أنشأت الخلافة الأموية في الأندلس علاقات معها هي كل من الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الكارولنجية، بفعل الانسجام الذي فرضته تطورات الأحداث والظروف المتشابهة، وما تعرضت له الدولة البيزنطية آنذاك من هجمات المسلمين في الشرق، وما كان من نزاع وتنافس ديني وسياسي بين الأمويين في الأندلس من جهة، وبين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى، أدى إلى التقارب بين قرطبة والقسطنطينية، فتبادل العاملان عبد الرحمن الناصر وقسطنطين السابع السفارات في عام (334هـ = 946م) وفي عام (338هـ = 949م).

ولعل الإمبراطور البيزنطي ابتغى من وراء هذا التقارب الحصول على مساعدة الخليفة الأموي في إعداد حملة كبيرة ضد جزيرة كريت، أو ضمان حياده على الأقل، بالإضافة إلى ذلك، فقد كان قسطنطين السابع شغوفاً بالعلم والتاريخ والفنون، فانتعشت الحركة العلمية في عهده، ويبدو أن اتصالاته بالخلافة الأموية في الأندلس قد تمت ضمن هذا الإطار الثقافي، وتستوقفنا هديته للخليفة وهي عبارة عن كتابين نفيسين في علم النبات والآخر في السيرة وأخبار الملوك الأقدمين.

أما فيما يتعلق بالعلاقات السياسية التي جمعت عبد الرحمن الناصر وأوتو الكبير ملك الدولة الكارولنجية وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، فيبدو أنها جاءت نتيجة للغارات البحرية التي كان يشنها الربابنة الأندلسيون على سواحل بلاده الجنوبية، فحمّل أوتو الكبير عبد الرحمن الناصر مسؤولية هذه الأعمال، وأرسل إليه في عام (339هـ = 950م) رسالة احتجاج رد عليها الناصر برسالة مماثلة، وبعد أعوام قليلة، أي في عام (342هـ = 953م)، أرسل أوتو الكبير رسالة أخرى إلى الناصر حملها إليه الأسقف جان دي جوزر، وعلى الرغم من شدة لهجة الرسالة التي تضمنت تجريحاً بحق النبي محمد ﷺ، ورفض الخليفة استلامها، وعصبية الأسقف، فقد أحاطه الخليفة بالتكريم، وأنزله في مقر قريب من إحدى الكنائس. وحتى يتيقن أن مضمون الرسالة يمثل وجهة النظر الرسمية للدولة الكارولنجية، أرسل الخليفة رسولاً إلى فرانكفورت هو المستعرب رثموندو، حيث اجتمع بأوتو الكبير، وبدد بحنكته سوء التفاهم الذي غمر العلاقات بين الدولتين، ولما عاد إلى قرطبة أرسل معه مبعوثاً من قبله، استقبله الخليفة ورحب به. وبناء على تعليمات الإمبراطور تخلى الأسقف عن إصراره على تقديم الرسالة التي يحملها.

وفي أواخر سنوات الخلافة الأموية الأندلسية تلاحقت الأحداث بعد ذلك سريعة ومذهلة، ومرت دولة الأمويين في الأندلس بأجواء عاصفة، ومشحونة بالصراعات الدموية بين عناصر الأسرة الحاكمة، حيث اعتلى منصب الخلافة عدد من الخلفاء الذين لم يكن أحد منهم على مستوى الأحداث.

وكانت قرطبة آنذاك مسرحاً للفوضى، وهدفاً لكل طامع في السلطة. وقتل المهدي في (شهر ذي الحجة عام 400هـ = شهر تموز 1010م) على يد هشام المؤيد، واتفق سكان قرطبة، على تجديد البيعة له، عله يعصمهم من تعديات البربر الذين بايعوا سليمان بن الحكم بن سليمان بن الناصر، وتلقب بـ«المستعين»، ونجح المستعين بمساعدة البربر في الاستيلاء على قرطبة

في (شهر شوال عام 403هـ = شهر أيار عام 1013م) فقتل الخليفة هشام المؤيد، وتلقب بعد ذلك بـ«الظافر بحول الله»، واستقر في مدينة الزهراء، ثم قتل على يد بني حمود، وهم من سلالة الأدارسة، بعد أن سيطروا على قرطبة في (شهر محرم 407هـ = شهر تموز 1016م)، واعتلى علي بن حمود منصب الخلافة تحت اسم الناصر، وتبادل الحموديون والأمويون منصب الخلافة حتى زالت الأسرتان عن مسرح الحياة السياسية، فانقرضت الأسرة الحمودية بوفاة المستعلي في عام (450هـ = 1051م)، وكان القرطبيون قد قرروا إلغاء الخلافة الأموية في أعقاب خلع الخليفة هشام الثالث بن محمد بن عبد الملك في (شهر ذي العقدة عام 422هـ = تشرين الثاني 1031م) والتخلص من الأمويين، ونودي في الأسواق والأرباض أن لا يبقى بقرطبة أحد من بني أمية ولا يكنفهم أحد، وقد تولى نفيهم أبو الحزم بن جهور، وبذلك انتهت دولة الخلافة الأموية في الأندلس، وحكم البلاد رؤوساء الطوائف وأمراء الثغور، وانقسمت إلى دويلات صغيرة متنازعة، وابتدأ نتيجة ذلك عهد جديد هو عهد دول الطوائف.

فانقسمت الأندلس، بعد زوال الخلافة الأموية، إلى طوائف متنازعة يمكن تصنيفها بثلاث:

الأولى: طائفة أهل الأندلس من سكان البلاد الذين استقروا فيها وانصهروا في البوتقة الأندلسية، وأضحوا أندلسيين بغض النظر عن أصلهم العربي أو المغربي أو الصقلبي أو الإسباني النصراني، وقد عرف هؤلاء بأهل الجماعة، وأشهر زعمائهم بنو عبّاد اللخميون في إشبيلية، وبنو هود الجذاميون في الثغر الأعلى، سرقسطة، وبنو صمادح أو بنو تجيب في المرية، وبنو برزال في قرمونة، والعامريون في بلنسية.

الثانية: طائفة المغاربة أو البربر الذين وفدوا حديثاً إلى الأندلس لا سيما الصنهاجيين الذين استقروا بها في أيام المنصور العامري، ومن زعماء هذه الطائفة بنو زيري في غرناطة، وبنو حمود الأدارسة الذين تحدثنا عنهم من قبل.

الثالثة: طائفة كبار الصقالبة الذين استقروا في شرقي الأندلس، نذكر منهم مجاهد العامري الذي استقل في دانية ثم استولى على الجزر الشرقية (البليار) وغزا جزيرة سردينيا، وسواحل إيطاليا، وسيطرت أساطيله على غرب حوض البحر المتوسط.

وحاولت كل طائفة من هذه الطوائف أن تحيط نفسها بسياج روحي لتستمد منه شرعيتها، وذلك بإقامة خليفة في منطقتها.

وعندما قدم المرابطون إلى الأندلس لنجدة دول الطوائف، ورد اعتداءات الإسبان، كانت الممالك الإسبانية تتألف من ثلاث ممالك، هي:

– مملكة قشتالة، وهي أكبرها رقعة، وأوفرها موارد، وأكثرها قوة، ويعد ملكها ألفونسو السادس عميد الممالك الإسبانية.

– مملكة أراغون.

– إمارة برشلونة أو قطلونيا، وهي أصغر الممالك.

– وكانت مملكة نافارا قد اختفت مؤقتاً عن مسرح الأحداث، بعد أن اقتسم أراضيها كل من ملكي قشتالة ألفونسو السادس، وأراغون، سانشو راميرو، في عام 469هـ = 1076م.

ففي الوقت الذي كان فيه ألفونسو السادس يجوس خلال الديار الأندلسية، مستغلاً ضعف ملوك الطوائف، شعر المعتمد بن عبّاد أن الخطر يتهدده مباشرة، فاتفق مع صاحبي بطليموس وغرناطة، وهما أقرب جيرانه، على إرسال بعثة إلى يوسف بن تاشفين في المغرب تلتمس منه المساعدة العاجلة.

وافق الزعيم المرابطي على تقديم المساعدة المطلوبة واشترط أن يمنح الجزيرة الخضراء لتكون مركز انطلاق لجيوشه، والواقع أنه حرص على امتلاك بعض ثغور الأندلس كي يسيطر على مضيق جبل طارق ويضمن حرية العبور من وإلى الأندلس. واضطر المعتمد إلى تنفيذ طلبه، وأمر ابنه الراضي بإخلائها، عبر يوسف بن تاشفين بجيوشه مضيق جبل طارق ونزل في الجزيرة الخضراء، فنظم شؤونها وحصنها، ثم تابع تقدمه باتجاه إشبيلية، فأقبل عليه المعتمد والأمراء المجاورون مرحبين بقدومه. كان ألفونسو السادس آنذاك يحاصر مدينة سرقسطة، وحينما علم بأنباء الزحف الإسلامي، رفع الحصار عنها وأسرع بجيوشه نحو جيوش المسلمين: المغاربة والأندلسيين.

فالتقى بهم في شمال شرقي بطليموس عند سهل الزلاّقة، وهناك دارت بين الطرفين رحى معركة طاحنة في (شهر رجب عام 479هـ = شهر تشرين الأول عام 1086م)، هزم فيها ألفونسو السادس هزيمة شنعاء وجرح في المعركة، واضطر إلى التراجع باتجاه الشمال مخلياً إقليم بلنسية.

والحقيقة أن انتصار المسلمين في الزلاقة أنقذ العالم الإسلامي في الأندلس من السقوط، كما ثبت أقدام المرابطين فيها، وعاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب دون أن يستثمر انتصاره، وأوصى زعماء البلاد قبل مغادرته بالاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي استغل تمزقهم، وترك لهم ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر، ويبدو أن وفاة ابنه أبي بكر الذي استخلفه على سبته، بالإضافة إلى اضطراب الأوضاع على حدوده الشرقية حيث تحالف بنو حماد الصنهاجيين مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية، كان وراء هذه العودة.

ثم عاد الأندلسيون إلى سيرتهم الأولى بعد رحيل يوسف بن تاشفين، فاختلفوا فيما بينهم، وضايقوا القوى المغربية التي بقيت في الأندلس لحملها على مغادرة البلاد. وتجاوز الإسبان بعد عام ذيول هزيمتهم في الزلاقة بفعل النجدات التي وفدت عليهم من فرنسة والبابويه، فاستأنفوا عملياتهم العسكرية، واختاروا المناطق الأكثر ضعفاً في شرق الأندلس وهي: بلنسية ومرسية ولورقة والمرية، وعجزت قوة المرابطين عن صدهم أو الوقوف في وجههم، ونظراً لخطورة الوضع، قرر المعتمد الذهاب بنفسه إلى المغرب لطلب المساعدة من يوسف بن تاشفين، فوافق الزعيم المغربي على العبور مرة ثانية إلى الأندلس لإنقاذها من براثن الخطر الإسباني، والسيطرة على ملوك الطوائف، فعبر المضيق عام 481هـ = 1088م واستنفر الأندلسيين للجهاد. وهاجم المسلمون حصن الليّط الذي أقامه ألفونسو السادس، بين مرسية ولورقه، بعد معركة الزلاقة. غير أن تجدد الخلافات بين الأندلسيين وبخاصة بين المعتمد صاحب إشبيلية، والمعتصم صاحب المرية، حال دون فتحه، وعانى يوسف بن تاشفين كثيراً في هذه الخلافات، ففقد ثقته بالأندلسيين، وعاد إلى المغرب في عام 482هـ = 1089م، وأخذ يستعد لتصفية أمراء الأندلس، وضم هذا البلد إلى المغرب.

ثم عبر يوسف بن تاشفين المضيق للمرة الثالثة في عام (483هـ = 1090م) دون طلب استغاثة، فسار مباشرة إلى طليطلة مجتاحاً أراضي قشتالة، لكنه فشل في اقتحامها، ولم يتقدم أحد من الزعماء الأندلسيين لمساعدته، ثم يمم وجهه شطر غرناطة وبها الأمير عبد الله بن بلكين بن باديس بن زيري الصنهاجي، فدخلها بعد حصار واستولى على كورها، كما ضم مالقة، وقاومه المعتمد بن عبّاد، عندئذٍ رأى يوسف أنه من الأفضل تكليف قادته باستكمال ضم الأندلس، في حين يراقب هو الوضع العسكري من المغرب، وبناء على ذلك فوض جميع الأمور السياسية والعسكرية إلى قائده سير بن أبي بكر، وطلب منه ضم إشبيلية وبطليموس، وكلف ثلاثة من قادته الآخرين بمهاجمة قرطبة والمرية ورُندة، ثم عاد إلى المغرب واستقر في سبته ليراقب نتائج أعمال هؤلاء القادة، نجح القادة الأربعة في تحقيق إنجازات مهمة كانت لصالح المرابطين، فسقطت قرطبة بيد أبي عبد الله بن محمد الحاج في عام 484هـ = 1091م، وقتل حاكمها الفتح بن المعتمد، كما استولى المرابطون على كورها وخضعت للقائد سير ابن أبي بكر أكثر حصون المعتمد، وتفرغ بعد ذلك لانتزاع إشبيلية، تجاه هذه المتغيرات السياسية والعسكرية، وجد المعتمد نفسه في موقف حرج، فاستنجد بألفونسو السادس، إذ أضحى الأمل الوحيد له للبقاء في الحكم. والواقع أن الزعيم القشتالي وجدها فرصة سانحة للثأر من المرابطين، لكن المساعدة العسكرية التي دفع بها إلى ميدان القتال لقيت هزيمة قاسية في معركة جرت على مقربة من حصن المدور، وتبخرت آمال المعتمد على المساعدة الإسبانية، فقرر عندئذٍ الاعتماد على نفسه مع يقينه بأن المعركة خاسرة، وتعّرض في هذا الوقت العصيب لخطة سياسية داخلية تمثلت بثورة العامة داخل إشبيلية، وحاول الثوار فتح باب المدينة للمرابطين، لكن المحاولة فشلت، غير أن هؤلاء تمكنوا من دخول المدينة في (22 رجب عام 484هـ = 13 أيلول عام 1091م) واستسلم لهم المعتمد بن عبّاد.

وهكذا سقطت دولة ابن عبّاد، وانطوت تحت سيادة المرابطين، ونقله هؤلاء إلى المغرب حيث أمر يوسف بن تاشفين بسجنه في أغمات. و لم يكن من العسير على المرابطين أن يضموا باقي أجزاء الأندلس بعد سقوط إشبيلية التي كانت أقوى دول الطوائف و لم ينجح بالاحتفاظ باستقلاله سوى المستعين أحمد بن هود صاحب سرقسطة الذي عرف كيف يكسب رضا المرابطين. والواقع أن إمارته كانت بمثابة شوكة في خاصرة الإسبان الشماليين، ويبدو أن يوسف بن تاشفين أدرك مدى أهميتها العسكرية كخط دفاع أول أمام الإسبان، وفي تكوين جبهة قوية للوقوف في وجههم، لذلك بقيت سرقسطة الإمارة الوحيدة التي لم يضمها المرابطون، وعبر يوسف بن تاشفين في عام 496هـ = 1102م إلى الأندلس لتنظيم شؤونها الإدارية، وأضحى هذان البلدان، المغرب والأندلس، يشكلان دولة واحدة عاصمتها مدينة مراكش التي بناها يوسف بن تاشفين. وتوفي يوسف بن تاشفين في (شهر محرم عام 500هـ = شهر أيلول عام 1106م) تاركاً لابنه أبي الحسن علي أقوى دولة عرفها الغرب الإسلامي حتى ذلك الحين.

ويبدو أن التنظيم الداخلي لدولة المرابطين المترامية الأطراف كان مزعزعاً، وشابه الفوضى والاضطراب. و لم يلبث علي أن انصرف إلى القضايا الدينية، وتمتع رجال الدين في عهده بنفوذ واسع، فكانوا شديدي الوطأ على النصارى المعاهدين الذين مثّلوا خطراً حقيقياً على الدولة، إذ كانوا ينتهزون الفرص للاتصال بالإسبان والتنسيق معهم لحرب المسلمين، ورحبوا بالهجمات المتكررة التي كان يشنها أمراء الشمال، والتي نتج عنها سقوط طليطلة وسرقسطة في أيديهم.

أعطت هذه الانتصارات دفعاً قوياً، جعلت النصارى يواصلون حرب الاسترداد، ويحققون أهدافهم رويداً رويداً، بينما انهمك المسلمون في نزاعات داخلية، وتوالى سقوط ما تبقى من قواعد الثغر الأعلى، وتضاءلت تدريجياً هيبة المرابطين، وفقدوا ما كان لهم من شعبية في أوساط العامة، وانقسمت الأندلس مجدداً إلى دويلات طوائفية متنازعة، كانت عاجزة عن مواجهة الخطر الإسباني المتزايد. وكان الموحدون بزعامة عبد المؤمن بن علي قد ورثوا المرابطين بعد أن قضوا على دولتهم في المغرب، ووجهوا اهتمامهم نحو الأندلس التي عمتها الثورات.

قام الثوار في مختلف المدن بالاتصال بالموحدين ودعوهم إلى دخول الأندلس، وفعلاً أرسل الخليفة عبد المؤمن الموحدي جيشاً سيطر على غرب البلاد، وانتزع إشبيلية في (شهر شعبان عام 541هـ = شهر كانون الثاني عام 1147م) وقرطبة في (شهر شعبان عام 543هـ = شهر كانون الأول عام 1148م)، وجيان ومالقة في عام (547هـ = 1152م)، وصمدت غرناطة مدة سبع سنوات قبل أن تسقط في عام (551هـ = 1156م)، كما تمكن من وقف الزحف القشتالي عند قرطبة.

توفي الخليفة عبد المؤمن في (20 جمادى الآخرة عام 558هـ = 25أيار عام 1163م) وخلفه ابنه أبو يعقوب يوسف، الذي أتم إخضاع الأندلس، ليُقتل بعدئذٍ أثناء حصار شنترين في معركة ضد الأمير البرتغالي سانشو وذلك في (شهر رجب عام

580هـ = شهر تشرين الأول عام 1184م) وخلفه ابنه يعقوب الذي تلقب بالمنصور، واستغل البرتغاليون انتصارهم في شنترين، فهاجموا غربي الأندلس، فاضطر الخليفة للعبور إلى الأندلس في (شهر ربيع الأول عام 585هـ = شهر نيسان عام 1189م) وسار إلى شنترين وإشبونه ليثأر لوالده، واجتاح المنطقة، ودمر كثيراً من مدنها وقراها، ثم عاد إلى المغرب، ثم عبر مرة أخرى وانتصر على جيش قشتالي عند حصن الآرك بقيادة ألفونسو الثامن في (شهر شعبان عام 591هـ = شهر تموز عام 1195م)، وهاجم أراضي قشتالة في عام (593هـ = 1197م) وتوغل فيها يدمر القوى ويحرق المزارع لإرهاب العدو، وحاصر طليطلة، ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية، ونظم يعقوب شؤون الأندلس، فعين الولاة، وحصن الثغور والقواعد وشحنها بالحاميات، ووفدت عليه رسل ملك قشتالة طالبين الهدنة، فاستجاب لهم بشروطه وفق شريعة الإسلام وتقررت الهدنة لمدة عشر سنوات. ثم غادر إشبيلية في (شهر جمادى الأولى عام 594هـ = شهر آذار عام 1198م) عائداً إلى مراكش، وتوفي في العام التالي، وخلفه ابنه محمد الناصر، وما لبثت دولة الموحدين، التي دانت لها الأمور في الأندلس وأفريقية حتى حدود مصر، أن أصابها الانحلال في ظل حكام ضعاف، إذ لم يكد محمد الناصر يعتلي سدة الخلافة حتى واجهته الثورات وبخاصة في أفريقية، ومع أنه نجح في القضاء عليها إلا أنه عجز عن الصمود في وجه الإسبان في الأندلس، فقد شن ألفونسو الثامن ملك قشتالة في (شهر صفر عام 609هـ = شهر تموز 1212م) هجوماً على الأراضي الإسلامية ليثأر لهزيمته في الأرك، واجتياح الخليفة المنصور لأراضيه من قبل والعبث فيها، وأنزل بقوات الخليفة هزيمة منكرة عند حصن العقاب، وتكبد المسلمون خسائر فادحة جداً، وكانت نتائجها حاسمة بالنسبة للأندلس التي أخذت بالتداعي لتسقط في أيدي الإسبان تباعاً.

عاد محمد الناصر بعد المعركة إلى إشبيلية، ثم عبر إلى مراكش حيث توفي في عام 610هـ = 1214م، مغموماً بنكبة العقاب، وخلف يوسف المستنصر بالله والده، وهو في السادسة عشرة من عمره، فنظم شؤون الأندلس وعين عليها الولاة، لكن النكبات توالت على هذا البلد بعد معركة العقاب، في ظل تخاذل زعماء البلاد وعجزهم عن رد الاعتداءات الإسبانية، وكان قصر أبي دانس من أهم المواقع التي سقطت في يد الإسبان بعد معركة فاصلة جرت في عام 614هـ = 1217م، تلا ذلك سقوط قاصرش، شمالي ماردة في يد ملك البرتغال في عام 620هـ = 1223م، وتوفي الخليفة المستنصر في 620هـ = 1224م دون وريث، فبايع الموحدون محمد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف المنصور، ولكن نافسه على الزعامة عبد الله بن يعقوب والي مرسيه وأعلن نفسه خليفة وتلقب بلقب العادل، وذلك في (شهر صفر عام 621هـ = شهر آذار عام 1224م)، وبايعه ولاة الأندلس، وكانوا إخوته.

عين العادل أخاه أبا العلاء إدريس والياً على إشبيلية، وسرعان ما نبذ هذا الوالي طاعة أخيه ودعا لنفسه وتلقب بلقب المأمون، ثم ثار الموحدون على العادل وقتلوه، وعينوا مكانه يحيى ابن أخيه محمد الناصر وذلك في عام (624هـ = 1227م)، فلجأ المأمون إلى فرديناند الثالث ملك قشتالة ملتمساً مساعدته لقاء دفع مبلغ كبير من المال. ومنح النصارى امتيازات خاصة،

فأمده بقوة عسكرية عبرت معه إلى المغرب، واصطدم بالخليفة يحيى وهزمه ثم توفي في عام (629هـ = 1232م)، فخلفه ابنه عبد الواحد وتلقب بـالرشيد، نتيجة هذا الصراع الداخلي بين صفوف الموحدين، انهار حكمهم في الأندلس وبرز في هذا الصراع زعيم أندلسي هو محمد بن يوسف بن هود، من أحفاد حكام سرقسطة، فاستغل الأوضاع المتردية وهاجم مدينة مرسية وانتزعها من حاكمها الموحدي أبي العباس، ودخلت في طاعته جيان وقرطبة وماردة وبطليموس وغرناطة، وانضمت إشبيلية إلى حركته وتلقب بلقب المتوكل على الله، وبذلك يكون قد وحد أهم المدن الأندلسية تحت رايته، تصدى محمد بن يوسف بن هود لهجمات الإسبان، لكنه جوبه باتحاد قشتالة مع ليون بعد وفاة ألفونسو الثامن، واستأنف الإسبان هجماتهم على المسلمين، فسقطت ماردة وبطليموس على يد ألفونسو التاسع ملك ليون وجيليقية، وانهزم المتوكل في منطقة فحص شريش أمام فرديناند الثالث ملك قشتالة وسقطت المدينة في عام (631هـ = 1234م).

سار محمد بن يوسف بن هود، بعد انهزامه في فحص شريش، إلى نواحي غرناطة لقتال منافسه محمد بن الأحمر، فاستغل القشتاليون هذه الفرصة وانقضوا على قرطبة التي كانت تعاني من الفوضى والاضطراب، ودخلوها عام 633هـ = 1236م. وتوفي ابن هود بعد ذلك في ثغر المرية عام 635هـ = 1238م، ثم سقطت مرسية في يد فرديناند الثالث في عام 640هـ = 1243م. في هذه الظروف التي كانت فيها المدن المهمة في الأندلس تسقط في أيدي الإسبان، قامت دولة عربية في جنوب الأندلس تولت قيادة الجهاد الإسلامي مدة قرنين ونصف من الزمن، تلك هي مملكة غرناطة.

ثم كانت مرحلة حكم بني نصر أو بني الأحمر (612-897هـ = 1215-1492م)؛ ففي الوقت الذي أخذت فيه مدن الأندلس الكبرى تسقط تباعاً في أيدي الإسبان، وتعرضت البلاد لخطر الزوال، هيأت الظروف الداخلية والخارجية لقيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة، أسسها محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي، المعروف بابن الأحمر، نظراً لنضارة وجهه واحمرار شعره على الأرجح.

عمرت هذه المملكة مدة قرنين ونصف على الرغم من صغر حجمها الجغرافي وقلة عدد سكانها، وحافظت على ما بقي للمسلمين من سلطان سياسي وترات حضاري، ولا شك بأنه كان لهذا الصمود، طوال تلك المدة، أسباب لعل أهمها:

- بعد مملكة غرناطة عن متناول أيدي الممالك الإسبانية، فهي محصورة في الزاوية الجنوبية لشبه الجزيرة الإيبيرية فيما وراء نهر الوادي الكبير، آخر الحواجز الطبيعية بين الأندلس والممالك الإسبانية.

- سهل موقع المملكة عليها الاتصال بالمغرب طالبة العون من الدول المغربية كلما اشتد عليها الضغط الإسباني، وكانت الدولة المرينية في المغرب السند الرئيسي لها.

– دربت مملكة غرناطة سكانها على حمل السلاح واستعماله، والاستعداد الدائم لملاقاة العدو، وأضيفت إلى هذه القوة، قوة الوافدين إليها، وهم المسلمون الفارون أمام هجمات الإسبان، والمعروف أن غرناطة كانت ملاذاً لهؤلاء بعد سقوط المدن في أيدي الإسبان، يلتجئون إليها ويحتمون بها، كان بينهم المقاتلة والعلماء وقد صمموا على الصمود والتضحية.

– عامل الجهاد الذي التزم به سكان هذه المملكة إذ إن الالتزام بالإسلام والمعاني الإسلامية التي بقيت في نفوس الناس، وهبت الحياة لهذه المعاني، وهي التي جمعت هذه الطاقات ودفعتها للوقوف مجتمعة والاستعداد للبذل، كما كانت العامل وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم، ثم الانتفاع بكل الإمكانات الأخرى ضمن الظروف المتاحة.

برز محمد بن يوسف بن أحمد بن نصر الخزرجي، على مسرح الحياة السياسية في غمرة الصراع الإسلامي – الإسباني في الأندلس، وأصل هذه الأسرة من أرغونة، فالتف حوله الأتباع في أرغونة والمناطق المجاورة، ودخلت جيان وبسطة ووادي آش والحصون القريبة في طاعته، وانضم إلى جيشه كثير من المسلمين الذين غادروا المناطق التي استولى عليها الإسبان، فاستطاع تجهيز جيش كبير ساعده على تنفيذ مشاريعه، توجه محمد بن الأحمر بهذا الجيش إلى المناطق الجنوبية البعيدة عن هجمات الإسبان، وضم المناطق التي كانت تحت سيطرة ابن هود، وبعد وفاة هذا الأخير أعلن أشراف غرناطة ولاءهم له، ونبذوا طاعة عتبة بن يحيى المغيلي والي ابن هود، ثم استدعوه إلى مدينتهم، فسار إليها وتسلم حكمها في (شهر رمضان عام 635هـ = شهر نيسان عام 1238م)، فأضحت منذ ذلك الوقت قاعدة لحكمه، وهكذا قامت مملكة غرناطة، نتيجة الفوضى التي سادت الأندلس في الداخل، واعتداءات الإسبان في الخارج، وأضحى محمد بن الأحمر أمل الأندلسيين في إنقاذ بلادهم من الوضع المتردي الذي وصلت إليه.

عمل محمد بن الأحمر على حماية ما تبقى من الأراضي الأندلسية من اعتداءات الإسبان، إلا أنه اضطر بعد اصطدامات مع فرديناند الثالث ملك قشتالة أن يهادنه، عندما رأى أنه لا طاقة له بالاستمرار في الحرب بفعل تفوق الإسبان عليه، وضحى باستقلاله السياسي لقاء الاحتفاظ بأراضيه. وتم الاتفاق بين العاملين على أن:

– يحكم محمد بن الأحمر مملكته باسم ملك قشتالة.

– يؤدي ضريبة سنوية مقدارها 150 ألف قطعة ذهبية.

– يتنازل عن عدد من الحصون.

– يساعد الملك القشتالي في حربه ضد أعدائه من المسلمين.

– يحضر ابن الأحمر اجتماعات قشتالة النيابية بصفته تابعاً للعرش القشتالي.

وتأهب فرديناند عقب توقيع المعاهدة لمهاجمة إشبيلية، وبدأ باحتلال حصونها الأمامية، ثم ضرب الحصار عليها، وأرسل إليه محمد بن الأحمر قوة من الفرسان للمساعدة في عملية الحصار بصفته تابعاً له، دون تبصر بما قد ينتج عن هذه المساعدة، لأن الملك القشتالي لا بد أن يرتد على تابعه ابن الأحمر بعد تصفية جيوب المقاومة الأندلسية، وهكذا دفعت النزاعات الداخلية، وأطماع الأمراء لارتكاب فعل الخيانة، وهذه ظاهرة تفشت في الإمارات الأندلسية بعد سقوط الخلافة الأموية، واستسلمت إشبيلية بعد سنة ونصف من الحصار الشديد، وبعد مقاومة شجاعة، فدخلها فرديناند الثالث في عام (646هـ = 1248م)، وأزال معالمها الإسلامية وحول مسجدها إلى كنيسة، وتفرق سكانها على المدن الإسلامية الأخرى لا سيما غرناطة، وتلا سقوط إشبيلية، سقوط المناطق المجاورة لها، انتظر الأندلسيون مساعدة المغرب، حيث كانت أنظار الأندلسيين تتطلع دائماً نحو المغرب أثناء الشدائد.

وفعلاً تحرك بنو مرين حكام مراكش بناءً على نداءات الاستغاثة الأندلسية ودفعوا بجيش قوامه ثلاثة آلاف جندي، عدا المتطوعين، بقيادة محمد بن إدريس المريني، وأخيه الفارس عامر، عبر المضيق إلى الأندلس، وعند وصول هذه القوة، خشي ابن الأحمر عاقبة أفعاله، فبدل موقفه، وتحول إلى مهاجم للإسبان، وهزمهم في عام (662هـ = 1264م) بمساعدة القوة المغربية، خشي ألفونسو العاشر ملك قشتالة من هذه القوة الإسلامية، فتحرك على وجه السرعة للاستيلاء على ما تبقى من القواعد الأندلسية، فانتزع مدينة أستجة في عام (662هـ = 1264م)، وهاجم غرناطة نفسها، واضطر محمد بن الأحمر إلى مهادنته، وتنازل له عن بعض الحصون في غربي الأندلس.

لم يبق بيد الأندلسيين بعد حروب الاسترداد الإسبانية سوى رقعة ضيقة حول غرناطة، وتوفي محمد بن يوسف عام 671هـ = 1273م، وخلفه ابنه أبو عبد الله محمد الملقب بـالفقيه لعلمه. وسعى محمد هذا إلى التخلص من التزاماته الإقطاعية عن طريق التعاون مع بني مرين في مراكش، والواقع أن سلطان المغرب أبا يوسف يعقوب لم يتردد في تلبية نداء الاستغاثة والتدخل في شؤون الأندلس بعد أن تنازل له محمد عن الجزيرة الخضراء وجزيرة طريف، فعبرت جيوشه إلى هذه البلاد أربع مرات، ومع أنه استطاع أن ينتصر على الإسبان، فقد عجز عن إحداث أي تغيير في وضع الأراضي.

وسرعان ما أضحى الجنود المغاربة الذين تكفل بنو الأحمر بالإنفاق عليهم، عبئاً ثقيلاً على البلاد، وأخذ أبو عبد الله محمد بن الأحمر يرتاب بنوايا السلطان المغربي، ومن هنا سعى إلى الاستنجاد بألفونسو العاشر ضد حليفه المريني.

ونتيجة لسياسة التقلبات السريعة التي نفذها بنو الأحمر، استطاعوا أن يعمّروا مئتين وخمسين سنة، بصفتهم آخر سلالة إسلامية في الأندلس، وانحصروا في الإقليم الضيق الممتد من ساحل جبل طارق حتى المرية، إلى سلسلة جبال رندة، وجبال البيرة في الداخل. وسقطت غرناطة، آخر المعاقل الإسلامية في الأندلس، بيد فرديناند الخامس ملك قشتالة وإيزابيلا ملكة أراغون، بعد

اتحادهما في (شهر ربيع الأول عام 897هـ = شهر كانون الثاني 1492م)، في عهد آخر أمرائها محمد بن علي بن سعد أبو عبد الله.

وهكذا دخل الإسبان غرناطة وتوجه الأمير مع أهله إلى أندرش، في جبل البشرات المطل على غرناطة، وقد حددت هذه القرية مكاناً لإقامته تحت إشراف القشتاليين، وهو يذرف دموعه حسرة وألماً على المُلك الضائع، فنظرت إليه والدته عائشة الحرة ونهرته وقالت بيتها الشهير:

ابك مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال

وبسقوط غرناطة انتهت دولة المسلمين في الأندلس.

ـ حكام الأندلس:

1- عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك :

(ح 138 – 172هـ / 756 – 788م)

(ت 172هـ / 788م)

هو ممن أفلت من العباسيين لما قضوا على دولة بني أمية وقتلوا آخر خلفائها مروان بن محمد ، فهرب عبد الرحمن ومعه بدر مولاه إلى المغرب ، ثم أرسل بدراً ليهيء دخوله إلى الأندلس ، ثم دخلها وبايعه أهلها .

ودخل بعد ذلك في صراع مع والي الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري ، انتهى بمقتل الفهري ، فاستقامت الأندلس لعبد الرحمن ، فبدأ ببناء القصور فيها والمساجد ، وقطع دعوة العباسيين من منابرها ، فعرف بعبد الرحمن الداخل لأنه أول داخل للأندلس من ملوك بني مروان ، وسماه أبو جعفر المنصور صقر بني أمية (صقر قريش) لما رأى من قوته وبطولته .

وقضى في فترة حكمه على حركات العصيان ، وخاصة الحركات التي دعت لبني العباس ، ومنها حركة عبد الرحمن بن حبيب الفهري .

كان عبد الرحمن عالماً وشاعراً وحازماً ، وقد بنى الرصافة بقرطبة تشبهاً بجده هشام الذي بنى رصافة الشام .

2- هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك :

(ح 172 – 180هـ / 788 – 796م)

(ت 180هـ / 796م)

كان عبد الرحمن الداخل قد عهد إلى ابنه هشام مع وجود أخ له أكبر منه هو سليمان لأنه كان يتوسم فيه الشهامة والحزم ، وكان عند وفاة والده في ماردة ، فغادرها ، ودخل قرطبة ، وبويع فيها ، ولم يكد يستقر على كرسي الملك حتى خرج عليه أخوه سليمان ومعه أخوه الثاني عبد الله ، فدخل عبد الرحمن معهم في عدة حروب أسفرت عن استسلام عبد الله أولاً ، ثم الصلح مع سليمان ثانياً .

قمع عبد الرحمن عدة حركات خرجت عن حكمه وخاصة اليمانية ، وبعد أن فرغ من قتال أخويه وهؤلاء ، تفرغ للفتوحات ، فغزا بلاد الإسبان عدة مرات وانتصر عليهم . ولكثرة عدله وحبه للخير والإصلاح شُبّه بعمر بن عبد العزيز .

3- الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام :

(ح 180 – 206هـ / 796 – 721م)

(ت 206هـ / 721م)

لما توفي هشام تولى ابنه الحكم ، الذي كان صارماً متشبهاً بالجبابرة ، خرج عليه في بداية ولايته عماه سليمان وعبد الله ، فأفشلهما واستغل الإسبان ذلك فاحتلوا برشلونه .

ولتظاهره بشرب الخمر والإنهماك باللذات ، مع كون قرطبة دار علم و ورع ، اجتمع عليه العلماء والفقهاء وقرروا عزله وبايعوا غيره ، فعلم حقيقة الأمر ، وصلَب كل من تآمر عليه .

ثم أوقع بأهل طليطلة في وقعة الحفرة الشهيرة ، لما خدعهم وأرسل لهم واليه عمرو بن يوسف المعروف بالمولد ، وبعد عدة خدع دعا الكثير منهم إلى وليمة ، وفيها ضرب رقابهم في حفرة كبيرة .

كان للحكم بعض الغزوات التي انتصر فيها على الإسبان .

4- عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية :

(ح 206 – 238هـ / 821 – 852م)

(ت 238هـ / 852م)

تولى بعد موت أبيه ، فخرج عليه عبد الله عم أبيه ، و لم يحدث شيء ، وحدثت في عهده فتنة كبيرة بين اليمانية والمضرية ، فاقتتلوا فيما بينهم سبع سنين ، وهلك الآلاف ، وقد حاول عبد الرحمن إيقاف هذه الفتنة مرات وفشل .

انتفض عليه في مدة حكمه أهل ماردة وأهل طليطلة ، واستطاع إخماد الانتفاضتين بعد محاولات كثيرة . وكان لعبد الرحمن غزوات ضد الإسبان انتصر في بعضها .

وفي الجانب الحضاري بنى عدة قصور ومتنزهات وطرق وجوامع كثيرة ، وكان شاعراً وأديباً وعالماً بعلوم الشريعة وعلوم الفلسفة .

قسَّم الوزارة لأول مرة إلى عدة وزارات مختلفة يرأس كلاً منها وزير .

5- محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام :

(ح 238 – 273هـ / 852 – 886م)

(ت 273هـ – 886م)

تولى بعد وفاة أبيه ، وجرى على سيرته في العدل ، وجّه جيوشه إلى طليطلة ، فكاتب هؤلاء ملوك الإسبان واستنجدوا بهم ، فدخل محمد في قتال مع الطرفين وهزمهم ، ثم هاجم الفرنجة إشبيلية وأحرقوا مسجدها ، فلقيهم جيش الأمير محمد وأحرق لهم عدة مراكب .

حدثت عدة ثورات ضده ، وخاصة ثورة ابن حفصون ، فاستطاع قمعها جميعاً .

اعتنى محمد كثيراً بالأندلس وأبهتها وترتيب أمورها ، وهو أول من جلب الماء العذب إلى قرطبة .

6- المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام :

(ح 273 – 275هـ / 886 – 888م)

(ت 275هـ / 888م)

تولى بعد وفاة أبيه ، و لم تطل ولايته ، أول عمل قام به قتله وزير أبيه هاشم بن عبد العزيز ، وواجه ثورة ابن حفصون وهزمه ثم تصالحا ، لكن ابن حفصون نكث الصلح ، فرجع المنذر لحصاره وتوفي وهو محاصر له .

7- عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام :

(ح 275 – 300هـ / 888 – 912م)

(ت 300هـ / 912م)

تولى بعد وفاة أخيه المنذر ، انتفضت عليه الأندلس بجميع جهاتها ، وممن ثار ضده : محمد ابن تاكيت وابن حفصون وبعض خوارج اشبيلية ، فشغل أيامه في حربهم .

كان لعبد الله ولدان هما : محمد والمطرف ، وكان المطرف يُكثر من إيغار صدر والده على محمد ، واستغل يوماً خروج والده في بعض غزواته فقتل أخاه محمداً ، ثم أقدم على قتل وزير والده ، فاغتاظ أبوه عبد الله لذلك فقتله شر قتلة .

8- عبد الرحمن الناصر ابن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن :

(ح 300 – 350هـ / 912 – 961م)

(ت 350هـ / 961م)

لما توفي الأمير عبد الله تولى المُلك حفيده عبد الرحمن ، الذي تصدى للولاية بوجود أعمامه وأعمام أبيه ، فكان قوياً حازماً ، وهو أول من تلقب من بني أمية إقتداء ببني العباس ، فتلقب بالناصر لدين الله ، وبعهده بدأ عهد الخلافة في الأندلس فهو الذي أحيا الخلافة الأموية لما لقَّب نفسه بأمير المؤمنين ، فعُد أعظم أمراء بني أمية في الأندلس .

وقد وجد الأندلس مضطربة فسكّنها ، وقاتل المخالفين حتى أذعنوا له ، ومحا أثر ابن حفصون وثورته بعد أن خرج على الولاة الذين قبله ، فاستطاع أن يوطد أمن الأندلس . كان كثير الجهاد ، فقاتل الإفرنج في عدة معارك ، كما قاتل ملوك المغرب الأقصى وأخضعهم .

وفي النواحي الحضارية اهتم الناصر بعمارة الأندلس ، وجلب لذلك المهندسين والبنَّائين من كل قطر ، فبنى القصور ومنها دار الروضة ، وجلب لها الماء من الجبال ، وبنى المتنزهات ، واختط مدينة الزهراء وجعلها مترله ، واتخذ فيها القصور والبساتين والمصانع . وازدهرت الحياة الاقتصادية في عصره فامتلأت خزانة الدولة بالأموال ، وبلغت قرطبة ذروة التطور والتقدم الثقافي والحضاري .

9- الحكم المستنصر ابن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد :

(ح 350 – 366هـ / 961 – 976م)

(ت 366هـ / 976م)

تولى الحكم بعد وفاة أبيه الناصر ، فكثرت فتوحاته ، وهاجم الإسبان وهزمهم ، فطلبوا الصلح معه ، ومن أعظم فتوحاته فتح قلهرة من بلاد البشكنس ، وكانت له علاقات جيدة بالإجمال مع أهل المغرب الأقصى .

كان محباً للعلم والعلوم ومكرماً لأهلها ، جمّاعة للكتب حتى قيل أنه جمع منها ما لم يجمعه أحد قبله ، ووصلت إلى حدّ أربعمائة ألف مجلد ، فكان عالماً نبيهاً وصافي السريرة ، واهتم بالتعليم فبنى عدداً من المدارس ، وباتت جامعة قرطبة (المسجد الجامع) من أشهر جامعات العالم وقتذاك ، وأنشأ المكتبة الأندلسية وأغناها بالكتب الأساسية فكانت من أعظم المكتبات آنذاك .

10- هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر بن محمد:

(ح 366 – 399هـ / 976 – 1008م)

(سيحكم مرة ثانية)

تولى بعد وفاة أبيه ، وكان صغيراً ، وكان الحكم قد استوزر له محمد بن أبي عامر ، فاستبد هذا بهشام ومنع الوزراء من الوصول إليه ، وأرضى الجند بالعطاء ، فلم يبق لهشام من الأمر شيء إلا الخطبة والسكة ، والحكم والأمر والنهي كله لابن أبي عامر ، حتى إنه أقدم على قتل خدام القصر وأولياء الدولة والمرشحين للمناصب ، وابتنى لنفسه مدينة الزاهرة ، ولقب نفسه بالمنصور ، فعظم ملكه ، والذي جعل الناس يمدحونه غزوه لبلاد النصارى ، توفي المنصور سنة 393هـ ، فآل الأمر من بعده لابنه عبد الملك (الملك المظفر) فجرى على سنن أبيه في السياسة والغزو إلى أن توفي سنة 399هـ ، فقام بالأمر بعده أخوه عبد الرحمن (الناصر) وسار السيرة نفسها وحجر على الخليفة هشاماً ، وأقنعه بأن يكتب له بولاية العهد ففعل ، فهاج الناس لذلك ، فخلعوا هشاماً وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار ولقبوه بالمهدي ، فأقدم هذا على قتل عبد الرحمن الناصر ، وهكذا سيطرت دولة العامريين على فترة حكم هشام .

11- محمد المهدي ابن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر:

(ح 399 – 400هـ / 1008 – 1009م)

(سيحكم مرة ثانية)

كانت فترة حكمه عبارة عن صراع مع البربر ومن والاهم ، إذ تآمروا عليه يريدون خلعه ، وانضم إليهم سليمان بن الحكم ، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله ، فخرج إليهم المهدي وهزمهم في بادئ الأمر ، ثم كروا عليه وهزموه ودخلوا قرطبة ومعهم المستعين .

12- سليمان المستعين بالله ابن الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر :

(ح 400هـ / 1009م)

(سيحكم مرة ثانية)

لم يدم حكمه طويلاً ، فما إن دخل قرطبة واستولى عليها حتى هاجمه محمد بن هشام المهدي مستعيناً بالإسبان وهزمه هو والبرابرة الذين معه ، ودخل قرطبة ثانية .

13- محمد المهدي ابن هشام للمرة الثانية : (ح 400هـ / 1009م)

(ت 400هـ / 1009م)

لما دخل المهدي قرطبة ارتحل المستعين والبرابرة إلى الجزيرة الخضراء على شاطئ المغرب ، فاتبعهم المهدي والإسبان ، لكن المستعين انتصر عليهم ، وتوجه إلى قرطبة وحاصرها ، فخشي الناس على أنفسهم من البرابرة ، فأقدموا على قتل المهدي ، ثم اجتمعت العامة على تجديد البيعة لهشام المؤيد ليعتصموا به من البرابرة .

14- هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر للمرة الثانية :

(ح 400 – 403هـ / 1009 – 1012م)

(ت 403هـ / 1012م)

عاد إلى خلافته والبربر لا يزالون يحاصرون قرطبة ومعهم المستعين ، واستطاعوا فتحها بعد حصار شديد ودخلوها وقتلوا المؤيد هشام .

15- سليمان المستعين بالله ابن الحكم للمرة الثانية :

(ح 403 – 407هـ / 1012 – 1016م)

(ت 407هـ / 1016م)

تغلب على حكمه هذه المرة البرابرة والعبيد ، فتولوا أمر المدن وتقلدوا المناصب ، فتحرك وقتها أخوان من عقب إدريس هما : علي بن حمود وأخوه قاسم ، وانضم إليهما الكثيرون ، فحاصروا قرطبة وملكوها وقتلوا سليمان المستعين .

16- عبد الرحمن المستظهر بن هشام :

(ح 414هـ / 1023م)

(ت 414هـ / 1023م)

ظل حكم بني حمود في الأندلس سبع سنين ، انقطع خلالها ملك بني أمية ، إلى أن ثار عليهم أهل قرطبة وردوها إلى الأمويين ، واختاروا عبد الرحمن بن هشام وبايعوه ولقبوه المستظهر ، فثار عليه بعد شهرين من خلافته محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، وقتله وتولى مكانه .

17- محمد المستكفي ابن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر:

(ح 414 – 415هـ / 1023 – 1024م)

(ت 415هـ / 1024م)

ملك قرطبة بعد قتله المستظهر ، وبعد ستة عشر شهراً من حكمه أتاه يحيى بن علي بن حمود ، واستخلص قرطبة منه ، ففر المستكفي منها ، فملك بنو حمود قرطبة للمرة الثانية .

18- هشام المعتمد ابن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر:

(ح 418 – 422هـ / 1027 – 1030م)

(ت 428هـ / 1036م)

ثار أهل قرطبة على يحيى بن علي وخلعوه ، وأجمعوا على مبايعة هشام بن محمد الذي كان وقتها في ثغر لاردة ، وظل خارج قرطبة ثلاثة أعوام ، فلما اشتدت الفتن بين ملوك الطوائف ، استدعوه ، فجاء إلى قرطبة إلى أن خلعه الجند من الخلافة ، ففر إلى لاردة ، وهلك فيها ، وبخلعه انقطعت الدولة الأموية في الأندلس .

الدولة الزنكية : (521-631هـ/1127-1233م)

تنتسب أسرة آل زنكي إلى عماد الدين زنكي بن آقسنقر وهم من الأتراك ، وكان آقسنقر مملوكاً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ، وأصبح عنده من كبار أمرائه وأخلص أصدقائه ، وقد اشترك معه في معاركه ، فقلده ولاية حلب ، وظل كذلك إلى أن قُتل سنة 487هـ ، وكان ابنه عماد الدين زنكي مقيماً في حلب ، فأحاطه السلطان بركياروق السلجوقي برعايته

واهتم بتربيته ، واشترك وقتها عماد الدين في عدة معارك مع السلاجقة ضد الصليبيين وأظهر شجاعة نـــادرة ، واســـتطاع أن يكتسب رضى سلاطين السلاجقة ، وأن يتنقل في حكم البلاد ، فسلموه البصرة وواسط ، ثم ولوه على شحنكية بغداد والعراق ، ثم أقطعوه الموصل والجزيرة والشام ، ثم استولى هو بنفسه على حلب ، إلى أن قُتل وهو يجاهد سنة 541هـــ ، فانقســـمت أملاكه بين أبنائه .

الزنكيون في الموصل وحلب

1- عماد الدين زنكي بن آقسنقر في الموصل :

(ح : 521 – 541هـ / 1127 – 1146م)

(ت 541هـ / 1146م)

ينتمي عماد الدين إلى أسرة تركية ، وقد تولى أبوه آقسنقر ولاية الموصل ثم حلب زمن السلطان السلجوقي ملكشاه بن ألـــب أرسلان .

ظهرت فروسيته في سن مبكرة ، وذاع صيته في معركة ضد الصليبيين عند طبرية سنة 506هـ / 1112م ، فـــأظهر بســـالة وشجاعة ، فكافأه السلطان محمود السلجوقي بأن أقطعه البصرة وواسط ، ثم صار أتابكاً (وصياً) على اثنين من أبناء السلطان الذي عينه سنة 521هـ / 1127م أميراً على الموصل والجزيرة ، وبذلك نشأت أتابكية الموصل التي حكمها عماد الدين حتى وفاته .

استهل عماد الدين حكمه بتنظيم إمارته حسب النظم السلجوقية ، وجمع حوله خيرة الرجـــال ، ثم تطلـــع للاســـتقلال عـــن السلاجقة ، وهدف إلى السيطرة على حلب لموقعها الاستراتيجي الهام في مواجهة الصليبيين ، وتم له ذلك ، فبدأ مـــن هنـــاك حركة الجهاد ضد الصليبيين ، وكان أول انتصار له عليهم في حصن الأثارب الذي كانوا يغيرون منه على أهالي حلب ، فخرّبه وقتل وأسر من كان فيه ، ثم توالت انتصاراته على الصليبيين ففتح المعرة وبعلبك وغيرهما ، وكان النصر الأبرز فتحه لمدينة الرها أول إمارة صليبية تأسست في الشرق ، وكان عماد الدين ينوي إخضاع دمشق له ، لكنه اغتيل أثناء حصاره قلعة جعبر ، فترك تحقيق هذا الأمر لابنه محمود .

2- نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر في حلب :

(ح : 541 – 569هـ / 1146 – 1174م)

(ت 569هـ / 1174م)

بعد مقتل عماد الدين زنكي ، انقسمت أتابكيته بين ولديه ، فحصل ابنه الأمير غازي على مدينة الموصل ، في حين حصل ابنه الأصغر نور الدين محمود على مدينة حلب .

تابع نور الدين حركة الجهاد ضد الصليبيين الذين أرسلوا حملتهم الثانية كرد على تحرير عماد الدين للرها ، فدخلها ملكهم جوسلين وحاصر قلعتها ، فخرج له نورالدين من حلب ودخل الرها بعد أن هرب جوسلين ، وفتح عدة مدن ، وفتح حصون وقلاع الصليبيين في حارم وآنب وعين ثاب وعزاز ومرعش وغيرها .

ثم توجه نور الدين نحو دمشق التي كانت تحت سيطرة البوريين الذين تحالفوا عن طريق آخر أتابكتهم مجير الدين آبق مع مملكة بيت المقدس اللاتينية ، فقضى نور الدين على هذا التحالف ، وتمكن من دخول دمشق ، وقضى على الدولة البورية فيها .

ثم إن نور الدين تطلع إلى مصر ليوحدها مع الشام ضد الصليبيين ، فأرسل لها عدة حملات بقيادة أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الذي تحقق على يديه هذا الهدف عندما قضى على الدولة الفاطمية فيها .

كان نورا لدين إلى جانب كونه مجاهداً مصلحاً من الدرجة الأولى ، إذ توسع في إنشاء المدارس الخاصة بالمذاهب الأربعة ، كما أنشأ أول دار للحديث على وجه الأرض ، وهي دار الحديث النورية بدمشق ، وبنى البيمارستان النوري وأوقفه على الفقراء ، واهتم بالتجارة فأنشأ الخانات والأبراج وأزال المكوس المفروضه عليها .

توفي نور الدين ، فلم يكن في سير الملوك أحسن من سيرته ولا أكثر تحرياً للعدل منه .

3- الصالح إسماعيل بن نور الدين بن زنكي بن آق سنقر في حلب:

(ح: 569 – 577هـ / 1173 – 1181م)

(ت 577هـ / 1181م)

لم يترك نور الدين بعد وفاته سوى ابن طفل في الحادية عشرة من عمره اسمه اسماعيل ، وابنة صغيرة وزوجته عصمة الدين خاتون ، فاتفق الأمراء على تنصيب اسماعيل خلفاً لوالده ، وعينوا محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم وصياً عليه وقائداً للجيش ، وكان لإسماعيل ابنا عم هما سيف الدين غازي الثاني أمير الموصل ، وأخوه عماد الدين زنكي الثاني أمير سنجار ، وقد دبَّ النزاع بينهما ، فزاد ذلك من حدة انقسامات الدولة التي تحولت إلى ثلاث دويلات ، في الموصل وحلب ودمشق ، وهذا ما

دفع صلاح الدين الأيوبي إلى ضم الشام إلى مصر لتوحيد كلمة المسلمين في وجه الصليبيين والقضاء على انقسام الصف الإسلامي ، لاسيما وأن الصالح اسماعيل كان صغيراً لا يستطيع التصدي للصليبيين ، وكان لصلاح الدين ما أراد .

4- سيف الدين غازي الأول ابن عماد الدين زنكي في الموصل :

(ح : 541 – 544هـ / 1146 – 1149م)

(ت 544هـ / 1149م)

ترك عماد الدين زنكي بعد وفاته أربعة أولاد من الذكور هم : سيف الدين غازي ونور الدين محمود ونصرة الدين أمير أميران وقطب الدين مودود ، فحكم سيف الدين غازي الموصل وجعل أخاه مودوداً في رعايته ، وحكم نور الدين حلب وجعل أخاه أميران في رعايته ، ونسّق الأخوان أمورهما في محاربة الصليبيين ، واشتركا معاً في التصدي لهم ضد الحصار الذي فرضوه على دمشق لما استنجدت بهم هذه المدينة ، فخرجا معاً وأرغما الصليبيين على الرحيل عن دمشق ، ثم تعاونا معاً في فتح حصن العريمة على الساحل السوري ، ثم لم يلبث سيف الدين غازي أن توفي بعد حكم قصير للموصل دام ثلاث سنوات تقريباً .

وتراوحت العلاقات في عهده مع الخلافة العباسية والسلطنة السلجوقية بين التعاون والعداء أحياناً .

5- قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي في الموصل :

(ح : 544 – 565هـ / 1149 – 1170م)

(ت 565هـ / 1170م)

تولى الحكم بعد وفاة أخيه سيف الدين غازي الأول ، فتعرضت العلاقات مع أخيه نور الدين في حلب في بداية حكمه لأزمة خطيرة سرعان ما انتهت ، وعاد الوفاق بينهما ، واتحدا لمقاومة الصليبيين ، وتجلى ذلك في التصدي لهم وفتح عدة مدن ، فشكلا حملة مشتركة ضد حلف صليبي نتج عنه فتح مدينة حارم ، ثم اتفقا على الإغارة على كونتية طرابلس مستغلين تضعضع أوضاعها ووقوع أميرها ريموند الثالث في أسر نور الدين عقب فتح حارم ، فأغارا على النواحي المحيطة بها كجبلة وصافيتا .

وفي عهده كثرت الفتن الداخلية في السلطنة السلجوقية ، فكان قطب الدين يؤيد طرفاً دون الآخر ويتعاون معه .

6- سيف الدين غازي الثاني ابن قطب الدين مودود في الموصل :

(ح : 565 – 576هـ / 1170 – 1180م)

(ت 576هـ / 1180م)

أوصى قطب الدين مودود بالحكم من بعده لابنه الأكبر عماد الدين زنكي الثاني ، إلا أن نائبه فخر الدين عبد المسيح بالاتفاق مع زوجته خاتون حال دون توليته ، وأخذ العهد لولدها سيف الدين غازي الثاني ، وبات هو المسيطر على أمور البلاد وليس لسيف الدين شيء ، فأنف نور الدين محمود من هذه الأوضاع وقرر التوجه إلى الموصل لتسوية أمورها ، وبعد عدة انتصارات دخلها وأقر سيف الدين غازي عليها ، وأجرى عدة تغييرات فيها أهمها إبعاد فخر الدين عبد المسيح عنها ، وإعادة ترتيباتها الإدارية ، وقد ساهم سيف الدين مع عمه نور الدين في الجهاد ضد الصليبيين وتأديبهم ، كما استطاع أن يستعيد معظم ما كان لأبيه .

7- عز الدين مسعود الأول ابن قطب الدين مودود في الموصل وحلب :

(ح : 576 – 589هـ / 1180 – 1193م)

(ت 589هـ / 1193م)

كان سيف الدين غازي الثاني قد أوصى لأخيه عز الدين مسعود بحكم الموصل من بعده ، فتولاها ، كما أن الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود أوصى قبل وفاته بأن يخلفه في حكم حلب عز الدين مسعود الأول ، فلما توفي تسلمها عز الدين ، ولكن عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار عارض هذا الإجراء وعد حلب إرثاً له ، وكاد أن يدخل في صراع مع عز الدين ، لولا أن هذا الأخير غيَّر رأيه وتنازل له عنها مقابل أن يتنازل له عماد الدين عن سنجار .

أما صلاح الدين الأيوبي فإنه اعترض على كل هذه الإجراءات مبرراً أن هذه الأقاليم داخلة في حوزته لحاجته إليها في صد الصليبيين ، فبدأ يعد العدة للتوجه إلى بلاد الشام ، فتحرك عز الدين مسعود الأول ، وتحالف مع الصليبيين وحرضهم على أملاك صلاح الدين ، فتقدم صلاح الدين وحقق انتصارات سريعة إلى أن حاصر الموصل ، ثم ضم الجزيرة وحلب ، ثم عاد ليحاصر الموصل ثانية ، وانتهى الحصار بتوقيع صلح مع عز الدين مسعود الأول .

ثم اشترك مسعود مع صلاح الدين في الجهاد ضد الصليبيين ، في معركة طبرية وعكا وحطين وفتح بيت المقدس ، وما لبث صلاح الدين الدين أن توفي ، فاستغل مسعود ذلك لتوسيع نفوذه ، وما لبث أن توفي في العام نفسه .

8- نور الدين أرسلان شاه الأول ابن عز الدين مسعود الأول في الموصل:

(ح : 589 – 607هـ / 1193 – 1211م)

(ت 607هـ / 1211م)

تولى بعد وفاة أبيه عز الدين مسعود ، وانهمك في بداية حياته السياسية بالمشاكل الداخلية ، فدخل في صراع مع ابن عمه قطب الدين محمد الذي تولى سنجار بعد وفاة عماد الدين زنكي الثاني ، وتراوحت العلاقات بينه وبين الملك العادل الأيوبي بين التعاون والعداء ، فدخلوا في صراع مع بعضهما البعض في بداية الأمر ، ثم تعاونوا في حصار ماردين ، ثم تجدد الصراع مع العادل الذي شكل تكتلاً ضده ، وهزمه ، ثم ما لبث نور الدين أرسلان أن اشترك مع العادل في قتال الصليبيين في إمارة طرابلس ، وأنهيا صراعهما بتوقيع صلح عام 606هـ ، و لم تطل أيام نور الدين أرسلان بعدها .

9- عز الدين مسعود الثاني ابن نور الدين أرسلان شاه الأول في الموصل :

(ح : 607 – 615هـ / 1210 – 1218م)

(ت 615هـ / 1218م)

تولى بعهد من أبيه نور الدين أرسلان ، و لم يكن قد تجاوز العاشرة من عمره ، فتولى بدر الدين لؤلؤ تدبير شؤونه وشؤون دولته ، ودام حكمه ثماني سنوات لم تقع خلالها أحداث تستحق الذكر .

10- نورالدين أرسلان شاه الثاني ابن عز الدين مسعود الثاني في الموصل :

(ح : 615 – 616هـ / 1218 – 1219م)

(ت 616هـ / 1219م)

تولى بعد أبيه عز الدين مسعود الثاني ، وكان صغيراً ، فتولى الوصاية عليه بدر الدين لؤلؤ ، وقام بأمور دولته ، وارتبط كل شيء باسمه ، واستأثر بجميع الشؤون العامة والخاصة ، فشكل كل من عماد الدين زنكي الثالث ومظفر الدين كوكبوري تحالفاً ضده ، ونجحا في السيطرة على بعض القلاع ، فتحالف ضدهم مع الأشرف موسى الأيوبي ، وانتهت هذه المخاصمات بتوقيع صلح بين الطرفين .

11- ناصر الدين محمود ابن نور الدين أرسلان شاه الثاني في الموصل :

(ح : 616 – 631هـ / 1219 – 1233م)

(ت 631هـ / 1233م)

ولاّه الحكم بدر الدين لؤلؤ بعد وفاة أخيه أرسلان شاه الثاني ، وكان في الثالثة من عمره ، فتولى بدرالدين لؤلؤ الوصاية عليه ، وطمع بصغر سنه كل من عماد الدين زنكي الثالث ومظفر الدين كوكبوري ، فتصدى لهما بدر الدين لؤلؤ من دون أي فاعلية ، ثم دخل الطرفان في الصلح ، ثم تجدد النزاع بينهما .

ولما توفي ناصر الدين استبد بالدولة بعده بدر الدين لؤلؤ ثم أولاده من بعده ، فانقرض ملك الدولة الزنكية ومواليها .

الدولة الأيوبية : (567–655هـ/1171–1257م)

ينتسب أيوب الجد الأعلى للسلالة الأيوبية إلى قبيلة الهدبانيين الأكراد ، وقد عملوا لدى الجنود الأتراك ، فقد جنَّد القائد التركي عماد الدين زنكي أعداداً كبيرة من الأكراد المولعين بالقتال في صفوفه ، وكان منهم أيوب بن شادي بن مروان والد صلاح الدين ، وكان ذلك سنة 532هـ ، ودخل بعد ذلك مباشرة أخوه أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين في خدمة نور الدين محمود بن زنكي ، وفي عام 564هـ تسلم شيركوه السلطة في مصر ، واعترف جنده فيما بعد بابن أخيه صلاح الدين خليفة له بعد أن كان العاضد آخر خلفاء الفاطميين قد جعله وزيراً له ، واستطاع صلاح الدين المؤسس الحقيقي للدولة الأيوبية أن يقضي على آخر مظاهر الحكم الفاطمي في مصر .

1– صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شادي:

(ح 567 – 589هـ / 1171 – 1192م)

(ت 589هـ / 1192م)

يوسف بن أيوب بن شادي ، ظهر أول مرة على مسرح السياسة لما أرسل نور الدين محمود بن زنكي حملة إلى مصر بقيادة عم صلاح الدين أسد الدين شيركوه ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، ثم تقلد وزارة مصر ، ثم حقق نصراً على الصليبيين في دمياط ، ثم أصبح صاحب النفوذ المطلق في مصر بعد وفاة الخليفة العاضد الفاطمي آخر الخلفاء الفاطميين . ونشير إلى أن سلطان مصر من الأيوبيين كان هو صاحب السيادة على باقي الملوك في بقية المناطق .

ويمكن تقسيم عهد صلاح الدين إلى ثلاثة أدوار :

الأول : في مصر وهو طور الدفاع أمام الصليبيين وأنصار الفاطميين ، وصد الاعتداء في الداخل والخارج ، وتقوية سلطانه من الناحيتين السياسية والحربية .

والدور الثاني : في الشام ، ويبتدئ بوفاة نور الدين محمود ، فقد ظهر صلاح الدين بمظهر أكبر حاكم إسلامي في الشرق ، فبدأ يجمع القوات الإسلامية للصراع النهائي مع الصليبيين ، وخاصة أنه استطاع توحيد مصر والشام .

والدور الثالث : في فلسطين ، إذ وجه جهوده للحرب المقدسة مع الصليبيين ، وأغار على الولايات الصليبية الواحدة تلو الأخرى ، فبسط سلطانه على حلب والموصل وحصن طبرية وعكا ونابلس والرملة ويافا وبيروت وصور وطرابلس وعسقلان ، ثم كان انتصار حطين ، ومن بعده توج صلاح الدين كل جهوده بفتح بيت المقدس .

كان صلاح الدين رجل جهاد ورجل علم وإصلاح ، فهو أول من أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة ، وبدأ ببناء المدارس ، وأحب مجالس العلماء ، وأوقف على أعمال البر أوقافاً كثيرة في شتى أنحاء العالم الإسلامي .

2- العزيز عثمان بن يوسف بن أيوب :

(ح 589 – 595هـ / 1193 – 1198م)

(ت 595هـ / 1198م)

لما توفي صلاح الدين كان بدمشق ابنه الأفضل نور الدين ، فملكها مع الساحل وبعلبك وغيرهما ، وكان بحلب ابنه الظاهر غازي فاستولى عليها وعلى أعمالها ، وكان بمصر ابنه العزيز عثمان فاستولى عليها ، وكان بالكرك عمهم الملك العادل أبو بكر محمد بن أيوب ، وبهذه الكيفية انقسمت الدولة الأيوبية إلى ثلاث دول في مصر ودمشق وحلب ، وكان صاحب مصر هو صاحب السيادة على باقي الملوك ، لذلك تمت مبايعة العزيز عثمان ، وبدأت الأحداث في عهده بالصراع مع عز الدين مسعود بن مودود الزنكي وانتهى بوفاة الأخير ، ثم توجه العزيز إلى دمشق وحاصر أخاه الأفضل فيها الذي استنجد بدوره بإخوته وعمه الذين أصلحوا بين الأخوين ، ثم اتفق العزيز والعادل على أخذ دمشق من الأفضل وتسليمها للعادل ، فتم لهما ذلك .

كان العزيز قوياً وكريماً ، وبلغ من كرمه أنه لم تبق له خزانة مال .

3- المنصور بن العزيز بن يوسف بن أيوب :

(ح 595 – 596هـ / 1198 – 1200م)

(ت بعد 596هـ / 1200م)

لما توفي العزيز بن يوسف تولى بعده ابنه ناصر الدين محمد ولُقب بالملك المنصور ، ولأنه كان صغيراً لم يتجاوز الثامنة من عمره استدعى أرباب الدولة بمصر عمه الملك الأفضل ليكون وصياً عليه ، وكان ذلك ، ثم إن الأفضل طمع أن يأخذ دمشق وكان فيها عمه العادل ، وسانده في ذلك أخوه الظاهر صاحب حلب ، وجرى قتال بين الطرفين وكادت دمشق أن تسقط بيد الأفضل لولا أن حصل خلاف مع أخيه الظاهر ، فتركا حصار المدينة ، وبعد هذه الحادثة خرج العادل من دمشق قاصداً مصر

، ونازل القاهرة ، فاضطر الأفضل إلى تسليمها مقابل أن يُعوض عنها بمناطق أخرى ، فدخل العادل القاهرة ، وأعلن نفسه سلطاناً بعد خلعه للمنصور محمد .

4- العادل أبو بكر محمد بن أيوب بن شادي :

(ح 596 – 615هـ / 1200 – 1218م)

(ت 615هـ / 1218م)

نشأ في خدمة نور الدين محمود ، وكان أخوه صلاح الدين يستشيره ويعتمد على رأيه وعقله ودهائه ، فكان ملكاً جليلاً عميق الفكر بعيد الغور .

ولما دخل العادل القاهرة ، دخلها على أنه وصي على ابن أخيه المنصور محمد ، ولكنه أقدم على خلعه بعد مدة يسيرة ، واستقل بالحكم ، واستطاع أن يوحد الدولة الأيوبية مرة أخرى تحت حكمه لما قضى على محاولة أولاد أخيه الأفضل والظاهر في السيطرة على دمشق ومصر .

وبدأ العادل جهاد الصليبيين من جديد ، وحقق نصراً عليهم في بعرين عن طريق الملك المنصور صاحب حماة .

ثم دخل معهم في حروب جديدة انتهت بتوقيع هدنة تنازل لهم فيها عن يافا والناصرة وغيرهما ، ثم تجدد القتال ، وكان النصر سجالاً بين الطرفين في الشام وعكا وغيرهما ، إلى أن قصد الصليبيون مصر وحاصروا دمياط ، وتوفي العادل أثناء ذلك . وكان قد قسّم البلاد الأيوبية في حياته بين بنيه ، للكامل مصر ، وللمعظم عيسى دمشق والقدس وطبرية والكرك ، وللأشرف موسى الجزيرة ، ولغازي الرها وميافارقين ، ولخضر أرسلان قلعة جعبر ، فتجزأت الدولة الأيوبية من جديد .

وفي عهده العادل توفي الملك الظاهر صاحب حلب بعد أن عهد بالولاية من بعده لابنه الأصغر الملك العزيز ثم بعده لولده الكبير الملك الصالح ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن عبد العزيز .

5- الكامل محمد بن العادل محمد بن أيوب بن شادي :

(ح 615 – 635هـ / 1218 – 1238م)

(ت 635هـ / 1238م)

تسلم الكامل الحكم والصليبيون يحاصرون دمياط ، فبنى الاستحكامات جنوبيها وفي المنصورة ، وحسم النزاع الذي قام بينه وبين أقاربه ، وجاءته الإمدادات من حلب وحمص وحماة وغيرها ، ثم التقى بالصليبيين عند المنصورة وأغرق سفنهم وهزمهم ، فاضطروا إلى طلب الصلح ، وسمح لهم بالجلاء عن دمياط ، وعقدت بين الطرفين هدنة .

ولكن هذا الصلح بين الكامل والصليبيين لم يحل دون وقوع حرب صليبية أخرى ، فقد خرج الإمبراطور فردريك الثاني بحملته إلى فلسطين ، واضطر الملك الكامل – بسبب قيام نزاع بينه وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق – إلى عقد صلح مع فردريك على أن يتزل له الكامل عن بيت المقدس ، وهذا مأخذ سُجل في حق الكامل ، وعدها البعض هفوة.

ثم تجددت النزاعات بين الكامل وأقاربه ، وانتهت بدخوله دمشق قبل شهرين من وفاته .

تقدمت مصر في عهد الكامل تقدماً كبيراً ، فقد عمل على تحسين الري ، وأتم تحصين قلعة القاهرة ، وأسس كثيراً من معاهد العلم .

6- العادل الثاني ابن الكامل بن العادل بن أيوب:

(ح 635 – 637هـ / 1238 – 1240م)

(ت بعد 646هـ/ 1248م)

لما علم الأمراء في مصر بموت الكامل بايعوا ابنه سيف الدين أبا بكر الملقب بالملك العادل ، وأقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود نائباً له ، فأرسل العادل الثاني إلى الجواد يطلب منه ترك دمشق على أن يعوضه غيرها ، فلم يرض الجواد بذلك ، بل اتفق مع الملك الصالح أيوب بن الكامل صاحب سنجار والرقة على أن يتبادلا الإمارات ، فصارت دمشق للصالح أيوب وسنجار للجواد ، وكاتب المصريون الصالح أيوب سراً ليسلموه مصر ، وقبضوا على العادل ، وقدم الصالح أيوب ودخل مصر وملكها .

7- الصالح أيوب بن الكامل بن العادل بن أيوب :

(ح 637 – 647هـ / 1240 – 1249م)

(ت 647هـ / 1249م)

بدأ عهده بالشروع في بناء جزيرة الروضة التي ستكون مقر تدريب المماليك البحرية ، وقد قدم إليه الخوارزميون هاربين من جنكيز خان ملك التتر ، فعقد معهم صلحاً وحاربوا معاً الصليبيين واستولوا على غزة وبيت المقدس ودمشق .

والحدث الأبرز في عهد الصالح أيوب هو وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، الذي استولى بعد معركة شديدة على دمياط ، ثم عسكر بالقرب من المنصورة وانتصر على المصريين في أول الأمر ، وكاد يقتحم قصر السلطان لولا أن رده مماليك الصالح أيوب بقيادة بيبرس الذي انقض بجيشه على الصليبيين وقلب نصرهم هزيمة ، ولما أخذ الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة توفي الصالح أيوب ، وكان ابنه وولي عهده المعظم تورانشاه غائباً بحصن كيفا ، فتدبرت زوجته شجر الدر أمور الدولة ، وأخفت خبر وفاته .

8- تورانشاه بن الصالح أيوب :

(ح 647 – 648هـ / 1249 – 1250م)

(ت 648هـ / 1250م)

لما توفي الصالح أيوب كان تورانشاه غائباً في حصن كيفا ، ولم يكن والده قد أوصى له بالحكم ، فتدبرت شجر الدر هذا الأمر ، وطلبت من الأمراء أن يبايعوه ، وتم ذلك والصليبيون يتقدمون من دمياط إلى المنصورة ، ولما وصلوا إليها اشتد القتال عليهم من قبل الأيوبيين براً وبحراً حتى أن الصليبيين أرسلوا يطلبون القدس وبعض الساحل على أن يرحلوا عن دمياط ، فلم يجب طلبهم ، ودارت الدائرة على الفرنسيين وخاصة في فارسكور وهُزموا ، وأُسر لويس وكثير من رجاله ، وكان تورانشاه قد أحضر معه من كيفا بعض مماليكه ، فأغروه بقتل مماليك أبيه ، فلما عزم على ذلك ، اجتمع هؤلاء عليه وقتلوه شر قتلة .

9- شجر الدر : (ح 648هـ / 1250م)

(ت 648هـ / 1250م)

لما قُتل تورانشاه وقعت الفتنة بين الأمراء وتنازعوا الحكم ، فاستدركت شجر الدر الأمر وطلبت البيعة لنفسها ، فبايعها الجميع بشرط أن يكون عز الدين أيبك قائداً للعسكر ، وأول عمل قامت به عقد الصلح مع الفرنسيين وإطلاق سراح ملكهم لويس التاسع مقابل دمياط ومقابل فدية .

ثم إن أمراء دمشق الأيوبيين رفضوا الخطبة لشجر الدر ، بل كاتبوا الملك الناصر يوسف صاحب حلب فسار إليهم وملك دمشق ، فخاف أمراء مصر من ذلك ، وشعروا بالوقت نفسه بالحرج من تولية امرأة عليهم ، فأخرجت شجر الدر الجميع من هذا المأزق لما تزوجت من عز الدين أيبك وتنازلت له عن الحكم .

10- الأشرف موسى بن يوسف :

(ح 648 – 655هـ / 1250 – 1257م)

(ت بعد 655هـ/ 1257م)

لم يرض الأمراء الأيوبيون على تولية عز الدين أيبك ، لأنهم اتفقوا بعد ذلك على إقامة شخص من بني أيوب ، واختاروا لذلك الملك الأشرف موسى وقرروا أن يكون أيبك أتابك عسكره ، وما إن استلم الأشرف الحكم في مصر حتى خرج عليه الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب قاصداً مصر ، وحدثت معركة بين الفريقين انتصر فيها عساكر الأشرف موسى بقيادة أيبك ، الذي استبد بعد قليل بمصر وخلع الأشرف آخر رجال بني أيوب بمصر .

الدولة المملوكية 648 – 923هـ = 1250 – 1517م

نشأة المماليك وأصولهم وبداياتهم:

المماليك جمع مملوك، وهو اسم مشتق (اسم مفعول) من فعل (ملك)، ومعناه العبد المملوك، من أي لون أو جنس أو منبت، و سواء كان أسود البشرة أو أسمرها أو أشقرها.

والمملوك هو العبد الذي يباع ويشترى، لكن مصطلح (المماليك) أُطلق على فئة من العبيد الذين كان الأمراء والسلاطين والخلفاء يشتروهم ليصنعوا منهم رجالاً أشداء، ويشكلون منهم فرقاً خاصة في جيوشهم.

وقد قيل: إن لفظ مملوك في أصله اللغوي المستخرج من الفعل (ملك)، ويعني الرقيق الذي يُشترى بهدف تربيته والاستعانة به كجند، وهو على عكس كلمة عبد التي استُعملت في العصر الإسلامي الأول.

فالمملوك هو من مُلِك و لم يُمْلك أبواه، وهذه تأتي بمعنى السبي وهو الأسير، وهو ليس أصله من العبيد، وقد يكون مأسوراً أو مخطوفاً أو مملوكاً قهراً، وبيع في أسواق النخاسة.

ويجب علينا التمييز بين لفظتي (المماليك) و(العبيد)، فلفظة (مماليك) نفسها تعني ما يُملك بقصد تربيتهم والاستعانة بهم كجند أو ما شابه ذلك، على عكس لفظة (العبيد) التي تعني العبودية، فالعبد يُولد من الرقيق، بينما يُولد المملوك من أبوين حرين، كما أن العبد يعني أسود، بينما يكون المملوك أبيض، ويتشابه الاثنان في أنهما قد جمعتهما وحدة الغربة والمخاطرة.

ويرتبط اسم المماليك بالرق، والرق نظام عميق الجذور، عرفته الأمم وعرفه أصحاب الشرائع السابقة. وكانت الأمم القوية التي عاشت قبل الإسلام كالفرس والروم في العراق والشام ومصر تنظر إلى السكان الأصليين كما تنظر إلى العبيد، فاتخذت الكثيرين منهم أرقاء، فقد شاع هذا النظام عند اليونانيين والرومان والفرس و المصريين القدماء والهنود.

كما عرف اليهود الرق، وآمنوا بالتمييز العنصري، فهم لا يلاحظون الجانب الإنساني في غير اليهود، وعرف المسيحيون الرق أيضاً، وعرفه العرب في الجاهلية مثلهم مثل سائر الأمم الأخرى.

وعندما جاء الإسلام لم يكن هناك من يستغرب أحوال الرقيق، أو من يشعر بالحاجة إلى تعديلها، إلا أن الإسلام لم يأمر بالاسترقاق قط، ولم يرد في القرآن الكريم نص على جواز استرقاق الأسرى، ولكن الإسلام جاء فوجد الرق نظاماً عالمياً يقوم عليه الاقتصاد العالمي، ووجد استرقاق الأسرى عرفاً دولياً، فعمل على علاج تلك الظاهرة بتجفيف مصادر جلب الرقيق، بغية الوصول ــ مع مرور الزمن ــ إلى إلغائه من دون إحداث هزة اجتماعية لا يمكن ضبطها أو قيادتها، فبدأ الإسلام بتخفيف موارد الرق، ويسّر السبيل إلى تحرير الأسرى، وأخذ يعمل على تحرير الأرقاء، بوسائل وأساليب كثيرة.

ونتيجة استمرار الحروب بين الأمم انتشرت تجارة الرقيق في الدولة الإسلامية، كما انتشرت في غيرها من الدول، وتنوع الأرقاء، فمنهم السود ومنهم البيض (المماليك)، وبُذلت الأثمان الغالية في شرائهم، وكان الأتراك والصقالبة أشهر الرقيق الأبيض في القرون الوسطى، وكان الرقيق الصقالبة موضع تفضيل، وهم سكان البلاد المختلفة من بلغاريا العظمى التي امتدت أرضها من بحر قزوين إلى البحر الأدرياتي، كما تمتع الرقيق الأتراك بمكانة ممتازة في البيوت الإسلامية، وكانت أقاليم ما وراء النهر مصدراً مهماً لهم حيث أضحت تجارتهم أعظم مهنة هناك، أما الرقيق الصقالبة فطريقه الرئيسي هو الطريق الذي يبتدئ من شرق ألمانيا إلى إيطاليا وإلى فرنسا ومنها إلى إسبانيا الإسلامية (الأندلس).

وأُنشئت للرقيق أسواق وخانات في المدن الكبرى، أشهرها دار الرقيق في بغداد، وسوق الرقيق في دمشق، وسوق سامراء في العراق، وخان مسرور في القاهرة.

ويرجع استخدام المماليك في الجيوش العربية الإسلامية إلى أيام الدولة العباسية على الأرجح، على أن ذلك كان أوضح ما يكون في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله (ت 227 هـ = 841م) الذي شكّل منهم فرقاً عسكرية، وكان يُرسل من يشتريهم، واستكثر منهم حتى اختلفت الروايات في مقدار عددهم، فذكر المسعودي أن عدتهم بلغت أربعة آلاف، وقال ابن تغري بردي: إنهم ثمانية آلاف، وقال ابن دقماق: إنهم ثمانية عشر ألفاً، بينما استقر رأي العمري على أنهم ثلاثون ألفاً. وعندما ازدادت أعدادهم في بغداد، وصاروا يؤذون العوام فيها، بنى لهم المعتصم مدينة سامراء وأسكنهم فيها.

ولما ضعف سلطان الخلافة في الأقاليم، وجنح عمال الأطراف إلى الاستقلال بولاياتهم، وبات الجيش وقادته من الأتراك وسيلة الخلفاء للقضاء على الحركات الاستقلالية المختلفة، ازداد الأتراك أهمية على أهميتهم، وأضحى منهم الولاة والوزراء وأرباب الدولة، غير أن الحركات الاستقلالية ما لبثت أن أغرت الأتراك أنفسهم، حتى صارت معظم الدويلات الإسلامية منذ أواسط القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي من الترك، وهؤلاء جعلوا جيوشهم من جنسهم، بل إن بعض الدويلات غير التركية جعلت تكوين جيوشها أو حرس ملوكها على الأقل من المماليك الأتراك المجلوبين عن طريق الشراء.

وبذلك ظلت الدول القائمة آنذاك تعتمد على هذا العنصر، فالدولة الصفارية (254 -298هـ=868-911م) استعانت بهم، واستخدمهم السامانيون (261-389هـ=874-998م) في جيوشهم منذ عام 300هـ=912م، أما في مصر فقد استخدم هؤلاء المماليك كلٌ من الدولة الطولونية (254-292هـ=868-905م)، والدولة الإخشيدية (323-358هـ=935-969م)، ولما دخل الفاطميون مصر عام (358هـ=969م) اعتمد حكامهم الأوائل منذ أيام المعز (341-365هـ = 952-975م) على عناصر تركية.

ويجب هنا أن ننتبه إلى أن تعبير (المماليك) تطور عبر الزمن وأصبح يطلق بالمفهوم التاريخي على دولة أسسها في مصر والشام أولئك المماليك الذين أحضرهم صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه من بعده، مشكلين فئة خاصة، ذات ميزات منفردة وأسلوب منفرد في التاريخ كما سيوضح ذلك هذا الكتاب.

فكان للمماليك في مصر مركز خاص استثنائي، لا يمكن معه مقارنته بأي مماليك في أي مكان آخر في العالم، حتى مماليك بغداد حين تسلّطوا على الخليفة والحكم والقرار، لم يكونوا قادرين على تشكيل دولة أو فئة أرستقراطية عسكرية. وحتى في حالة تجمعاتهم الكبيرة وثوراتهم العامة (كثورة الزنج) فإنهم لم يشكلوا دولة، وكان تسلطهم أو سيادتهم عارضة و فردية لم تنتقل لخلفائهم أو لبني جلدتهم، على عكس ما حصل في مصر فيما بعد.

ولم يكن من الصعب الحصول على هؤلاء المماليك، ذلك أن تجارة العبيد كانت رائجة جداً في حينها، وكان الوضع الاقتصادي للقبائل سيئاً للغاية، وأصبح الوضع الاقتصادي في العصور الوسطى متداعياً جداً، وانتشرت المجاعات، وكثرت الحروب الصليبية وحروب التتار، وحروب قبائل البدو في الشرق والغرب، واضطر كثير من الأهل في مناطق وسط آسيا وشرق أوربا لبيع أولادهم، خصوصاً للدولة الإسلامية، لأنهم واثقون من حصول أولادهم على مستقبل أفضل، وخصوصاً أن بعض من سبقهم وصل إلى مراكز عالية بالسلطة، منها قادة الجيوش وحتى السلاطين. وقد شاعت الأخبار لدى هذه القبائل أن أولادهم سيلاقون مصيراً أفضل، وسعادة وسرعة في الوصول إلى الثراء، وسيترقون في الوظائف والمناصب، فما كان أهل تلك القبائل يرون غضاضة أو حرجاً في بيع أولادهم للنخّاسين الذين كانوا يعدونهم بحياة رغيدة ومستقبل عظيم بدلاً من حياة البؤس التي كانوا يعيشونها، مما جعل الرقيق لا يعتمد على سبايا الحرب فقط. وبعض هؤلاء المماليك لم يفقدوا صلتهم بأهاليهم بل أرسلوا بطلبهم للحضور، ومنهم برقوق الذي أحضر والده آنص وأهله.

على كل حال؛ لما انتقلت السلطة إلى الأيوبيين عام 567هـ =1171م ساروا على نهج الدول التي سبقتهم في الإكثار من شراء المماليك الأتراك واستخدامهم في الجيش، فكان جيش صلاح الدين مكوناً من عدة فرق منهم، وقام هو بنفسه بشراء مجموعة وكوّن منها فرقة يقال لها المماليك الصلاحية نسبة إليه، أو الناصرية نسبة إلى لقبه (الملك الناصر)، وبعد وفاته حدث كثير من المنازعات الداخلية بين أفراد البيت الأيوبي، فكان من الطبيعي أن تزداد أعداد المماليك الأتراك في أثناء تلك النزاعات، وأن يستمر بنو أيوب في جلب الرقيق لتغذية جيوشهم، وكان أكثر الأيوبيين جلباً للمماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

ولم يكن ثمة استمرار تاريخي يربط بين مماليك الأيوبيين ومماليك كلٍّ من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين، لأن هؤلاء كانوا أخلاطاً من البيض والسود، في حين كان مماليك الأيوبيين من الأتراك القفجاق.

فتعود أصول المماليك الذين جاؤوا إلى مصر إلى بلاد القفجاق الواقعة في حوض نهر الفولغا شمال البحر الأسود وفي القوقاز، حيث تعيش قبائل مختلفة من الأتراك والجراكسة والروس والمجر وغيرهم، فالصالح نجم الدين أيوب لما تولى الحكم اشترى منهم نحو ألف تقريباً وأمّر منهم جماعة في أثناء حياته.

كما تعود أصول غيرهم إلى شبه جزيرة القرم، وبلاد القوقاز، وآسيا الصغرى، وفارس، وتركستان، وبلاد ما وراء النهر، وأواسط آسيا، ومنغوليا، وكذلك كان يُستجلب المماليك من الأرمن والشركس والمغول، ومن الأتراك والروم والروس والأكراد، وكانت هنالك أقلية أوربية من اليونان وإسبانيا وألمانيا.

فالمماليك من أجناس مختلفة، إذ من الممكن أن تجد في القطعة العسكرية الواحدة أشخاصاً من مختلف الجنسيات الآسيوية والأوربية، ويسري هذا الحال على السلاطين، فالسلطان كتبغا مغولي الأصل، وخشقدم من أصل ألباني، وقد شاهد الرحالة الأوربيون الذين زاروا القاهرة في القرن التاسع الهجري = الخامس عشر الميلادي مماليك من أصول ألمانية وهنغارية وإيطالية أيضاً.

وكان التجار الأجانب يأتون بالمماليك غالباً عن طريق البحر، حيث يدخلون إلى القاهرة عن طريق ثغري دمياط والإسكندرية، بينما كان التجار المسلمون يأتون غالباً عن طريق البر، ثم يؤتى بالمماليك للبيع في أسواق القاهرة والإسكندرية وغيرها من الأماكن.

وكانت أثمان هؤلاء الرقيق تختلف بين قلة أو كثرة، وتصل أحياناً إلى أثمان باهظة، وذلك يعتمد على اللون والقوة ومقدار الجمال والذكاء.

ولم يتوقف سيل ورود المماليك الجدد حتى بعد سيطرتهم على الحكم، فقد استمر استجلابهم في عهد الظاهر بيبرس، والملك قلاوون، ثم السلطان حسن وبرقوق وبرسباي وقايتباي.

ولم يكن السلطان وحده الذي يستجلب المماليك، فلقد كان الأمراء أيضاً يشتروهم ويشكّلون منهم حرسهم الخاص، وعناصر جندهم المقربين، ولذلك كان المملوك الأسعد حظاً من يملكه السلطان الذي سيحرره فيما بعد ليكون أميراً على عشرة أو خمسين أو مئة، وقد يثب في ترقيته وثبة واحدة ليكون أمير ألف.

وكان المماليك يُنسبون إلى صاحبهم الأول أو إلى أستاذهم أو تاجر الرقيق الذي استجلبهم، مثل المماليك الذين عُرفوا باسم المماليك العثمانية، وقد نُسبوا إلى الخواجا عثمان الذي استجلبهم وكان أحد كبار تجار المماليك، وقد اشتهر بحسن بضاعته، لذلك كان الانتساب إليه من باب الفخر والاعتزاز. وكان يذكر نسبهم هذا بعد اسمهم، إذ لا جدوى من ذكر اسم عائلتهم الأصلي، فمثلاً: الظاهر بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، اسمه بيبرس، وتلقّب فيما بعد بالظاهر على عادة ذلك العصر، وكان علاء الدين البندقداري هو أول مالك له، ثم تسمّى بالصالحي نسبة إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بعد أن انتقل إلى خدمته، وبعد أن قام بيبرس نفسه بشراء المماليك من التجار أُطلق اسمه على مماليكه وتسموا بالمماليك الظاهرية.

بينما نجد أن السلطان قلاوون الألفي إنما أخذ اسمه (الألفي) من القيمة الباهظة التي دفعت لشرائه وهي ألف دينار، وكانت آنذاك مبلغاً جسيماً، مما كان مدعاة فخر لمالكه ولقلاوون نفسه. ولا تزال عائلة الألفي موجودة اليوم في مصر.

وقد غلبت تسمية الترك على هؤلاء المماليك، ولهذا قد يتبادر إلى الذهن أن هؤلاء كلهم من الجنس التركي، والواقع أن فيهم عدة أجناس أخرى، فمنهم من كان من أصل تركي كالظاهر بيبرس، أو جركسي كبرقوق، أو تتري كالعادل زين الدين كتبغا، وهناك مماليك من أجناس أخرى كالتركمان والأرمن والروم وغيرهم، واسم الترك غالب على مجملهم لكثرتهم وتميّزهم كما يقول ابن خلدون.

ـــ قيام دولة المماليك:

امتد عصر المماليك بين عامي 648- 923هـ = 1250-1517م منذ سقوط الأيوبيين إلى مجيء العثمانيين. ومنذ تأسيس دولة المماليك وحتى مقدم العثمانيين عام 923هـ = 1517م حكم المماليك أكثر من (275) عاماً، انقسموا خلالها إلى دولتين هما: الدولة البحرية ومؤسسها عز الدين أيبك، وحكمت نحو (135) عاماً بين سنتي 648-784 هـ = 1250-1382م، وكلمة البحرية أطلقت على طائفة من المماليك قبل تأسيس دولتهم، وهذه الطائفة هي التي أسكنها سيدها الصالح نجم الدين الأيوبي بقلعة الروضة في نهر النيل فعُرفوا بالبحرية، وصاحَبهم هذا الاسم.

و الدولة الثانية هي دولة المماليك الجركسية، وأصل معظم ملوكها من بلاد الجركس، لذلك سُموا بهذا الاسم، وسُموا باسم آخر هو البرجية، لأن المنصور قلاوون عندما أكثر من شرائهم حتى بلغ عددهم نحو ثلاثة آلاف وسبعمئة أسكنهم في أبراج قلعة الجبل، وقد استمرت هذه الدولة قرابة (139) عاماً، ويعد مؤسسها الظاهر برقوق العثماني الجركسي.

وقد توافر لدولة المماليك عوامل أدت إلى قيامها، وهي عديدة ومتنوعة، وداخلية وخارجية. وكان لدولة المماليك عوامل أدت إلى ثبات حكمها واستمراره قرابة ثلاثة قرون، وإليكم تفاصيل ذلك.

أ ــ ضعف الدولة الأيوبية والتنازل عن بيت المقدس والتفريط به مرتين:

ترك صلاح الدين الأيوبي بعد وفاته دولة واسعة الأرجاء، وسبعة عشر ولداً وبنتاً واحدة، وكان قد وزع خلال حياته السياسية البلاد الواقعة تحت سيطرته على أفراد عائلته مانحاً إياهم سلطات فعلية لممارسة السيادة، فتقاسم هؤلاء التركة الصلاحية بعد وفاته في ظل ما حدث من المؤامرات والحروب بينهم، إذ إن كلاً منهم كان يطمح في أن يضاهي نصيبه نصيب جاره أو يفوقه، ويرمي إلى تزعم العائلة الأيوبية، والحقيقة أنه ــ ومنذ وفاة صلاح الدين ــ لم يكن تاريخ الأيوبيين سوى قصة حفلت بالمؤامرات والحروب بين أفراد الأسرة الأيوبية.

وقد استطاع الملك العادل أخو صلاح الدين الأيوبي توحيد الدولة الأيوبية تحت سلطانه، وأصبح جميع الأمراء الأيوبيين خاضعين له، ثم بدأ بتنظيم الدولة، ووزع أولاده على الولايات، فارتكب بهذا التوزيع الخطأ نفسه الذي ارتكبه صلاح الدين عندما وزع إرثه على أولاده وإخوته، مما أدى إلى إضعاف الأيوبيين، فهذا التوزيع سبّب التنافر والتحاسد بين الإخوة، وأعاد المأساة التي حدثت بعد وفاة صلاح الدين من جديد.

وفي كل هذه المنافسات والمنازعات، كان الأيوبيون يستكثرون من شراء المماليك، وكانت كل مجموعة من هؤلاء تُنسب إلى صاحبها الذي اشتراها وتولاها بالتربية والتدريب، فالأسدية مثلاً سُميت بذلك نسبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين، والعادلية نسبة إلى الملك العادل أخي صلاح الدين، والكاملية نسبة إلى الكامل بن العادل، والصالحية نسبة إلى الصالح أيوب بن الكامل.

وتدل الأحداث على أنه كان لهؤلاء دور كبير في تطور الأحوال السياسية، وأثر فعّال في الحروب، وكانوا يتدخلون تدخلاً مؤثراً في شؤون الدولة الأيوبية، بل أسهموا في كثير من الأحيان في عزل السلاطين وتوليتهم، وهذا كان له أثر واضح في انتقال السلطة إلى المماليك.

وإن أخطر قضية حدثت في التاريخ الأيوبي ــ وربما الإسلامي ــ هي قضية تسليم بيت المقدس للصليبيين؛ وبدأ ذلك باتفاقية يافا سنة 626 هـ = 1228م، حين تنازل الكامل الأيوبي عنه، إذ وُقِّعت هذه الاتفاقية بين الطرفين الأيوبي بقيادة الكامل والصليبي بقيادة فريدريك، ونصّت على أن يأخذ ملك الفرنج بيت المقدس من المسلمين، «فأخلى الكامل البيت المقدس من المسلمين وسلّمه إلى الفرنج وصالحهم على ذلك».

وبعد هذا التسليم بعشر سنوات تقريباً، توجه الملك الناصر داود بعساكره ومن والاه إلى بيت المقدس، وحاصر القلعة التي بناها الفرنج، ونصب عليها المجانيق، ولم يزل على ذلك حتى سُلمت إليه بالأمان سنة 637هـ = 1239م. فعاد بيت المقدس للمسلمين.

ولم تمض أربع سنوات على تحرير بيت المقدس حتى تم التفريط به ثانية، ففي سنة 641هـ = 1243م وقعت مراسلة بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وعمه الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، وتقرر الاتفاق بينهما على تقاسم المصالح، فلم يُعمّر هذا الاتفاق طويلاً، إذ سرعان ما نُقض، لأن الصالح نجم الدين كاتب الخوارزمية، فاجتمع الفريق الثاني من الأيوبيين بقيادة الصالح إسماعيل وصالحوا الفرنج واتفقوا معهم على تسليمهم بيت المقدس.

والحمد لله أن بيت المقدس عاد في السنة التالية لتسليمه، وذلك سنة 642هـ = 1244م، عندما اقتحمه الخوارزميون، ولكنهم وللأسف اعتدوا على الأماكن المسيحية فيه، ودمروا وأتلفوا معظمها، وقاموا بعمليات نهب واسعة النطاق.

ب ــ فرقة المماليك البحرية:

بدأ الصالح نجم الدين الأيوبي بتكوين هذه الفرقة منذ أيام والده السلطان الكامل عندما كان نائباً له أثناء غيابه عن مصر (625- 627 هـ = 1228 – 1230م)، وذكر المؤرخون أنه كان مغرماً بشراء المماليك الأتراك، ويبدو أن سبب ذلك يكمن في اعتماده عليهم في حمايته من مؤامرات البيت الأيوبي، كما أحس بفساد نية المماليك الأشرفية والكاملية، وأنهم عازمون على الوثوب عليه وانتزاع البلد من يده.

ولما وصل إلى حكم الديار المصرية عام 637 هـ= 1239م، استكثر منهم حتى دفع ذلك عدداً من المؤرخين إلى القول إنه هو «الذي أنشأ المماليك الأتراك وأمّرهم بديار مصر»، فما كان من هؤلاء (كما ذكر ابن إياس وغيره) إلا أن عاثوا فساداً في البلاد «حتى ضاقت بهم القاهرة، وصاروا يشوشون على الناس، وينهبون البضائع من الدكاكين، فضجّ الناس منهم، فلما زاد أمرهم في أذى الناس شرع الملك الصالح في بناء قلعة بالروضة بالقرب من المقياس وأسكنهم بها، وسمّاهم المماليك البحرية، وكانت عدتهم ألف مملوك ... وجعل حول هذه القلعة مراكب بحرية مشحونة بالسلاح» ومعدّة لقتال الفرنج إذا طرقوا البلاد، فيكون هؤلاء المماليك على أهبة الاستعداد.

والروضة جزيرة تقع في نهر النيل، كانت تسمى جزيرة مصر، وهي ذات بساتين ومناظر جميلة.

ففرقة المماليك البحرية هذه كانت نواة دولة المماليك البحرية، وتصدت لأعظم خطرين واجهتهما المنطقة آنذاك: الصليبيين والمغول، وكان للكثير من أفرادها دور كبير في توطيد أركان الدولة وإرساء أُسسها، كقطز و بيبرس.

ج ــ دور تورانشاه وشجر الدر:

وصلت في عام 647هـ= 1249م إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة، حيث كان الصالح أيوب وقتها مريضاً، ثم ما لبث أن توفي في العام نفسه بعد أن أوصى بأن يكون السلطان من بعده لولده المعظم تورانشاه، الذي كان غائباً في حصن كيفا على نهر دجلة وقتذاك، فأرسلت شجر الدر زوجة الصالح أيوب في طلبه، وانجلت المعركة عن هزيمة الصليبيين، وانتصار جيش المماليك البحرية.

ويبدو أن تورانشاه لم يستفد من النصر إذ لم يكن الشخص المناسب للحكم، كما أنه لم يكن القائد القادر على مواجهة ظروف تلك المرحلة، فارتكب أفعالاً أودت بحياته في نهاية الأمر، وتسبّبت في انقراض الدولة الأيوبية، وبروز المماليك البحرية في الوقت نفسه.

فبعد الانتصار على الصليبيين قام تورانشاه بإبعاد أمراء دولة أبيه واعتقالهم ــ وهم أصحاب النصر الحقيقي ــ وقرّب غلمانه الذين جاؤوا معه من حصن كيفا، وولّاهم المناصب والوظائف السلطانية، ولم يقف عند هذا الحد، بل أرسل في طلب شجر الدر يتهددها ويطالبها بمال أبيه وثروته، فاستفزت هذه الأفعال المماليك البحرية، وحفّزتهم لتزعم مؤامرة ضده، فاتفقوا على قتله، و فعلوا، ومات تورانشاه جريحاً حريقاً غريقاً، فكان آخر حلقة في الدولة الأيوبية، وأول من ساهم بأفعاله بانتقال الحكم إلى المماليك البحرية.

أما شجر الدر؛ فقد قامت بأعمال حكيمة تدل على ذكائها، كانت ذات آثار عميقة في قيام دولة المماليك البحرية، ففي أثناء وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر وبعد استيلائها على دمياط، وفي أثناء كل ذلك توفي زوجها الصالح نجم الدين أيوب، فقامت بإخفاء نبأ وفاته، ثم أرسلت في طلب تورانشاه، فكان هذا التصرف سبباً في الإبقاء على معنويات الجيش، واستمراره في مقاومة الحملة الصليبية، والانتصار عليها في نهاية المطاف.

وبعد مقتل تورانشاه أضحى العرش شاغراً، فوقع الاختيار على شجر الدر لتولي السلطنة، فباشرت التواقيع، ونُقش اسمها على السكة، ثم دخلت في مفاوضات مع الصليبيين انتهت إلى إعادة دمياط للمسلمين، وفك الأسرى، وإطلاق سراح لويس التاسع مقابل مال مقدر. ولذلك عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين دولة المماليك البحرية، وتورانشاه آخر ملوك الأيوبيين.

وبعد تولي شجر الدر للسلطة تمردت الإمارات المختلفة واستقلّت معلنة رفض التبعية للسلطانة الجديدة، فانقسمت مصر والشام إلى قوتين متنازعتين، الأولى بأيدي المماليك في مصر، والثانية بأيدي الأيوبيين في الشام، ووقف الخليفة العباسي المستعصم بالله رافضاً مبدأ قيام امرأة في حكم المسلمين، وشعر المسلمون كذلك بحرج شديد في أن يتولى أمرهم امرأة، فأصبحت شجر الدر في مواجهة معارضة كبيرة تمثلت بـــ:

ــ موقف الخليفة العباسي.

ــ ثورات الأيوبيين.

ــ موقف المصريين أنفسهم الذين أبدوا امتعاضهم من أن تحكمهم امرأة.

وقد أخرجت شجر الدر الجميع من هذا المأزق عندما تزوجت المعز عز الدين أيبك، ثم تنازلت له عن الحكم بعد بلوغ أهل مصر قدوم التتار، فتكون شجر الدر بذلك قد نجحت في صد الحملة الصليبية من جهة، وهيأت البلاد لمواجهة التتار بتنازلها عن العرش من جهة ثانية، كما حسمت النزاع القائم بتولي العرش امرأة من جهة ثالثة.

وكما عدّ بعض المؤرخين شجر الدر أولى سلاطين المماليك، رأت فئة أخرى أنها آخر السلاطين الأيوبيين، وأن المعز عز الدين أيبك أول سلاطين المماليك.

ـــ حروب المماليك مع الصليبيين وإنهاء وجودهم:

1 ـــ الحملة الصليبية السابعة:

كانت محاولات الصليبيين تتجه للسيطرة على مصر واسترجاع ممتلكاتهم التي فقدوها في سورية على يد صلاح الدين الأيوبي، بل كانت فلسطين هدفاً رئيسياً للحملات الصليبية المتتابعة، وخاصة بعد أن استعاد صلاح الدين بيت المقدس، فصارت غاية الحملات الأولى الرد على انتصارات صلاح الدين بالسيطرة على بيت المقدس.

ولقد فهم الصليبيون أن السيطرة على بيت المقدس لا تتم إلا عن طريق السيطرة على مصر، وقد أبان ذلك المؤرخ ابن واصل، فقال في أحداث سنة 615هـ = 1218م: «فاجتمعوا للمشورة، فأشار عقلاؤهم ـــ أي الصليبيون ـــ بقصد الديار المصرية أولاً، وقالوا: إن الملك الناصر صلاح الدين إنما استولى على الممالك وأخرج القدس والساحل من أيدي الفرنج بملكه ديار مصر، وتقويته برجالها، فالمصلحة أن نقصد أولاً مصر ونملكها، وحينئذ فلا يبقى لنا مانع عن أخذ القدس وغيره من البلاد». ويُظهر المؤرخ الغربي أنتوني بردج هذه الحقيقة بقوله: «كانت مصر ... قلعة المسلمين، فإذا تم الاستيلاء عليها فإن جميع مناطق فلسطين الجنوبية بما فيها القدس ستسقط في أيدي المسيحيين دون قتال». ولذلك حاولوا السيطرة على مصر من خلال الحملة الصليبية السادسة، وكان ذلك جسراً لسيطرتهم على بيت المقدس الذي تنازل عنه الكامل الأيوبي سنة 626 هـ = 1228م.

على كل حال؛ في عام 647 هـ= 1249م، وصلت إلى مصر الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، وكان من أهم أسبابها:

ـــ إنزال المسلمين ضربات قاسية بالصليبيين، فصارت باقي معاقلهم مهددة بالخطر والضياع.

ـــ إرسال صليبيّ الشرق الرسل إلى أوربا يستنجدون بهم، وينذرونهم بضياع ممتلكاتهم.

ـــ مساندة البابا أنوسنت الثالث مشروع لويس التاسع في غزو الأراضي المقدسة.

ـــ أراد لويس التاسع أن يحد من التعاون والتبادل التجاري بين الإمارات الإيطالية والمسلمين، متهماً هذه الإمارات بتناسي الأهداف الصليبية التي من أجلها قدموا إلى الأراضي المقدسة.

وفي عام 647 هـ = 1249م، وصلت إلى دمياط الحملة الصليبية السابعة واستطاعت الاستيلاء عليها، مما أحزن الصالح أيوب كثيراً حتى إنه أقدم على شنق ما يزيد على خمسين أميراً ممن تركوا مواقعهم الدفاعية وهربوا في أثناء الحملة، فأخاف هذا التصرف مماليكه ففكروا بقتله لولا أن نهاهم عن ذلك أحد الأمراء لأن الصالح أيوب كان مريضاً، فانتظروا وفاته التي حلت عام 647 هـ= 1249م، فكانت وفاته في هذه الظروف الحرجة خسارة كبيرة، وفي ظل

هذه الأوضاع ظهرت زوجته شجر الدر، واستطاعت أن تضبط الأمور وأن تخفي نبأ وفاته، وأرسلت في طلب ابنه تورانشاه، وفي مدة غيابه قامت بإدارة أمور البلاد. أما الصليبيون فإنهم توجهوا من دمياط ووصلوا إلى المنصورة وهناك اصطدموا بجيش المماليك البحرية عام 648هـ=1250م، ووقع قتال شديد انتهى بهزيمة الصليبيين، وأسر قائدهم لويس التاسع. وتسبب هذا الانتصار في رفع مكانة المماليك في نفوس الناس فالتفوا حولهم وتناصروا بهم.

2 ــ أعمال الظاهر بيبرس ضد الصليبيين:

شهدت الإمارات الصليبية منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي ضعفاً داخلياً نتيجة الخلافات الحادة التي نشأت داخل مجتمعهم بين مختلف فئاته، فشغلتهم هذه الخلافات عن الالتفات نحو المسلمين، ولما توطدت دعائم دولة المماليك نتيجة للإجراءات التي اتخذها بيبرس رأى ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين.

فبعد أن تمكن السلطان الظاهر بيبرس من العمل على ترسيخ أركان حكمه والقضاء على منافسيه في الحكم، تفرّغ للعمل على مواجهة الأخطار الخارجية التي تهدد الدولة المملوكية، وأبرزها خطر الصليبيين الذين يسيطرون على عدد من المناطق الساحلية في بلاد الشام، والتي تشكل شوكة في خاصرة الدولة المملوكية، لذلك قرر تحريرها، ففي عام 663هـ = 1265م فتح قيسارية، ثم دمرها مع قلعتها، وبعد أيام وصل إلى حيفا، وقد فرّ منها معظم الصليبيين فدخلها ودمرها، ثم هاجم قلعة عثليث، وبعدها زحف باتجاه أرسوف التي استسلمت له.

ومن بين تلك المناطق التي حررها بيبرس قلعة صفد التي سلمها الملك الأيوبي الصالح إسماعيل مع الشقيف والعديد من مناطق الجليل للصليبيين سنة 638هـ =1240م. فأرسل بيبرس سنة 664هـ = 1266م مجموعة من المقاتلين بقيادة الأمير علاء الدين أيديكين لحصار صفد، وقام بتفريق العساكر في المنطقة الواقعة بين طرابلس وعثليث، بينما بقي أمام مدينة عكا محاصراً لها، ثم توجه إلى صفد وتولى بنفسه عملية الحصار، وما لبث أن أمر بجلب المنجنيقات من دمشق، ثم أمر جميع القوات الموزعة لقتال القلاع الصليبية بالقدوم للمشاركة في حصار صفد، فبدأت عملية التحرير، ورُميت القلعة بالمنجنيقات، وأحدث النقّابون ثقوباً عديدة في القلعة، واشتدّ القتال واستمر أشهراً، ولما تحولت كفة القتال لصالح المسلمين قام الصليبيون بالاتصال بالسلطان الظاهر بيبرس، وطلبوا الصلح، فاشترط عليهم شروطاً مقابل ذلك، وكان بين المقاتلين في القلعة عدد من المسيحيين المحليين السريان، فقام بيبرس بإعطاء الأمان لهم، فأخذوا يفرون من القلعة، وتحالف مع جماعة منهم على أن يفتحوا له الأبواب.

وأدى هذا إلى اشتداد الخلاف بين الصليبيين والسريان، فراسل الصليبيون المماليك طالبين الأمان، فمنحهم إياه بيبرس، مقابل تسليم القلعة حسب الشروط التي تم الاتفاق عليها في بداية المراسلات، وبدأت عملية إجلاء الصليبيين، الذين أخرجوا معهم الأسلحة والفضيات، وأخفوها في الأمتعة، وأخذوا جماعة من الأسرى المسلمين على أنهم نصارى. فعُدّ ذلك نقضاً لشروط التسليم، فأمر بيبرس بضرب رقابهم على تل قريب من صفد، كان الصليبيون يقتلون فيه أسرى المسلمين، وبعد ذلك قام السلطان بضبط الأوضاع في صفد ونقل الأسلحة إلى قلعتها.

ثم توجه بيبرس نحو تحرير حصني هونين وتبنين القريبين من صفد، وكان له ذلك سنة 665هـ = 1267م، فألحقهما بنيابة صفد، ثم حرر يافا سنة 666هـ = 1268م، ثم قصد بيبرس في السنة نفسها أنطاكية وفاوض المحاصَرين فيها، فلم تؤت هذه المفاوضات ثمارها، وعند ذلك اقتحمها الجيش المملوكي وتمكن من السيطرة عليها غانماً منها غنائم وافرة. ويُعدّ سقوط أنطاكية كارثة حقيقية للصليبيين في بلاد الشام لأنها بحكم موقعها الجغرافي كانت تشكل لهم سنداً قوياً منذ بداية الحروب الصليبية، يضاف إلى هذا أنها أول إمارة صليبية أُسست في الشرق مع الرها، وقد عاشت مئة وواحداً وسبعين عاماً، لذلك عُدّ تدميرها نكسة كبيرة للصليبيين، فضلاً عن أن انهيارها عجّل في انهيار الصليبيين في شمال سورية.

ثم اتجه بيبرس في السنة نفسها إلى الشقيف، وأمر نائب الشام بالتوجه إليها معه أيضاً، فقاما بفرض الحصار عليها، واشتد الحصار على المتواجدين في القلعة، واستطاع بيبرس بحنكته أن يثير الخلافات بين الصليبيين ضد بعضهم البعض، فقرروا تسليم الشقيف مقابل حصولهم على الأمان، وبذلك نجح في تحرير هذه القلعة المهمة.

ثم توجه بيبرس نحو قلعة القرين سنة 669هـ=1271م ــ التي كانت تشكل منطلقاً للإغارة على نيابة صفد ــ وفرض الحصار عليها، ورماها بالمنجنيقات، إلى أن سقطت، فأخاف سقوطها حاكم صور الصليبي، فقام بمراسلة السلطان الظاهر بيبرس طالباً الصلح، ومتنازلاً عن عشرة بلدان من صور.

وفي عام 669هـ = 1271م أيضاً ظهر الظاهر بيبرس أمام صافيتا، فاستسلمت له، ثم توجه مباشرة نحو قلعة الحصن، وحاصرها ثلاثة أسابيع، ثم دخلها وخضعت له، وبعد حصار دام أسبوعين سقط حصن عكار بيد المماليك، وبذلك أضحى بيبرس على مشارف إمارة طرابلس التي كان ينوي استعادتها، ولم يكن يمنعه عنها سوى وصول حملة صليبية إنكليزية بقيادة ولي عهد إنكلترا إدوارد، وفي الوقت نفسه التمس بوهيموند السادس القائم على إمارة طرابلس عقد هدنة مع المماليك فوافق بيبرس على ذلك، كما أن ولي عهد إنكلترا إدوارد طلب أيضاً توقيع هدنة مع الظاهر بيبرس، فوافقه عليها، وبعد هذه الهدنة توقف القتال بين الطرفين حتى وفاة الظاهر بيبرس.

3 ــ أعمال قلاوون وسلالته.

- تحرير المرقب 684هـ = 1285م:

أقدم قلاوون سنة 682 هـ = 1283م ــ كتمهيد لفتح المرقب ــ على تحرير المناطق التالية: فتح قلعة قطيبا، وفتح حصن الكختا، وفتح مدينة أياس.

وكانت قلعة المرقب للإسبتارية، وحكمها راجع إلى مقدّمهم في عكا فرير كليام جوان دو مونفرت، وكانت تشكل رأس حربة للصليبيين، ولم يطمع أحد من الملوك السابقين بفتحها. وكان الظاهر بيبرس قد هادنهم سنة 666هـ = 1268م لمدة عشر سنين، وكان الفرنجة الذين بحصن المرقب قد بلغهم هجوم التتار على الحدود الشمالية لدولة

المماليك، وانسحاب قواتهم من حلب، فتجرؤوا وآذوا المسلمين، فتوجه المنصور قلاوون لتأديبهم وتهديد من خلفهم من الفرنجة في عكا وطرابلس وأوربا.

لقد هيّأ قلاوون للمعركة جيشاً قوياً ومجهزاً بكل آلات القتال، ولما بدأ القتال ظلت المنجنيقات المملوكية ترمي سور المرقب الحصين على مدى شهر كامل، ثم نجح المهندسون بإحداث فجوة تحت (برج الأمل) في نهاية الزاوية الشمالية للقلعة، ووضعوا بها الأخشاب سريعة الاشتعال، فأخذ البرج يهوي، و لم يسع رجال الحامية إلا الاستسلام.

وبعد أن استولى قلاوون على حصن المرقب، تفرّغ لحصن مرقيّة في سواحل حمص الذي كان تابعاً لفرسان المعبد الداويّة، فاستطاع هدمه سنة 684هـ = 1285م.

ـ تحرير اللاذقية سنة 686 هـ = 1287م:

تم سنة 680 هـ = 1281م الاتفاق بين السلطان قلاوون ومتملك طرابلس بيموند بن بيموند على هدنة وشروط؛ منها ما يخص اللاذقية تحديداً، فتم الاتفاق أن تُجبى رسوم وضرائب اللاذقية عن طريق الميناء والبرج، وتُوزع مناصفة بين الطرفين. و كانت اللاذقية آخر ما تبقى من إمارة أنطاكية الصليبية.

وحدث فيما بعد أن اشتكى تجار حلب للسلطان المنصور قلاوون بأنهم لا يرتاحون لإرسال بضائعهم إلى الميناء الصليبي في اللاذقية، ثم وقع زلزال في اللاذقية ألحق ضرراً بأسوارها، فوجد السلطان أن الفرصة قد تهيّأت لتحريرها، عندها أعلن صاحب طرابلس أن هذه المدينة مشمولة بالهدنة لأنها تابعة لأنطاكية، وليس لطرابلس. ويبدو أن قلاوون لم يعترف بذلك إذ أرسل الأمير طرنطاي لاحتلالها، فسقطت بيده من دون عناء.

ـ تحرير طرابلس سنة 688 هـ = 1289م:

كان تحرير طرابلس من آخر الأعمال العسكرية الحاسمة التي قام بها السلطان المنصور قلاوون، وكان قد احتلها الصليبيون سنة 502هـ = 1108م بعد حصار دام عدة سنوات. وقد أجمع المؤرخون المسلمون على أن سبب مهاجمة السلطان لطرابلس، رغم وجود المعاهدة أو الهدنة، كان بسبب غدر أهلها بالتجار والمسلمين ومخالفتهم شروط الهدنة.

وكان بيموند السادس أمير طرابلس منذ سنة 659هـ = 1260م وراء استدعاء المغول إلى الشام والاتفاق معهم على التنكيل بالمسلمين، وصار المماليك يتحيّنون الفرصة المناسبة لتأديبه، فما كان من بارتلميو صاحب جبيل ورئيس كومون طرابلس إلا أن استنجد بالسلطان قلاوون ضد خصومه الصليبيين، فجاءت الأساطيل الصليبية لنجدة طرابلس ولكنها وصلت متأخرة، إذ هيّأ السلطان المملوكي المنصور قلاوون جيشه سنة 688هـ = 1289م، وباشر بحصارها ناصباً عليها 19 منجنيقاً، وكان عدد الحجّارين والزرّاقين الذين يقذفون النيران 1500 نفر، واقتصر الحصار على جهة الشرق فقط، لأن البحر كان يحيط بها من باقي الجهات.

وبعد أن دمرت المنجنيقات عدة أبراج هرب البنادقة بعد أن شحنوا سفنهم بأغلى ما عندهم، و أقلعوا خارج الميناء، ثم تبعهم الجنويون، الأمر الذي أثار الذعر في صفوف الصليبيين. ثم أمر قلاوون بشّن الهجوم العام، ودخل المماليك المدينة، فاندفع الصليبيون نحو السفن وهربوا، فتحررت طرابلس بعد 185 سنة من الاحتلال الصليبي.

ـــ تحرير مدينة عكا آخر المعاقل الصليبية في بلاد الشام:

يعدُّ تحرير عكا من المواقع الفاصلة في التاريخ العربي الإسلامي، ويقاس بأهمية معركة حطين سنة 583هـ = 1187م أو معركة المنصورة سنة 648هـ = 1250م، فتحريرها أدى إلى تحرير الساحل السوري بأكمله من الصليبيين.

وقد سقطت هذه المدينة بيد الصليبيين سنة 497 هـ = 1104م، ثم أصبحت ميناء مملكة بيت المقدس الرئيسي، وتوالت عليها أعمال البناء والتحصين على مدى أكثر من ثمانين عاماً، ثم حررها الناصر صلاح الدين سنة 583 هـ = 1187م عقب معركة حطين، ثم استولى عليها الصليبيون سنة 587هـ = 1187م بعد حصار وقتال شديدين داما قرابة ثلاث سنوات. فصارت قلعة حصينة وقاعدة رئيسية للصليبيين؛ إذ كان خط أوربا ـــ قبرص ـــ عكا هو شريان الأمل والحياة للصليبيين في الشام، ولذلك فإن انهيار عكا كان يعني انهيار القاعدة العسكرية الشامية بالنسبة للصليبيين.

وقد عقد الطرفان المملوكي والصليبي هدنتين؛ الأولى سنة 670هـ =1272م، والثانية سنة680هـ =1281م. إلا أن هذه الهدنة نُقضت في سنة 689هـ =1290م؛ بوصول حملة صليبية إلى عكا، فكان ذلك من أهم أسباب توجه المماليك نحو تحريرها، فلقد وصلت حملة صليبية من إيطالية، قام فيها الصليبيون بذبح كل من كان داخل مدينة عكا من التجار المسلمين الذين قصدوها في ظل الأمان المعطى لهم بعد عقد الصلح بين السلطان المنصور قلاوون والصليبيين، فلما رأى السلطان قلاوون ملابس ضحايا المسلمين مضرجة بالدماء، استشاط غضباً، وكان قد عزم على الحج، فقدّم الجهاد عليه، وأعد لذلك عدته، فأرسل الصليبيون يعتذرون إليه، وقالوا إن الأمر كان عربدة وسكراً بين مسلمين ونصارى، ومن جهتنا فقد شنقنا النصارى، فردّ عليهم قلاوون: «صدقتم، أنتم شنقتم، ولكن شنقتم المسلمين، ونحن واصلون بمشيئة الله تعالى إليكم، فجهّزوا الضيافة»، فرفض الاعتذار، وأعلن الحرب على الصليبيين، و لم يكد يفرغ من الاستعدادات الحربية ويغادر القاهرة لحربهم حتى أدركه أجله سنة 689هـ=1290م بعد أن أمضى زهاء ثلاثين عاماً في محاربة الصليبيين والمغول أميراً وسلطاناً.

وعندما استلم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون المهمة بدأ يستعد لفتح عكا، فأنفذت حكومة عكا من جديد سفارة إلى الملك الأشرف للتعزية بوفاة والده ومحاولة تجديد الصفاء القديم، وكانت برئاسة فيليب ماينبيق ـــ وكان يحسن العربية ـــ، لكن الأشرف رفض مقابلة الوفد، بل أدخلهم السجن.

وقد حملت استعداداته سكان مدينة عكا الصليبيين إلى توجيه استغاثات عاجلة إلى أوربا الغربية، فوصل إليها عدد من الفرسان الإنكليز وغيرهم. وكان عدد الجيش المملوكي كما قدّره المؤرخون 60 ألفاً من الفرسان و160 ألفاً من المشاة، وفاق عدد المتطوعة هذا العدد، وكان يتقدمهم 92 منجنيقاً تم تجهيزها في دمشق.

وأخذت المنجنيقات الإسلامية تقذف عكا ليل نهار، واستمر الحصار والرمي حتى هُدمت أعالي الأبراج، وتمكنت القوات المملوكية من إحداث عدة نقوب في الأسوار، وفي يوم الجمعة 17 جمادى الأولى 690 هـ = 18 أيّار سنة 1291م أمر الملك الأشرف بالهجوم العام على عكا، فتزلزلت المدينة ومن فيها، ثم اقتحمها الجنود وهم يكبرون ويهللون، فهرب الفرنج، وفُتحت المدينة بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً.

بعد ذلك قامت القوات المملوكية بفتح المراكز القليلة الباقية بأيدي الصليبيين مثل صور وصيدا وعثليث وأنطرطوس وجبيل وبيروت.

4ـ تحرير الساحل السوري:

ـ تحرير صور: عندما توجّه الملك الأشرف خليل إلى تحرير عكا، جهّز جماعة من الجند ووجههم نحو صور، فلما فُتحت عكا وعلم أهل صور بذلك، هربوا وأخلوا صور، فسيطر عليها المماليك سنة 690هـ = 1291م.

ـ تحرير صيدا: لما قرر المماليك تخليصها من الصليبيين، توجه الأميران علم الدين سنجر الشجاعي نائب دمشق ومعه زين الدين كتبغا لحصارها، إلى أن حرروها سنة 690هـ = 1291م.

ـ تحرير حيفا: احتلها الصليبيون ثلاث مرات، إلى أن جاء الأشرف خليل وحررها نهائياً سنة 690هـ = 1291م.

ـ تحرير بيروت: احتلها الصليبيون مرتين، وكان أهل بيروت في هدنة مع المسلمين، لكنهم فيما بعد آووا من هرب من الفرنج من عكا وغيرها، فخالفوا شروط الهدنة، كما طُلب منهم أن يضموا مراكبهم إلى مراكب المسلمين أثناء حصار عكا، فرفضوا، ففُرض عليهم حصار بحري، ثم أخُرجوا منها سنة 690 هـ = 1291م، وحرر المماليك القلعة.

ـ تحرير عثليث: احتلها الصليبيون مرتين، وفي سنة 690هـ = 1291م ـ وهي سنة الانهيار العام للصليبيين ـ هرب سكانها، فهدم المسلمون الحصن وحرروها.

ـ تحرير جبيل: احتلها الصليبيون مرتين، فلما سقطت عكا أمر السلطان الأشرف خليل بتهديم قلعة جبيل وأسوارها، ثم جاء الأمير علم الدين الشجاعي فسوّاها بالأرض في شعبان سنة 690هـ = 1291م.

ـــ تحرير طرطوس: احتلها الصليبيون مرتين، ثم هاجمها الأمير المملوكي بلبان الطباخي في عهد الأشرف خليل سنة 690 هـــ = 1291م، فهرب أهلها إلى جزيرة أرواد، ودخلت الجيوش المملوكية المدينة.

ـــ تحرير أرواد: وهي آخر معقل للصليبيين في الشام، و قاعدتهم التي يحاولون منها العودة إلى احتلالها، كما اجتمع بها كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا، وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين، فقرر المماليك تحريرها وجهّزوا حملة لذلك، وعُين الأمير جمال الدين آقوش العلائي قائداً عاماً للحملة، التي قاتلت حتى استطاعت فتح الجزيرة في المحرم من سنة 702هـــ = 1303م، ووصل الخبر إلى دمشق، فدقت البشائر فيها ثلاثة أيام.

5ـــ الحملة الصليبية على الإسكندرية:

بعد أن تولى بطرس لوزينيان عرش قبرص سنة 760هـــ= 1358م، قام بخطوة جريئة تمثلت برحلته إلى الغرب سنة 763هـــ=1362م سعياً لإشعال حرب صليبية ضد المماليك. وقد اختار هذا الملك وجهة حملته الصليبية مدينة الإسكندرية مع أن هدفه كان بيت المقدس، ونستطيع أن نستنتج غاياته من ذلك بمايلي:

ـــ إنّ الملك بطرس كان يتوق إلى استعادة ميراثه العائلي في مملكة بيت المقدس.

ـــ كان يدرك أن المماليك أو الأتراك لو سيطروا على البحار فيعني ذلك وقوع جزيرة قبرص تحت رحمتهم.

ـــ موقع الإسكندرية الفريد في الطرف الشمالي للساحل الإفريقي، وهو موقع هيأ لها الاتصال السهل بين قارات العالم القديم الثلاث، وأضفى عليها مكانة خاصة من الناحية التجارية.

ـــ اعتقاد الصليبيين أنه من العسير من الناحية العملية غزو بلاد الشام ما لم يكن ثمة قاعدة لهم على الساحل.

ـــ ما كانت تعانيه مصر من ضعف تمثل بعدم الاستقرار السياسي بسبب صغر سن السلطان شعبان، وضآلة حامية المدينة، وفيضان النيل وما نتج عنه من غمر الدلتا بالمياه، وانتشار وباء الطاعون.

على كل حال؛ جهّز الملك بطرس جيشه عدة وعدداً، ثم أصدر أوامره بالتوجه نحو الإسكندرية، وبعد عدة محطات استغرقت خمسة أيام لاحت سفن الأسطول الصليبي لأنظار أهالي الإسكندرية، فظنوها سفناً تجارية، ثم أدركوا حقيقتها، فقاموا بتعزيز أسوار مدينتهم وأبراجها، ثم بدأ الملك بطرس أولاً بهجوم بحري، واستطاع اقتحام المدينة بوحشية بالغة رغم المقاومة الشديدة، وقتل جنوده ما يزيد عن العشرين ألفاً، وعاثوا فساداً في المدينة. عندها وصل جيش القاهرة بقيادة الأمير قطلوبغا المنصوري، فانضم إليه يلبغا الخاصكي، فما كان من الصليبيين إلا أن فروا بأسطولهم هاربين نحو جزيرتهم.

6ـــ فتح المماليك لقبرص:

بعد أن كثرت هجمات القبارصة على موانئ السلطنة المملوكية في مصر وبلاد الشام، قرر السلطان الأشرف برسباي غزوهم في عقر دارهم ليضع حداً لتلك الاعتداءات المتكررة التي ظن القبارصة من خلالها أن دولة المماليك ضعيفة، وليؤمّن تجارة مصر في المتوسط.

وكان فتح قبرص على ثلاث مراحل: حملة استكشافية ناجحة، ثم حملة ثانية نجحت ثم انسحبت، ثم حملة ثالثة حققت النصر والفتح المبين.

فوجّه السلطان الأشرف برسباي سنة 827هـ= 1424م حملته الأولى لغزو جزيرة قبرص، وكانت حملة استكشافية صغيرة، وصلت إلى الشاطئ القبرصي جنوبي ميناء ليماسول، واتجهت الحملة بعد ذلك إلى ميناء ليماسول، وبعد قتال أصبحت ليماسول مشرعة الأبواب أمام المسلمين فدخلوها وسيطروا عليها، ثم أقلعت سفن المماليك من السواحل القبرصية فوصلت إلى مصر بعد شهرين من العام نفسه محملة بالغنائم والأسرى، ومحققة أهدافاً عديدة من أهمها: معرفة مدى ضعف القبارصة وضعف إمكاناتهم العسكرية والمادية، وأن القيادة القبرصية كانت داعمة ومؤيدة لأعمال القراصنة على السواحل العربية الإسلامية. وهذه الحملة شجعت على القيام بالحملة الثانية.

لذلك ما إن عادت الحملة الأولى منتصرة حتى أمر السلطان الأشرف برسباي ببناء سفن جديدة لتشكيل حملة ثانية في سنة 828 هـ= 1425م، وبعد أن تم تجهيز السفن وشحنها بالمؤن والأسلحة، غادرت الحملة الشواطئ المصرية باتجاه سواحل بلاد الشام، فاتجهت أولاً إلى بيروت حيث انضمت إليها السفن التي تم بناؤها هناك، ثم اتجهت نحو طرابلس، ثم قررت الإبحار إلى قبرص، وعليها الآلاف من جنود البر والبحر ورماة النفط، وبعد أربعة أيام وصلت الحملة إلى ميناء قرباص على الساحل الشمالي الشرقي لجزيرة قبرص، ثم تحركت من هناك جنوباً إلى ميناء فاماجوستا (الماغوصة)، حيث خيّمت هناك.

ثم أقلعت السفن المملوكية جنوباً إلى ناحية الملاحة (لارناكا)، فاعترضها أسطول قبرصي، فدارت معركة بحرية عنيفة انتهت بهزيمة القبارصة وفرارهم في عرض البحر تحت وطأة قذائف السفن المملوكية. ثم نزلت قوات المسلمين إلى بر الملاحة لمقاتلة الجيش الذي أرسله الملك جانوس بقيادة أخيه إلى هناك، فانتصروا عليه وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من أفراده، كما نهبوا الملاحة والقرى المجاورة حتى ضاقت مراكبهم عن حمل الأسرى، وامتلأت أيديهم بالغنائم، وبعد ذلك توجه جيش المماليك إلى ليماسول جنوباً، وأنزلوا ما يقارب من مئة وخمسين من المقاتلين استطاعوا أن يستولوا على حصن المدينة، على الرغم من قوته ومناعته، ورفعوا على قصرها الراية السلطانية، ثم فضّل وقرر الجميع العودة إلى مصر بعد هذه الانتصارات التي أحرزوها والغنائم الثقيلة التي حملتها السفن.

وعلى الرغم من نتائج حملة الأشرف برسباي الثانية على جزيرة قبرص، وتحقيقها قدراً كبيراً من الانتصارات، فإن ذلك لم يثنه عن التوجه لحملة ثالثة (829 هـ= 1426م)، ويبدو أن ذلك يعود للأسباب التالية:

ـ لم تحقق الحملة الثانية الاستيلاء على قبرص.

ـــ لم تقض على الوكر الذي اتخذه القراصنة مركزاً لهم لمهاجمة البلاد العربية الإسلامية.

ـــ تحريض مدينة جنوة لبرسباي ضد ملك قبرص جانوس لوزينيان بسبب عدائهم له.

ـــ استنجاد بعض الشعوب الإسلامية من الأتراك على شاطئ آسيا الصغرى بدولة المماليك لحمايتهم من عدوان القبارصة.

ـــ وصول أنباء تفيد أن ملك قبرص جدّ في عمارة قوته البحرية، واستنجد بملوك غرب أوربا، و عزم الجميع على المسير إلى شواطئ السلطنة المملوكية.

وهنا أعلن برسباي الجهاد العام في جميع أنحاء بلاده، واستجاب لندائه أعداد غفيرة من الناس من مصر وبلاد الشام، وكان خروج الحملة الثالثة من الشواطئ المصرية إلى قبرص مباشرة دون المرور بموانئ الشام.

أقلعت المراكب الإسلامية من الإسكندرية، ثم تابعت سيرها باتجاه قبرص إلى أن وصلتها، فرست السفن عند ليفادن على شاطئ أفذيمة على بعد بضعة أميال من ليماسول، فنزلت القوات البرية إلى البر وضرب الجند خيامهم في أرض الجزيرة، وبقيت القوات البحرية في السفن على أهبة الاستعداد لمواجهة أي هجوم بحري مفاجئ.

وأسرعت القوات البرية بمهاجمة مدينة ليماسول، واستمرت المعركة ست ليالي متتالية تمكن المماليك بعدها من فتح قلعة ليماسول، وشرعوا في هدمها وتخريبها. ثم بدؤوا بالاستعداد للزحف براً لمنازلة ملك قبرص بعد أن سمعوا من البنادقة أن الملك جانوس استعد في خمسة آلاف فارس وسبعة آلاف راجل، وكان جانوس قد قصد خيروكيتا الواقعة في الشمال الشرقي من ليماسول وعسكر في سهل متسع استعداداً للقاء المماليك.

فعزم المماليك على الزحف إلى داخل الجزيرة للاستيلاء على عاصمتها نيقوسيا، واستقر الرأي بينهم أن ينقسموا في زحفهم إلى قسمين، قسم بري بقيادة الأمير تغري بردي المحمودي، وقسم بحري بقيادة الأمير إينال الجكمي، على أن تسير القوات البرية بمحاذاة القوات البحرية كي لا تتعرض السفن لهجوم الأسطول القبرصي في غياب الجيش، وأن يكون اجتماع القسمين بميناء الملاحة.

ولا شك أن هذه الخطة التي ضمنت دوام القرب والاتصال بين الجيش والأسطول كانت ناجعة، وأثناء مسير القوات البرية المملوكية نحو الملاحة، ظهر لهم الملك جانوس على رأس قواته عند خيروكيتا الواقعة فيما بين ليماسول والملاحة. وفي هذا المكان دارت بين الفريقين موقعة حاسمة انتهت بهزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس مع أعداد كبيرة من أفراد قواته، و قُتل أخوه في ميدان المعركة، وقيل إن جملة من قُتل من الصليبيين في ذلك اليوم بلغ ستة آلاف.

وبعد مسح المنطقة عسكرياً توجّه الأمير تغري بردي على رأس قواته البرية إلى العاصمة نيقوسيا، فيما استمر الأمير إينال الجكمي على رأس السفن في الملاحة لحفظ جانب البحر. ثم دارت معركة بحرية بين الطرفين وانتهت بانتصار

المسلمين وأسرهم لإحدى السفن القبرصية، بينما فرّت باقي سفنهم إلى عرض البحر بعد أن قُتل من بحارتها ما يزيد على مائة وسبعين.

ولم يجد المماليك بعد ذلك صعوبة في دخول مدينة نيقوسيا عاصمة قبرص، حيث طلب أهلها الأمان، فأمّنهم الأمير تغري بردي، ثم فتحوا المدينة، فدخلها وأمر أن يُنادى في أنحاء البلاد بالأمان، ودخل تغري بردي القصر الملكي فوجد به من الأمتعة ما لا يحصى، وأذّن المسلمون لصلاة الجمعة على صوامع الكنائس، فأقاموا بها الصلاة.

لقد كانت نتائج فتح قبرص عظيمة للغاية، إذ أدت إلى تدمير القوة البحرية القبرصية، ووضعت حداً لأعمال القرصنة والاعتداءات على سواحل دولة المماليك، وأكدت تلك الحملات على قدرة الأسطول والسلاح المملوكي على خوض أشد المعارك وأعتاها عند الحاجة.

وصارت دولة المماليك سيدة الموقف في الحوض الشرقي للبحر المتوسط، وطورت النشاط التجاري المملوكي بعد القضاء على قراصنة قبرص، ووسعت العلاقات البحرية مع المناطق الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية والدول والممالك الأوربية، خاصة الإيطالية منها.

وفيما يلي أستعرض أبرز معركة للمماليك مع المغول.

ـــ عين جالوت:

بعد استيلاء المغول على بغداد عام 656هـ = 1258م، قصد هولاكو الشام، فوصل إلى حلب ودخلها ودمّرها، ثم توجه إلى حماة ومن هناك قصد دمشق واستولى عليها وعلى سائر الشام، وتابع الجيش المغولي زحفه نحو الغرب وأخذ يعد العدة للهجوم على بيت المقدس تمهيداً للهجوم على مصر، فوجّه هولاكو عام 658هـ=1260م إنذاراً إلى المظفر قطز، كله تهديد ووعيد وإنذار بالويل لسلطان مصر المملوكي، إن هو لم يخضع ويعترف بسلطان المغول ويستسلم له، فما كان من قطز إلا أن عقد اجتماعاً عاجلاً مع أمراء دولته بحثوا فيه هذا الموقف الخطير، فأجمع الحاضرون على قتل الرسل والسير لمواجهة المغول، فأمر قطز باعتقال رسل المغول وضرب رؤوسهم، وفي تلك الأثناء غادر هولاكو بلاد الشام متوجهاً إلى عاصمته بعد أن سمع بقيام صراع على السلطة هناك من جهة، ولخوفه على أملاكه في إيران من جهة أخرى، موكلاً قيادة الجيش للقائد كتبغا.

وبعدها وضع قطز ـــ الذي اشتهر بالبراعة السياسية ـــ خطة عسكرية محكمة تتضمن مايلي:

ـــ تدعيم الجبهة الداخلية وتعبئة الرأي العام استعداداً لخوض المعركة.

ـــ المباشرة بالاستعدادات العسكرية.

ـــ استقطاب الأمراء الأيوبيين والمماليك بهدف توحيد الصف العربي الإسلامي في بلاد الشام ومصر تحت قيادة واحدة.

ـــ إرسال قوة استطلاعية بقيادة الظاهر بيبرس لدراسة الموقف على الأرض، وقد اصطدمت هذه القوة مع الحامية المغولية الموجودة في غزة، وطاردت أفرادها حتى نهر العاصي.

ـــ عسكر قطز بعد ذلك في منطقة الحدائق الواقعة خارج عكا عدة أيام.

ـــ ثم تهادن قطز مع الصليبيين، الذين استاؤوا من المغول لمهاجمتهم مدينة صيدا ونهبها، فعرضوا على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم، ولكنه شكرهم وطلب منهم أن يكونوا لا له ولا عليه، وهددهم إذا اعتدوا على مؤخرة جيش المسلمين أن يعود إليهم ويقاتلهم قبل أن يقاتل المغول.

ـــ ثم توجه قطز نحو عين جالوت البلدة اللطيفة التي تقع بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين، فوصلها في يوم الجمعة 25 رمضان من عام 658هـ=1260م، واشتبك الجيشان المملوكي والمغولي، وبعد قتال شديد مرير انجلت المعركة عن نصر رائع للمماليك، وقُهر المغول، وقُتل قائد جيشهم كتبغا.

ـــ وبعد انتصار المماليك في عين جالوت توجه قطز مباشرة نحو دمشق ودخلها، ثم سيطر على سائر بلاد الشام من الفرات إلى حدود مصر.

ـــ ثم استناب نوابه على كل من دمشق وحلب وحماة والمعرة والسلمية والساحل وغزة، موسعاً بذلك الأراضي والبلاد التي يسيطر عليها المماليك ومحققاً وحدة بلاد الشام ومصر من جديد.

وكان لهذه المعركة نتائج هامة للغاية، أبرزها أنها ثبتت حكم دولة المماليك في مصر والشام، وكنا قد تحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك، **وهذه أبرز نتائج هذه المعركة:**

ـــ كانت معركة عين جالوت من المعارك الحاسمة في التاريخ العربي والإسلامي لما ترتب عليها من نتائج مهمة أبرزها اعتراف الأيوبيين بالحكم المملوكي، وقد تحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك.

ـــ أعادت الوحدة بين مصر وبلاد الشام بعد تمزيقها من قبل ورثة صلاح الدين الأيوبي الذين أضاعوا أمجاده.

ـــ أدت هذه المعركة إلى ظهور دولة المماليك قوية أمام باقي قوى العالم آنذاك، فأصبحت دولة يحسب لها حساب، ويهابها القريب والبعيد. وأظهرت هذه المعركة المماليك القوةَ الأساسيةَ في الشرق.

ـــ لقي المغول ـــ لأول مرة في تاريخهم في الشرق ـــ هزيمة حاسمة، وبذلك قضى المماليك على الخرافة التي تقول إن المغول لا يغلبون.

ـــ أنقذت هذه المعركة العرب والإسلام والمسلمين وأوربا من أعظم خطر، لأن المغول كانوا ماضين في زحفهم.

ـــ أدى انتصار المماليك إلى احتفاظ مصر بحضارتها ومدنيتها على عكس ما حدث لبغداد من الدمار والخراب.

ـــ أصبحت مصر والشام ملجأ العلماء والأدباء، وتحدثنا عن ذلك ضمن عوامل قيام دولة المماليك.

ـــ أدت هذه المعركة إلى رفع معنويات الجيش المملوكي إلى أقصى حد، فلم يكن هذا الجيش قبل معركة عين جالوت شيئاً يذكر، فهو لم يخض معركة مهمة كهذه المعركة من قبل، و لم يكن قد زج في قتال لاختبار جاهزيته وقدرته الحربية، ففي معركة المنصورة اشترك بصورة غير موحدة مع الأيوبيين، في حين برزت عبقرية قادته وكفاءتهم الحربية في هذه المعركة أمام جيش روّع العالم ووُصف بأنه لا يقهر، فكانت هذه المعركة سبباً في تشجيع الجيش المملوكي ودفعه على فتح بقية الجهات الأخرى والتصدي للصليبيين وغيرهم من القوى الخارجية والسيطرة الكاملة على الساحل وعلى الأراضي الشامية والمصرية.

ـــ وأدت تلك الطموحات والمعنويات إلى ازدياد حجم الجيش المملوكي بعد هذه المعركة، وتعددت تشكيلاته القتالية، فأصبح في عهد الظاهر بيبرس ثلاثة جيوش: أحدها في مصر، والثاني في دمشق، والثالث في حلب، وبلغ عدده (40000) مقاتل، وبلغ في عهد الملك الناصر محمد (150000) مقاتل، ثم تطور هذا الجيش فأصبح يضم قوات مركزية في مصر وقوات احتياطية، ودخل في قوامه جيوش القبائل العربية والتركمان والأكراد، ووصل العدد إلى (357000) مقاتل. هذا من حيث العدد، أما من حيث العدة، فقد طرأ تطور كبير على نوعية الأسلحة واختصاصات الجنود، فبنيت الجسور والترع، وتطور سلاح النفط والنيران وتنوعت المواد الحارقة، وتنوعت الأسلحة الكيميائية من قنابل دفاعية وهجومية، وتطور سلاح المدفعية تطوراً ملحوظاً، وكذلك السلاح البحري، وغير ذلك من الأسلحة والأنظمة التي طرأت على الجيش المملوكي، مما تحدثنا عنه بالتفصيل في بحث الجيش المملوكي.

ـــ وأخيراً تعد معركة عين جالوت معركة فاصلة؛ لأنها فتحت تاريخاً جديداً لدولة المماليك، ومهدت لسلسلة من الغزوات ضد الصليبيين والمغول والأرمن والغرب الأوربي.